

168 ن. >

168 ن. >

مكتبة العربية السنية

قررت الرئاسة العامة لتعليم البنات تدريس هذا الكتاب وطبعه على نفقتها

الرئاسة العامة
تعليم البنات

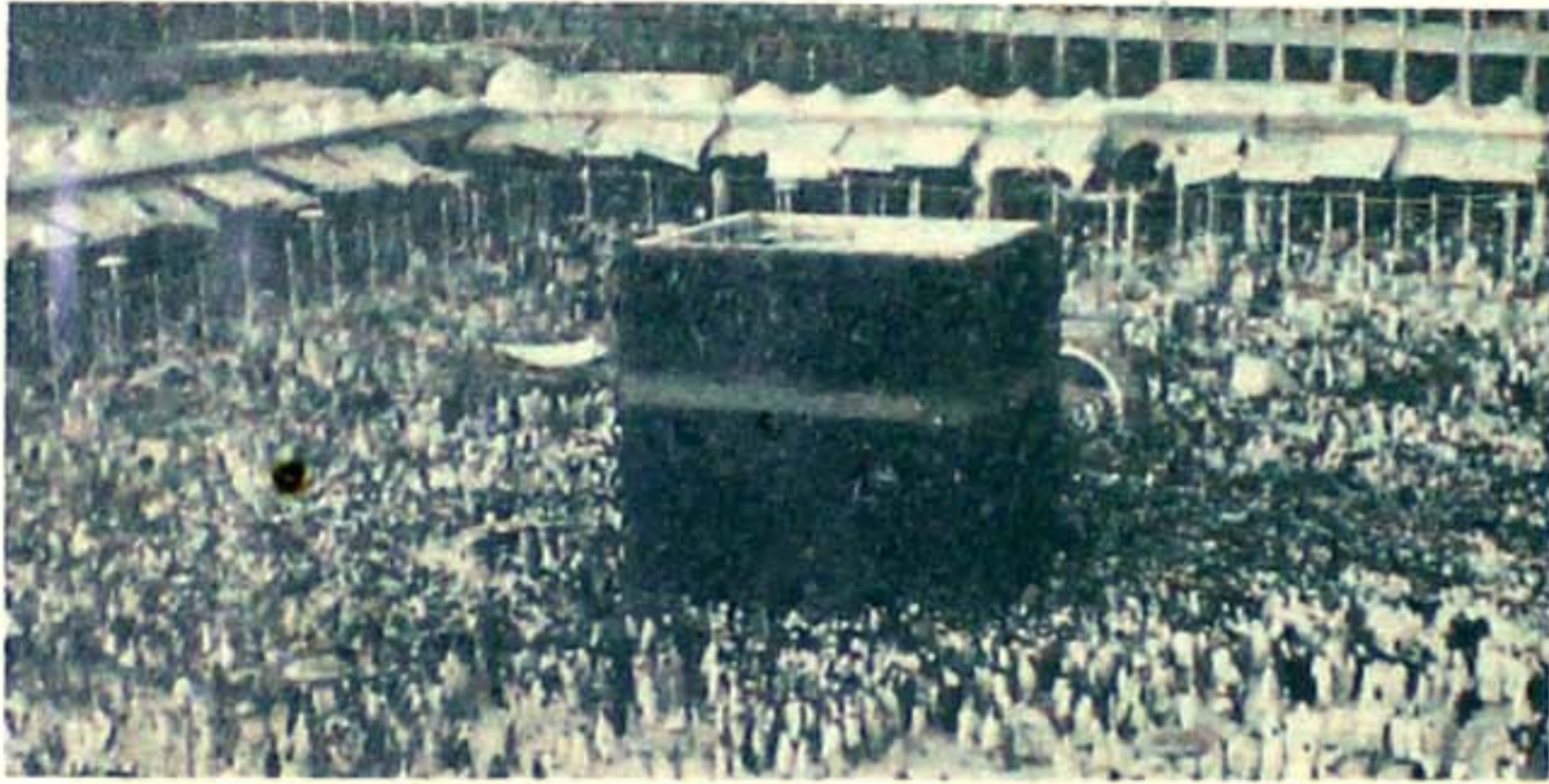
كمدسة
المدى لبيد كمدسة
الرقعة ملكية كمدسة
الحمد الربيع

الحديث والثقافة الإسلامية

للصَّفِّ الأوَّلِ الثَّانَوِيِّ



3076



يوزع مجاناً ولا يباع

١٣٩٥ - ١٣٩٦ هـ

١٩٧٥ - ١٩٧٦ م

البيعة الأولى

المجلة العربية السعودية

رئاسة العامة
لتعليم البنات

١٥٠

قررت الرئاسة العامة لتعليم البنات تدریس هذا الكتاب وطبعه على نفقتها.

3076

المحدث والثقافة الإسلامية

للصَّفِّ الأول الثانوي

تأليف
مناع خليل القطان

الطبعة الأولى

١٣٩٥ - ١٣٩٦ هـ
١٩٧٥ - ١٩٧٦ م

يوزع مجاناً ولا يباع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بهديه.

تشهد المملكة العربية السعودية نهضة شاملة في مرافق الحياة كلها، وتعيش أزهى عصورها في النهضة الإسلامية المرتقبة، التي يتطلع العالم الإسلامي إلى انبثاقها من هذه الديار، حيث انبثق نور الإسلام ببعثة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فخلص الإنسانية من براثن الشرك والجهالة، وهداها إلى السبيل السوي.

وتواكب النهضة التعليمية سائر مرافق دولتنا الفتية، وتجد عناية فائقة من رائد الأمة ومليكمها المفدى، بعون من الله، ثم من حكومة جلالته، ومن القائمين على التعليم بفروعه المختلفة، وفي مقدمتهم معالي وزير المعارف.

وإذا كانت الأمم تعنى بتربية ناشئتها بالعقيدة التي تدين بها، فجدير بنا نحن أمة الإسلام أن نولي هذا الجانب عنايتنا، حتى تكون مسيرتنا الخيرة في نهضتنا التعليمية مرتكزة على أسس راسخة من عقيدتنا الإسلامية.

والمرحلة الثانوية - بما تحمله من خصائص نفسية لدى طلابها - هي المرحلة المخصصة لتنمية مشاعر الإيمان، وتربية العواطف الإسلامية النبيلة، وغرس القيم الأخلاقية السامية، وتأكيد الثقة في صلاحية الإسلام لقيادة البشرية وهدايتها في كل عصر، وبعث الروح الإسلامية التي تذكي في النفس طموحها إلى المثل العليا، كي

نستأنف الحياة الإسلامية الصحيحة، ونحقق الانتماء الحي إلى أمة الإسلام. فنكون كما وصفنا الله تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾^١ ومادة الحديث والثقافة الإسلامية إحدى المواد الدراسية التي تتسق مع مواد المنهج الأخرى في تحقيق تلك الأهداف. فإن أي نمط من أنماط الدراسة في بلدنا المسلم - مهما كانت مادته العلمية - يحمل في طياته بناء الفكر الإسلامي السليم. انطلاقاً من المادة الثانية عشرة من سياسة التعليم التي جاء فيها:

«توجيه العلوم والمعارف بمختلف أنواعها وموادها منهاجاً وتأليفاً وتدریسا وجهة إسلامية في معالجة قضاياها، والحكم على نظرياتها، وطرق استثمارها، حتى تكون منبثقة من الإسلام، متناسقة مع التفكير الإسلامي السديد».

ولم يكن هناك بأس في أن تكون مادة «الحديث والثقافة الإسلامية» مادة واحدة، لأن مناهجنا الدراسية بموادها المختلفة تحقق وحدة متكاملة لإيجاد التصور الكامل للكون والإنسان والحياة، يستوي في هذا العلوم الإنسانية والعلوم الكونية. وقد نصت المادة الرابعة عشرة من السياسة التعليمية على هذا، حيث جاء فيها:

«التناسق المنسجم مع العلم والمنهجية التطبيقية (التقنية) باعتبارها من أهم وسائل التنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والصحية، لرفع مستوى أمتنا وبلادنا، والقيام بدورنا في التقدم الثقافي العالمي».

وعماد الثقافة الإسلامية القرآن والحديث، والحديث يشمل أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته العملية. وهذا هو بيان القرآن:

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾^٢ وحياء رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الواقع القرآني. وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه فقالت: «إن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن»^٣ وجعل الله لنا في رسولنا الأسوة

١ - الآية (١١٠) من سورة آل عمران.

٢ - الآية (٤٤) من سورة النحل.

٣ - من حديث رواه الإمام أحمد.

الحسنة ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾^١ فلا بدع أن يكون الحديث النبوي والثقافة الإسلامية مادة علمية واحدة .

وموضوعات هذه المادة تتناول دراسات في السيرة النبوية، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخطبه، وطرفاً من هديه عليه الصلاة والسلام في شئون حياته. وتتناول دراسة تحليلية لنفر من أعلام الإسلام الذين سرى فيهم قبس النبوة فكانوا هداة مهتدين. كما تتناول بحثاً لعدد من الموضوعات التي يقوم عليها بناء الشخصية الإسلامية عقيدة وفكراً وسلوكاً.

وثقافة أي قبيل من الناس هي مجموعة العلوم والمعارف التي تحدث تأثيراً في الحضارة البشرية، ومادة هذه الكلمة في اللغة تدل على الحذق في إدراك الشيء وفعله، يقال: ثَقِفَ الشيءَ ثَقْفًا وَثَقَافَةً: أي حَذَقَهُ، ورجل ثَقْفٌ، وَثَقِفُ، وَثَقْفٌ: إذا صار حاذقاً فطنا.

والثقافة بمعناها العام، تشمل جميع المعارف التي تتطلبها الحضارة، في الدين، والآداب، والعلوم السياسية، وعلم الاجتماع، والاقتصاد، والجغرافيا، والتاريخ، والرياضيات، والطبيعة، والكيمياء، وعلوم الهندسة، والطب، وسائر ألوان المعرفة.

والثقافة الإسلامية في المرحلة الثانوية تتناول الجوانب العامة للفكر الإسلامي في مختلف شعب الحياة، في العقيدة، والعبادة، والتشريع، والأخلاق، وتكشف عن أصالة هذا الدين وما تتضمنه شريعته من أسس وقواعد تنمي بمتطلبات الحياة الفاضلة في كل عصر. وتعطي الطالب مناعة تجنبه حبال المبادئ الغازية الدخيلة، وتسلحه بالقدر اللازم الذي يرد به شبه المبطلين، ويمكنه من دحض مفتريات المغرضين.

ونستطيع أن نعرف الثقافة الإسلامية في ضوء ما ذكرناه آنفاً بأنها:

إدراك المفاهيم الإسلامية الصحيحة لجوانب الحياة المختلفة وإننا من خلال دراسة هذه المادة وارتباطها الوثيق بمواد الدراسة الأخرى نستهدف تحقيق المادة

١ - الآية (٢١) من سورة الأحزاب.

الثالثة والعشرين من سياسة التعليم التي تنص على ما يأتي :
«شخصية المملكة العربية السعودية متميزة بما خصها الله به من حراسة
مقدسات الإسلام، وحفاظها على مهبط الوحي، واتخاذها الإسلام عقيدةً وعبادةً
وشريعة ودستور حياة. واستشعار مسؤوليتها العظيمة في قيادة البشرية
بالإسلام وهدايتها إلى الخير»

وقد توخيت في عرض موضوعات هذه المادة ما استطعت سهولة العبارة،
واختيار الألفاظ، وجودة السبك، وروعة المعنى، وجلاء الهدف، ورجعت إلى
النصوص في مصادرها الأصلية، وتناولتها بالتحليل لاستنباط ما تحمله من أفكار
ومبادئ ومثل.

والتزمت في ترتيب المادة العلمية ما جاء في المنهج، حتى تكون الموضوعات على
نسق معه، مختصراً بعض العناوين في عبارة موجزة، ممهداً لبعضها بتمهيد مناسب،
وبذلت جهدي في أن تنخرط جميع الموضوعات في سلك واحد ليكون عقدها منسجماً
رتيباً.

وأمل أن يجد الطلاب في هذه المادة غذاء فكرياً، يحيي في نفوسهم معاني
الإسلام، حتى يعيشوا بمشاعرهم مع هذا الدين العظيم، ليصنعوا به لأمتهم في
حاضرها ومستقبلها ما صنعه أسلافهم لها في ماضيها، وبهذا تنتقل من رواية التاريخ
إلى صناعة التاريخ.

وأمل كذلك أن يجد هؤلاء الطلاب من مدرس هذه المادة طاقة إيمانية متقدمة،
تثير الحوافز النفسية لاستنفار شبابنا المسلم، وحفز همته، للإسهام في النهضة
الإسلامية الواعية، وبناء حضارتنا على أسس وطيدة من عقيدة الإسلام وهدى
شريعته، والله من وراء القصد.

المؤلف

مناح خليل القطان

أولاً: دراسات في السيرة

أمة ورسول:

نحن أمة مجيدة، وإذا كانت أم الدنيا تسجل مجدها لتتخذ منه نبراساً تهتدي به، وحافزاً يشحذ عزائم أبنائها للحفاظ عليه، فكثيراً ما يكون هذا تاريخاً مصطنعاً ليس له من واقع الحياة سوى النزر اليسير، ولذا تغلو كل أمة في تسطير ما أحرزته من تقدم، وما وصلت إليه من مجد، وتحيطه بهالة من الإكبار يشوبها التضليل والتهويل. ومجدنا نحن - أمة الإسلام - لم يسطره يراع إنسان تسيّره الأهواء، وتحمله العصبية على كتابة تاريخ زائف لأمته، يرفعها به إلى ذروة العلا، وإنما سطر تاريخنا وحي الله فيما تنزل على رسله، وحمله موكب النبوات المتتابع عبر القرون والأجيال. إنه مجد أصيل عريق، يمتد في أغوار التاريخ إلى أب الأنبياء إبراهيم عليه السلام عندما أرسى دعائم أول منارة لعبادة الله في الأرض:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴿٩٧﴾﴾

حيث أوحى الله إليه أن يبني هذا البيت، وأرشده إلى معاله، فأخذ في بنائه، وإسماعيل يناوله، وكان من دعائهما ما حكاه القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَإِرْنَا مَنَاسِكًا وَمِنْ آيَاتِنَا عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

٢ - الآيات (١٢٧ - ١٢٩) من سورة البقرة.

١ - الآيات (٩٦ - ٩٧) من سورة آل عمران.

فكانت هذه الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وكان الرسول الذي بعث فيها هو نبينا محمد «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^١.
وتتابع الأنبياء يحملون هذه البشرية بميلاد أمة وميلاد رسول، تكون تلك الأمة خير أمة أخرجت للناس، ويكون هذا الرسول خاتم النبيين، ورحمة الله المسداة إلى العالمين، وأخذ الله الميثاق على كل نبي وعلى أتباعه أن يؤمنوا به، وأن ينصروه، فأقروا على أنفسهم بذلك، وشهدوا عليه، وشهد الله معهم تأكيدا للعهد، وتوثيقا لعراه، فلا يجيد عنه إلا فاسق:

﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ تَرَجَّاءَ كَرُّرَسُولٍ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَإِنَّمَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾^٢.

وبشرت التوراة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كما بشر به الإنجيل:
﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾^٣.

وجرى حديث هذا على ألسنة أحبار اليهود ورهبان النصارى جيلا بعد جيل، يخبرون عما وجدوا في كتبهم من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

وكان يتحدث بمبعثه كذلك كهان العرب، يخبرون عما يأتيهم به الجن فيما يسترقون من السمع على توهم واختلاف، إذ كانوا لا يحجبون عن ذلك بالقذف بالنجوم قبل

٢ - الآيتان (٨١، ٨٢) من سورة آل عمران.

١ - رواه مسلم وغيره.

٣ - الآية (١٥٧) من سورة الأعراف.

البعثة، فيصيبون ويخطئون. فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيل بينهم وبين ذلك، فلفت السماء حرساً شديداً، وحفظت أرجاؤها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسترخوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على السنة الكهنة، فيلبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق؟ ورُموا بالنجوم، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد.

وكانت بشائر النبوة سابقة على ذلك كله، فقد ذكر أهل السير أن أمه عليه الصلاة والسلام كانت تحُدِّث، أنها أتيت، حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم سميه محمداً، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام^١.

وخرج أبو طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكافله من ركب إلى الشام، فاستعظم رسول الله فراقه، فرق له، واصطحبه معه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك ابن تسع سنين، وقيل ابن اثني عشرة سنة^٢. فلما نزل الركب بصرى استضافهم راهب يقال له بجيرى^٣ في صومعة له، وكان لديه علم أهل النصرانية، فجعل بجيرى يلحظ رسول الله صلى الله عليه وسلم لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، ثم انفرد به وسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله يخبره، فيوافق ذلك ما عند بجيرى من صفته، ثم قال لعمه: «ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم».

وتجاوزت دلائل النبوة البشرية الناطقة إلى بشرى الجهاد، فالكائنات كلها لله، وهي شاهدة بلسان الحال ولسان المقال على توحيد الله:

١ - انظر ابن هشام ص ١١٦ ج ١. ٢ - راجع الطبري، وابن هشام، والروض الأنف.

٣ - بصرى بالضم: مدينة حوران بالشام. وبجيرى: بفتح الموحدة وكسر الحاء المهملة بعدها راء مقصورة.

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾^١ ويجعل الله في كل شيء تمييزاً بحسبه، فشاء الله أن تشارك الجمادات الحياة الإنسانية في بشرى النبوة، عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»^٢

وعن أبي أمامة قال: «قلت يا رسول الله: ما كان أول بدء أمرك؟ قال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»^٣

هذا هو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك هو مجد أمته، فأى شرف لدى أمة من الأمم كهذا الشرف؟

٢ - رواه مسلم وغيره.

١ - الآية (٤٤) من سورة الإسراء.

٣ - رواه أحمد.

أ- صور من حرصه صلى الله عليه وسلم على الدعوة

أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد، حتى جاءه الملك ونزل عليه الوحي.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حي المشاعر، يقدر مسئولية الأمانة التي يحملها، وعظمة الرسالة التي أكرمه الله بها، ويعلم ما تنطوي عليه هذه الرسالة من خير للبشرية كلها، ينقذها من براثن الشرك، ويخلصها من أدران الجاهلية، ويأخذ بيدها إلى المحجة الواضحة، ويقودها إلى السبيل السوي، إنه يعيش بمشاعره وأحاسيسه لهذا الدين، يدعو إليه قوما في طباعهم جفوة، وفي نفوسهم خشونة، توارثوا تقاليد الجاهلية عن الآباء والأجداد، وهم من الأنفة ما يجعل انقيادهم مستعصيا، فما كادوا يسمعون بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى واجهوه

بالتكذيب والنكير ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ
إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا إِلَّا شَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾ وَإِطَّلَعْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَنْ مَشَوْا وَصَبَرُوا عَلَىٰ لَهْتِكُمْ أَنْ هَذَا شَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا

فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٧﴾، أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْهُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلِّمَاءِ يَدُوعُونَ ﴿٨﴾ ﴿١﴾

لذنب رسول

فلم يدع القوم سهما من سهام أباطيلهم حتى رموه به، وتلك سنة الله في

دعوات الرسل جميعا ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٥﴾﴾ ﴿١٨٥﴾
﴿كَذَّبَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٣﴾ اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢﴾﴾

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحرص على تبليغ دعوته، وتحمل في سبيل ذلك ألوانا من الأذى ليس لها نظير.

٢ - الآية (١٨٤) من سورة آل عمران.

١ - الآيات (٤-٨) من سورة ص.

٣ - الآية (٥٣) من سورة الذاريات.

صور من حرصه :

١ - إذا عميت البصائر عن الحقيقة كانت فجيعة الحياة الإنسانية التي لا يدركها إلا أهل البصيرة النيرة، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على يقين من الهدى الذي بعثه الله به، وما فيه من خير للبشرية. والقوم تعميهم جاهليتهم عن سماع دعوته. أو تأخذهم العزة بالإثم فلا يستمعون إليها، فيحز ذلك في نفس رسول الله، ويتجرع مرارته حسرة وألماً، وهما وغماً، لا على نفسه، ولكن على ما بهؤلاء المعرضين من جهالة وصلف، وما يترتب على ذلك من خسارة وحرمان، ويوشك هذا الأمر أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أسى وحزناً، أرأيت محباً صبأ أرقه الشوق، وأضناه الفراق، وأرمدته البعد، وأهمه الجوى؟! إنه يعاني متاعب كثيرة، ويتجشم مشاق جمّة، تودي بنفسه صباية!! كذلك كان شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرصه على إيمان قومه. وقد أصبح بالإسلام الصبّ المعنى، حتى قال الله تعالى في وصف حاله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ١

٢ - وفتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشق ذلك عليه وأحزنه، حيث يجد فيه أنس نفسه. وربيع قلبه، وغاية أمله، وطلبته التي ينشدها لخير الإنسانية. فهذا الوحي يولد الإنسان ميلاداً جديداً، يتذوق فيه الحياة الحقّة. حياة الروح والقلب. هذه الحياة التي يتميز بها عن سائر الأحياء، فليست الحياة الإنسانية في مفهوم الإسلام بالقوة النامية، لأنها توجد في النبات والحيوان، ولا بالقوة الحساسة، لأنها توجد في الحيوانات كلها، ولا بالقوة العاقلة الضالة، لأن مثل هذه الحياة كحياة الأنعام أو أضل، وإنما تكون الحياة في مفهوم الإسلام بالقوة العاقلة المهتدية، التي تهدي الإنسان إلى جادة الحق، وتقوده إلى المحجة البيضاء، وتنير بصيرته إلى النهج الأقوم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ٢
﴿أَوْ مَن كَانَ مِثْلًا فَأَجِينَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِمَخْرُجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ يُزِنُ

١ - الآية (٦) من سورة الكهف.

٢ - الآية (٢٤) من سورة الأنفال.

لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ * ١ وتصل هذه الحياة ذروتها في الإسلام عندما يفنى المسلم في عقيدة هذا الدين، ويبدل الحياة نفسها من أجله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿١٦٩﴾ * ٢

وحرصاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم على تقديم هذه الحياة للإنسانية فقد أصابه الغم عندما فتر الوحي عليه، وظهر أثر ذلك فتشمت فيه الشامتون. وتقول المغرضون، وأشاعوا قالة السوء، عسى أن يصيب الوهن من نفسه عليه الصلاة والسلام موضعاً، ولكن خاب ظنهم. وأسقط في يدهم، وعندما تأخر عنه أيام مرضه تنزل بآياته المعجزة، يحنو عليه ويسليه، ويعده عطاءً يرضيه، ويعرفه الله ما ابتدأه به في عاجل أمره من كرامته. ومنه عليه في يتمه وعيلته وضلالته، «اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد. إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ * ٢

٣ - استمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين يدعو الناس إلى الإسلام سرا. فأمن به نفر، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث الناس به، ثم أمره الله أن يصدع بالأمر، وأن ينذر الأقربين من عشيرته، فبادر إلى البلاغ، وأخذ أسبابه الجهرية التي تجعل لندائه روعة، ولصوته صدى، وكأنه ينشد ضالة يستصرخ الناس من أجلها، ويستنفرهم إليها، فيصعد على الصفا حتى تتجاوب أصداؤه نداءه في جنبات الأودية. ووجه النداء إلى كل بطن من بطون قومه باسمه، فسارعوا إليه، ملين هذه الصرخة المدوية، ما شأنها؟ وما خبرها؟ وماذا وراءها من أمر له خطره؟ واستوثق لنفسه أولاً، واستنطقهم بما يعرفون من صدقه، استيثاقاً لتصديقه فيما يخبر به. فأقروا له بذلك. فلما أخذ تقريرهم على أنهم يعلمون من سيرته فيهم صدق

١ - الآية (١٢٢) من سورة الأنعام.

٢ - الآية (١٦٩) من سورة آل عمران.

٣ - أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

حديثه، ويقين خبره، أبلغهم بأمر دعوته، وأنذرهم نذير المنقذ لهم، الذي يبتغي خلاصهم، وهم عشيرته الأقربون، فإذا لزمتهم الحجة، ولم تأخذه في إنذارهم رافة، كان ذلك تأكيداً لإلزام غيرهم.

وقد تضمن هذا النداء استجاشة النفس، واستشارة قواها، واستجماع مشاعرها، لتعطي الأمر عنايته، وتحذر مغبة الإعراض عنه.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلنهم في موقف لا خيار لهم فيه، وكأن الخطر قد أحرق بهم من كل جانب، ليلتهمهم التهام النار للهشيم، فليس لهم إلا أن يشتروا أنفسهم، ويجعلوا الإيمان به وطاعة رسالته ثمناً للنجاة والخلص. انظر إلى موقفه صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه الآية الكريمة ﴿وَإِنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وتدبر كلماته عليه الصلاة والسلام، تر تلك الصورة الهائلة من وراء كل حرف، حرصاً على إبلاغ الدعوة. وتقديراً لمسئوليتها: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما نزلت ﴿وَإِنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي - لبطن قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو هب وقريش فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو هب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا؟ فنزلت: ﴿بَتَّ يَدَا أَبِي هَبٍ وَبَتَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ وجاء في رواية أبي هريرة: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله ﴿وَإِنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: يا معشر قريش، أو كلمة نحوها: اشترُوا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه

١ - الآية (٢١٤) من سورة الشعراء.

وسلم، سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً^١.

٤ - ويصور رسول الله صلى الله عليه وسلم حاله معهم، وقد حمل رسالة الإنقاذ إليهم، ليخلصهم من المهالك، ويأخذ بيدهم إلى شاطئ السلامة، وكأنهم يتهافتون على النار، يرمون أنفسهم فيها بشدة، بلا روية ولا تمييز، وهو يمسك بخناقهم، ومعاقدهم أزرهم، ليحول بينهم وبين التردى فيها، إنهم كالفراش، يرون في الشرك والمعاصي بريق الهوى الزائف. وضوء الغواية الخداع. فيسقطون في شركها متهافتين سقوط الفراش في النار على غير هدى، يظنه الضوء الذي يطلبه، والنهار الذي يرجوه، فإذا به النار المحرقة، واللهيب المستعر. وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته لقومه، يدعوهم إلى رسالة الإسلام، سفينة الخلاص، ومركب النجاة، ويأخذ بمحجزهم عما هم فيه من جحيم الشر، ولكنهم لضعف تمييزهم، ومخاطرتهم بهلاك أنفسهم، يلجئون في الباطل الذي يجرحهم إلى النار، اتباعاً لشهواتهم. وغلواً في مكابرتهم، كما يقتحم الفراش النار يظنها ضوء النهار من ضعف بصره، ونحن نشاهد هذا الفراش حول السرج ومصادر الضوء.

نرى هذا المثل المعبر في قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما مثلي ومثل الناس، كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، جعل الفراش - وهذه الدواب التي تقع في النار - يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبهن، فيقتحمن فيها، فأنا أخذ بمحجزكم عن النار، وهم يقتحمون فيها)^٢ ألا ما أكثر فراش أمتنا اليوم في اقتحام المهالك!! وما أقل دعاة الحق المخلصين!!

٥ - وضرب الأمثال يبرز المعاني في صورة حسية، فيستجمع الذهن قواه، ويكون ذلك أدعى للإصغاء إلى الحق، وتهيئة النفس لقبول الخير، ومن أمثلة العرب «أنا النذير العريان» وأصله أن رجلاً لقي جيشاً فجرده وعروه، فجاء إلى قومه فقال: إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير لكم، ثم صار الرجل إذا رأى الغارة قد

١ - متفق عليه

٢ - متفق عليه من حديث أبي هريرة.

فجأتهم، وأراد إنذار قومه، تجرد من ثيابه، وأشار بها ليعلم أنه قد فجأهم أمر، ثم صار مثلاً لكل أمر يخاف الناس مفاجأته، ولكل أمر لا شبهة فيه. وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المثل لأئمة، لأنه تجرد لإنذارهم، حيث كان العالم يرسف في أغلال الجهل، ويتخبط في دياجير الضلال، ويفط في سبات الغي، ويعيش في دنيا الأوهام والخرافة، والقوم قد أورثهم طول الأمد بالرسول جدبا في القلوب، جفت منه جداول الخير، ولم تكن بقايا الأديان السابقة - بما فيها من تحريف - سالحة لأن تجلو صدأ النفوس. وتحيا على هديها أمة، وتقوم على شريعته دولة، وفي كل شبر على ظهر المعمورة خطر يكشر عن أنيابه ويفر فاه ليلتهم القيم الإنسانية إلى غير رجعة، ويسحق مقومات الحياة في غير أناة، ولصدي أحداث انتكاس الإنسانية دوي يشعل الرأس شيبا.

وفي دجنة هذا الليل الحالك والأسى المرير، استيقظت الدنيا على فجر رسالة الإنقاذ، فصدع محمد صلى الله عليه وسلم بما أمر به بين بطحاء أم القرى ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا

النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾

وطرق الرسول الجديد مسامع الحياة بالدعوة الإسلامية، دعوة التوحيد، التي تجلجل بقوارع الحق. وتقوض بمعولها معاقل الشرك، صدع بها الداعية المنقذ صلوات الله وسلامه عليه، واضحة كفلق الصبح، صافية كقطر الندى، قوية في صولة الحق، مجردة من الهوى، لا يريد بها سوى نجاة الناس ابتغاء مرضاة الله. وعندما تلوح في الأفق البوارق المفاجئة، تشخص الأبصار، ويرتج على الألسنة، ويقع الناس في حيرة من أمرهم، ولا يكاد يسكن هذا الدوار حتى تتمايز طائفة من طائفة.

فالقلوب التي صفا معدنها، يضرب صوت الحق بنغمه الشجي على أوتارها، فتهتز لروعته. وتمتزج روحها بروحه، وتحله منها في السويداء، وتسلمه زمامها طائفة.

١ - الآية (٨٩) من سورة الحجر.

وتسير في موكبه سير المدلج على بصيرة، يطلب الخلاص. ويتطلع إلى النهار المشمس الذي لا ليل بعده في دار النعيم، إنها حزب الله تحت لواء دينه، وجنده الذي يحمي حوزته ويصون عرينه، بدمائها الزكية ترتوي شجرة الإسلام، ومن حياتها الجادة يبني مجده. وهي في كل عصر الطائفة الظاهرة على الحق، التي تمثل أعلام الهدى. والقلوب التي باض فيها اللؤم وأفرخ، وراق عليها العمى وجمدت على ما فيها من خبث، أصبحت حجراً صلداً، يصل إليها صوت الداعي فيرتد صداه. وكأنها ترد الحق إلى مصدره. ثم لا تفتأ ترمي أهله بما في كنانتها من باطل، حتى تقع بها الواقعة، وينزل البأس، وتحق الحاقة، وعندئذ تأتيها الجائحة المهلكة، بل تجتثها من جذورها، وتنبذها نبد النواة حطبا لنار جهنم.

ذلك هو ما ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً في قوله: «مثلي ومثل ما بعثني الله، كمثل رجل أتى قوماً فقال: رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة فأولجوا على مهلم فنجوا، وكذبت طائفة، فصبحهم الجيش فاجتاحهم»^١

٦ - دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله، مظهراً له. لا يرده عنه شيء، وذكر آلهة القوم، وعاب أحوالهم، فهاهم منه ذلك وأعظموه، وأجمعوا على خلافه وعداوته، وعزموا على النيل منه. لكنهم رأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه^٢، وقام دونه، فشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب، وقالوا له: يا أبا طالب: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ولم يفت ذلك في عضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل مضى قدماً في سبيل

١ - متفق عليه.

٢ - حذب عليه: عطف عليه.

دعوته . يظهر دين الله ويدعو إليه . حتى اشتد الأمر على قريش ، وحض بعضهم بعضا عليه ، ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب : إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا . أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله لهم ولا خذلانه . في هذا الموقف المخرج عرض أبو طالب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة القوم ، مشفقا عليه وعلى نفسه ، فظن أن عمه قد بدا له رأي فيه ، وأنه سيخذله ويسلمه للقوم ، أترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذا يستسلم للواقع المر ، وهو يعلم ما يدعو إليه من الحق ؟ لا . إنه أشد حرصا على هذه الدعوة ، يفديها بكل عزيز لديه ، ويهب لها روحه ، ويجعل حياته وقفا عليها . فيجيب عمه بهذا القول ، الذي يعبر عن قوة الحق في ضعف أهله ، وصلابة عود الإيمان به في ساعة العسرة ، لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته « قال ابن اسحاق : ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ، ثم قام . فلما ولى ، ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخي ، قال : فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً »

٧ - وما أكثر مفاتن الحياة ! في الجاه والمال والزينة ، وأمام أهواء هذه المفاتن تضعف العزائم ، وتخور الهمم ، ويتضاءل الطموح الشامخ فلا تشاهد منه إلا ذرات متناثرة . ولو كان رسل الله كزعماء الأرض الطامحين ، لاستهوتهم هذه المفاتن ، وتطاحن أمامها طموحهم ، ورضيت بها أنفسهم ، ففنعوا بالسيادة والمال والمتعة مأربا ، ولكنهم سفراء الله إلى خلقه هدايتهم إلى دينه ، واستقامة سلوكهم على شرعه ، لا

يسألون الناس من وراء ذلك جزاء ولا شكورا، ولسان حالهم كما حكى القرآن عنهم: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٩) ﴿١﴾ ،
وكما قال الله تعالى في رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشِئَةً وَفُرَادَى تَتَنَفَّكِرُوا مِثْلَمَا بَصَاحِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٤٦) ﴿٢﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴿٣﴾ وقال:

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٨٦) ﴿٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴿٥﴾

لقد تجرد صلى الله عليه وسلم لدعوته ابتغاء مرضاة الله، وكان هدفه الأسمى أن يؤمن به الناس، وكان حرصه على ذلك لا يعدله شيء من أعراض الحياة الدنيا، فلم يقبل في ذلك أي مساومة.

٨ - وما فتىء رسول الله صلى الله عليه وسلم يبحث عن مسالك شتى لدعوته، يلتمس لها نصيرا، وينشد لها قلبا. فأخذ يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه، قال ابن اسحاق: وحدثني حسين بن عبد الله بن عبيد بن عباس، قال سمعت ربيعة بن عباد يحدثه أبي قال: إني لغلام شاب مع أبي بمنى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بني فلان: إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به. أتى كل قبيلة في منازلها بموسم الحج، يعرض عليها دعوته، وإنما يعرض صاحب الحاجة، وليست حاجة رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا حاجة مسألة، ولكنها حاجة دعوة. يهدي بها الناس إلى الحق، ويرشدهم إلى السبيل السوي، ويخرجهم

١ - الآيات (١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠) ٢ - الآية (٤٦، ٤٧) سبا. من سورة الشعراء.

٤ - ابن هشام ص ٦٤ ج ٢.

٣ - الآيات (٨٦-٨٨) ص.

من الظلمات إلى النور.

وظل يمد يده إليهم، فيقابل تارة بالإساءة، ويرد أخرى ردا جميلا، حتى فتح له الله له القلوب، وبدأ إسلام الأنصار، فأمن به رهط من الخزرج، وحملوا الدعوة إلى قومهم، قال ابن اسحاق: «فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لهم: من انتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام، أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزَوْهُمْ ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيا مبعوثُ الآن، قد أظلم زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبنك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا».

فلما كان العام المقبل، وافوه صلى الله عليه وسلم بالعقبة فبايعهم على بيعة النساء^١، وذلك قبل أن يفرض القتال. ثم كانت بيعة العقبة الثانية حمايةً ونصرةً، أخذها عليهم، وتم اختيار نقبائهم، وهي بيعة الحرب، حين أذن الله لرسوله في القتال، بايعهم على حرب الأحمر والأسود، وأخذ لنفسه، واشترط عليهم لربه،

١ - ابن هشام ص ٧٠، ٧١ ج ٢.

٢ - أي التي لا قتال فيها، وهي مذكورة في سورة المتحنة.

وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة . وحضر العباس بن عبد المطلب هذه البيعة ، وهو يومئذ على دين قومه . إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فقال لهم العباس : يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار : الخزرج ، خزرجها وأوسها - إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده ، فقالوا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذي بعثك بالحق نبيا ، لئمنعك مما تمنع منه أزرنا^١ ، فبايعنا يا رسول الله . فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة^٢ ، ورثناها كابرا عن كابر ، فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان^٣ فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم^٤ ، أنا منكم وأنتم مني . أحارب من حاربتكم ، واسالم من سالمتم . قال ابن اسحاق : فحدثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه الوليد ، عن جده عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء ، قال :

١ - أزرنا: أي نساءنا، والمرأة قد يكتى عنها بالآزار.

٢ - أي السلاح.

٣ - هو مالك بن التيهان، وانظر: الروض الأنف، ص ٢٦٨.

٤ - قال ابن قتيبة: كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دمك، وهدمي هدمك، أي ما هدمت من الدماء هدمت أنا. وقال ابن هشام أي ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم. وهذه البيعة كانت للأوس مع الخزرج.

«بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الحرب، على السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم».

٩ - شرع القتال، وقام الصراع الدموي بين الإيمان والكفر، وصال الإسلام بخيله ورجله في سرايا وغزوات عدة، واشتد الشوق بالجماعة المؤمنة لزيارة بيت الله الحرام، بعد حرمانهم منه قرابة ست سنوات، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فاستبشر الصحابة خيرا، وطابت نفوسهم بذلك. حتى يطفنوا ظمأهم من حرم الله، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة في ذي القعدة سنة ست، يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى، حتى إذا كان بعُسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله: هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجت معها العوذ المطافيل^١، قد لبست جلود النمر، يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغميم^٢، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس. فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فإذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به، حتى يظهره الله عز وجل. أو تنفرد هذه السالفة^٣، ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين جهة الحُدَيْبِيَّة من أسفل مكة^٤، فلما رأت خيل قريش قترَةَ الجيش^٥ قد خالفوا

١ - والحديث صحيح في كتب السنة.

٢ - العوذ: جمع عائد، وهي من الإبل الحديثة النتاج، والمطافيل: التي معها أولادها، والمراد النساء والصبيان.

٣ - كراع الغميم: موضع بالحجاز بين مكة والمدينة، وهو واد أمام عُسفان، وعسفان: بين الجحفة ومكة.

٤ - السالفة: صفحة العنق، وكني بانفرادها عن الموت.

٥ - الحديبية: قرية سميت باسم بئر هناك، بينها وبين مكة مرحلة، عند الشجرة التي كانت تحتها البيعة.

٦ - قترَةَ الجيش: غباره.

عن طريقهم، رجعوا راکضين إلى قريش، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا سلك في ثنية المرار برکت ناقته، فقال الناس: خلأت الناقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها.

ثم كانت السفارة بينه وبين قريش، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، إنما جاء زائراً للبيت، ومعظمًا لحرمة، ولكنهم اتهموا سفراءهم، وقالوا: لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تتحدث بذلك عنا العرب، عندئذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر رضي الله عنه لبيعته إلى مكة، ليبلغ أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشا على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها. ولكن أدلك على رجل هو أعز مني بها - عثمان ابن عفان - رضي الله عنه. فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثه يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظمًا لحرمة. فخرج عثمان رضي الله عنه حتى أتى مكة، فلقاه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته، وحمله بين يديه، وردفه خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه، إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاحتبسته قريش عندها.

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل، فدعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، بايعوه صلى الله عليه وسلم على أن لا يفروا أبداً، فأرعب ذلك المشركين، وأرسلوا سهيل بن عمرو يريدون المودعة والصلح،

١ - الخلاء في الإبل بمنزلة الحران في الدواب. ٢ - كان عددهم في أصح الروايات أربع عشرة مائة.

فلما انتهى سهيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر، ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وقال ما قال، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله، أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني، قال الزهري: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرا.

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، قال: فقال: سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اكتب باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض. على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة^١، وأنه لا إسلال ولا إغلالات^٢، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه^٣.

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلح قام إلى هديه فنحره.

١ - عيبة الرجل: موضع سره، والمراد صدور منظوية على ما فيها لا تبدي عداوة.

٢ - الإسلال: السرقة الخفية، والإغلالات: الخيانة.

٣ - انظر ابن هشام ص ٣٣١ ج ٣، ومسند أحمد وسائر كتب السنة، والبداية والنهاية لابن كثير ص ١٦٤ ج ٤ ط

مكتبة المعارف بيروت.

إن ظاهر هذا الصلح قد لا يكون كريماً. ولكن القيادة الملهممة الرشيدة، لها نظرتها الثاقبة البعيدة. فكيف بقيادة النبوة في رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ إنه الداعية الذي أثر مصلحة دعوته، حرصاً منه على إبلاغ رسالته. وهياً هذا الصلح للدعوة مناخاً آمناً، ونزلت فيه سورة الفتح، حيث كان توطئة للفتح الأكبر، فتح مكة بعد سنتين.

قال ابن القيم في فوائد صلح الحديبية:

ومنها: أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمت الله تعالى، أجبوا إليه، وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون على تعظيم ما فيه من حرمت الله تعالى. لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك. فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرضٍ له أجيب إلى ذلك، كائناً من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبعوض لله أعظم منه...

ومنها: جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم...
ومنها: أن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائز للمصلحة الراجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال ادناهما...
ومنها: أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، فكانت هذه الهدنة باباً له، ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه...

ومنها: أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح، فإن الناس أمن بعضهم بعضاً. واختلط المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان محتفياً بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله فتحاً مبيناً،... وصد رسول الله صلى الله عليه

عنه كتب النبي كما في رسول ر سدي

وسلم وأصحابه عن البيت كان في الصورة الظاهرة ضيماً وهضماً للمسلمين، وفي
الباطن عزا وفتحاً ونصراً.^١

١٠ - والكتابة من وسائل البلاغ، فإنها تحمل الدعوة إلى مسامح الناس على البعد.
ولم يكذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجع من الحديبية حتى كتب إلى ملوك
الأرض، وأرسل إليهم رسله. فبعث ستة نفر في يوم واحد في المحرم سنة سبع، وكتب
إلى ملوك الروم والفرس والحبشة، فمنهم من عظم كتابه وأحسن القول، ومنهم من
مزقه وأساء. عن أنس رضي الله عنه: «أن نبي الله صلى الله عليه وسلم، كتب إلى
كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس
بالنجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم»^٢.

وعن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره من فيه إلى فيه^٣، قال: انطلقت في المدة
التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فبيننا أنا بالشام إذ جيء
بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، يعني عظيم الروم، قال:
وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى
هرقل. فقال هرقل: هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا:
نعم، قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال:
أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت:
أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، فقال له: قل
لهم: إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبتني فكذبوه، قال: فقال
أبو سفيان: وإيم الله لولا مخافة أن يؤثر عليّ الكذب لكذبت، ثم قال لترجمانه:

١ - انظر زاد المعاد ص ٣١٣ وما بعدها ج ٢ مطبعة السنة المحمدية.

٢ - رواه مسلم، وكسرى: لقب لكل من ملك الفرس، وقيصر: لكل من ملك الروم. والنجاشي: لكل من ملك
الحبشة، والنجاشي الذي صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم، وهذا الثاني المراد في الحديث لا يعرف
إسلامه.

٣ - من فيه إلى فيه: يعني مشافهة.

٤ - أي ذهب إلى جهة الشام للتجارة مدة صلح الحديبية.

سله كيف حسبه فيكم؟ قال: فقلت: هو فينا ذو حسب، قال: فهل كان من آباءه
مَلِك؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا،
قال: ومن يتبعه أشرف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم، قال:
أيزيدون أم ينقصون؟ قال: قلت: بل يزيدون، قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه
بعد أن يدخل فيه سَخْطَةً له؟ قال: قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم،
قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالا يصيب
منا ونصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع
فيها، قال: فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه، قال: فهل قال هذا
القول أحد قبله؟ قال: قلت: لا، قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه
فذكرت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها، وسألتك هل
كان في آباءه مَلِكٌ: فزعمت^٢ أن لا، فقلت لو كان من آباءه مَلِكٌ قلت رجل يطلب
مَلِك آباءه، وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرفهم فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم
أتباع الرسل. وسألتك هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن
لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله،
وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سَخْطَةً له، فزعمت أن لا،
وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون،
فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل قاتلتموه، فزعمت
أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا ينال منكم وتنالون منه، وكذلك
الرسل تُبْتَلَى ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر، فزعمت أنه لا يغدر،
وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله، فزعمت أن لا.
فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل أثم بقول قيل قبله. قال: ثم قال

١ - سَخْطَةً: بفتح السين من السخط، وهو كراهة الشيء وعدم الرضا به.

٢ - رواية البخاري فذكرت.

بسم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف، قال: إن يكن ما تقول فيه حقا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه^١، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. وليبلغن ملكه ما تحت قدمي، قال: ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك برعاية الإسلام، أسلم تسلم. وأسلم يوتك الله أجر^٢ مرتين^٣، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسين^٤.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مَزْدُونًا اللَّهُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾^٥:

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابي: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر^٦، قال: فما زلت موقناً بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام^٧.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى أنوشروان، فزق كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم مزق ملكه» فزق الله ملكه وملك قومه.

وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط بالاسكندرية، فقال خيرا، وقارب الأمر، ولم يسلم، وأهدى للنبي صلى الله عليه وسلم مارية، وأختها. وتوالت بعوثة صلى الله عليه وسلم بكتبه إلى عمان، والبحرين، واليمن.

١ - وقع في البخاري: لتجشمت لقاءه.

٢ - الأريسون: الفلاحون والزراعون الذين يتبعونك لأنهم رعاياك.

٣ - الآية (٦٤) من سورة آل عمران.

٤ - أمير: عظم، بفتح الهمزة وكسر الميم.

٥ - متفق عليه.

ب - صور من تحمل الأذى في سبيل الدعوة

١ - تميل النفس إلى مألوفها، وتعيش أسيرة له، وتتنكر لكل جديد عليها، وما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدع بدعوته، ويعلن وحدانية الله تعالى والاعتراف برسالته. فيما يعبر عنه بالشهادتين «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» حتى أدركت قريش مغزى هذه العقيدة. وأن الإيمان يعني التجرد لإله واحد، والبراءة من الأنداد جميعا، فارتجف فؤادها، وهزتها الدعوة هزا عنيفا، وأخذت تكيل التهم لرسول الله، فكذبوه وأذوه. ورموه بالشعر والسحر والكهانة، وناصبوه العدا، وتحيروا فيما يبيتونه له، وما يصفون به قرآنه.

جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام^١، فأتاه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: يعطونك، فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنت كاره له، قال: فإذا أقول فيه، والله إن لقوله لحلاوة. وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإن أصله لعذق^٢، وإن فرعه لجناه، وإنه ليعلو وما يُعلَى، وقال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر، فنزلت:

﴿ذرني ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع أن أزيد، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا، سأرهقه صعودا، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر، سأصليه سقر، وما

١ - اسمه: عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، فيكون الوليد عمه.

٢ - العذق: النخلة، يشبهه بالنخلة التي ثبت أصلها وقوي، وطاب فرعها إذا جنى.

أدراك ما سقر، لا تبقى ولا تذر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر ﴿ .

٢ - واشتد حنق القوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، واحتدموا غيظا، وتفاقم شرهم، فأخذت جموعهم تحيط به، وترمي بسهام بهتانها في وجهه، وتنال منه. حدث عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يُظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفه أحلامنا وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا. فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه^١ ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ثم مضى. فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح^٢ قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة^٣ قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولا. قال: فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض، ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه. حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوثبوا إليه وثبة رجل

١ - غمزوه: طعنوا فيه.

٢ - الذبح هنا: مجاز عن الهلاك.

٣ - الوصاة: الوصية.

٤ - يرفؤه: يهدئه ويسكنه ويرفق به.

واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، أنا الذي أقول ذلك. قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع رداءه، قال: فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي ويقول: أقتلون رجلا أن يقول: ربي الله! ثم انصرفوا عنه. فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط.

قال ابن اسحاق: وحدثني بعض آل أم كلثوم بنت أبي بكر، أنها قالت: لقد رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه^١، مما جذبوه بلحيته، وكان رجلا كثير الشعر^٢.

٣ - وكثيرا ما يلجم الحق ألسنة المتطاولين، وماذا عسى يجد المبطل من فرية يلصقها بالحق؟ وهو يعلم أنه كذاب أشر، قالوا في القرآن الكريم إنه أساطير الأولين، وقالوا: إنهم أحسن حديثا منه.

﴿وَقَالُوا سَاطِرُ الْأَوَّلِينَ كُتِبَ عَلَيْهَا فِيهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾^٣. ونفثوا سموم حقدهم كلما سمعوا آية من كتاب الله، حتى سبوا من أنزله، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾^٤ قال: نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختلف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم. فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب

١ - صدعوا: شقوا، والفرق: حيث يتفرق الشعر في مقدمة الجبهة.

٢ - ابن هشام ص ٣٠٩، ٣١٠ ج ١. ٣ - الآية (٥) من سورة الفرقان.

٤ - الآية (١١٠) من سورة الإسراء.

رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فنازعوهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، قال ابن اسحاق: فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بعير فشججه، فكان أول دم أُهريق في الإسلام.

٤ - والتهكم سلاح لاذع، يستخدمه المستهزئون، ويتسلى به الساخرون. وقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم صنوفاً من ذلك في مجالس أشرف قريش كلما مر عليهم، أو اجتاز طرقاتهم، يعيرونه بأبيه من الرضاة فيقولون: هذا ابن أبي كبشة، ويسخرون مما يدعوا إليه، ويفرون به سفهاءهم للنيل منه في صلاته استهزاء وضحكا. عن ابن مسعود قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نَحَرَتْ جُزُورٌ بِالْأَمْسِ، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا^١ جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه^٢، فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه. قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم. والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد، ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جُوَيْرِيَّة، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم. وكان إذا دعا دعا ثلاثاً. وإذا سأل سأل ثلاثاً. ثم قال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك. وخافوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، «وذكر السابع ولم أحفظه»^٣ فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لقد رأيت الذين سمي

١ - السُّلَا: هو اللقافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية: المشيمة.

٢ - أشقى القوم: هو عقبة بن أبي معيط، كما صرح به في الروايات الأخرى.

٣ - وقع في رواية البخاري تسمية السابع، وأنه عمارة بن الوليد.

صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القلب، قلب بدر»^٢.

وهكذا يجد المؤمنون من المارقين في كل عصر:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٤١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمُ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٤٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٤٤﴾ عَلَىٰ لَأَرَأَيْتَ يَنْظُرُونَ ﴿٤٥﴾ هَكَذَا تَوَبَّ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾^٣.

٥ - والعبادة زاد الدعاة، وعدة المصلحين، يصلون بها من الله ما قطعه الناس، ويجدون فيها راحة نفوسهم، وبصيرة قلوبهم، ويقين ثباتهم وصبرهم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى بالبيت الحرام منيباً إلى ربه، معتصماً بحبله، ملتصقاً مرضاته، متطلعاً إلى وعده، تعرض له عتاة قريش، ووقفوا له بالمرصاد، يصدونه عن غايته. ويحولون بينه وبين مأربه، فهم لا ينقمون عليه وعلى دعوته إلا خوفاً من ظهور أمره، وعلو شأنه، وذهاب سلطانهم، فكيف يسمحون له أن يصلي أمامهم؟ لقد صار الأمر قذياً في أعينهم، قال ابن عباس: «قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه. فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة»^٤.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد، ألم أنك عن هذا؟ وتوعده. فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره. فقال يا محمد: بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر أهل الوادي نادياً»^٥. وفي هذا نزل قوله تعالى:

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِإِنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كُلَّ لَئِن لَّمْ يَنْسَ لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾

١ - القلب: هي البئر التي لم تطو.

٢ - متفق عليه واللفظ لسلم.

٣ - الآيات (٢٩-٣٦) من سورة المطففين.

٤ - متفق عليه.

٥ - رواه أحمد والترمذي والنسائي، والنادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم ويقضون فيه أمورهم.

٦ - لنسفاً بالناصية: لنجذب ولناخذ بالناصية. ٣٣ «يوزع مجاناً ولا يباع»

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۗ ﴿١٧﴾ سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ ۙ ۱ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تَطْفَعُ ۚ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۗ ﴿١٩﴾ ۚ ۲ .

٦ - وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من ظلم غيرهم، لما يشعر المرء به نحو أقربائه من عطف. وما تربطه بهم من صلوات الرحم. وهذا من شأنه أن يجعل أمل الإنسان وطيدا في مؤازرة عشيرته. ونصرة قرابته، وإن ضعف هذا الأمل بتخليهم عن عونه، فإنه لا يتوقع أذاهم، وقد افتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمل الضعيف، واستبدل به أحد أعمامه بغضا وازدراء له، وتَنَقُّصًا واستهزاء بدينه. ذلك هو أبو هب^٣. قال ابن اسحاق: «حدثني حسين بن عبد الله ابن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول: «إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول، وضيء الوجه ذو جمعة^٤. يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة فيقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به» وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن اقمش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمحوها له، ولا تتبعوه، فقلت لأبي من هذا؟ قال: عمه أبو هب^٥».

وكانت زوجته أم جميل^٦ - وهي من سادات نساء قريش - تخوض مع زوجها هذه الحملة الجائرة والحرب الشعواء في عداة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تسعى

١ - الزبانية: ملائكة العذاب، من الزين وهو الدفع.

٢ - الآيات (٩-١٩) من سورة العلق. وانظر تفسير ابن كثير.

٣ - اسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمي أبا هب لإشراق وجهه.

٤ - الجمعة من شعر الرأس: ما سقط على المنكبين.

٥ - ورواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ.

٦ - اسمها أروى بنت حرب بن أمية، فهي أخت أبي سفيان.

بالنيمة والأذى والفتنة والوقية. وروي أنها كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد اتخذ أبو هب موقفه هذا من رسول الله منذ فجر الدعوة. عندما نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم القبائل وأنذرهما. فقال أبو هب: ألهذا جمعنا؟ تبالك. ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي صلى الله عليه وسلم - ولو لم يكونوا على دينه - تلبية لدافع العصبية القبلية خرج أبو هب على إخوته، وحالف عليهم قريشا، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يُسلموا لهم محمدا صلى الله عليه وسلم.

وفي أبي هب وأم جميل نزلت السورة:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا إِذْ أَتَا لَهَبًا ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

٧ - وللقرآن إعجازه الذي يهز مشاعر أهل العربية. واللغة في قمة مجدها لدى قريش، حيث انتهت جداول الفصحى في لهجات العرب إلى لغتهم. فهم الذين يتذوقون بلاغة القرآن، وروعة بيانه، ولكن كبرياء الجاهلية يعمي بصيرتهم عن الاعتراف بجلال هذا الكتاب المنزل، ويجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه، فلا يسعهم إلا أن يرموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسحر أو الجنون أو الشعر أو الكهانة، ويتعاضم الأمر في نفوسهم إذا تلا القرآن عليهم:

وَإِذَا قُرَّتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبُّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نَفُورًا ۝٤٦ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ذِي الْقُرْآنِ أَنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧ إِنِّيظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨

١ - التباب: الهلاك والبوار والقطع.

٢ - من مسد: من ليف، وهو الذي تشد به الشوك على المعنى الحقيقي. وهو كناية عن النيمة وحمل الشر والفتنة على المعنى المجازي.

٣ - الآيات (٤٥-٤٨) من سورة الإسراء. ٣٥

وخشية أن تملك فصاحة القرآن أفئدتهم تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا إليه ،
لأنه - كما يدعون - يسحرهم ، ويغلب عقولهم ، ويفسد حياتهم ، ويفرق بين الوالد
وولده ، والزوج وزوجه . وينتهي عجزهم عن المواجهة بالحجة ، والمقارعة بالبرهان
إلى المهاترة ، فيلغون أثناء تلاوة القرآن بالصياح والهرج ، والمكاء والصفير ، والسجع
والرجز ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَافِرَ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢٦) . وهذا شأن أولئك
الذين يصدون عن سبيل الحق ، فإنهم حين يسقط في أيديهم عجزا عن مواجهة الحق ،
يلجأون إلى صرف الناس عنه بغوغائية التضليل ، وصخب الأباطيل ، ودوي الدعاية
الجوفاء ، ولكن هذا كله يذهب أدراج الرياح أمام قوة الحق التي تقهرهم ، وترغمهم
على الاعتراف به ، قال ابن اسحاق : « وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ،
أنه حدث : أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن
عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا . يستمع
فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ،
فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض
سفهانكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد
كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ،
فجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، حتى
إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع
الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا
نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في
بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة ،

١ - الآية (٢٦) من سورة فصلت .

والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها، ولا ما يُراد بها. قال الأحنس: وأنا والذي حلفت به كذلك.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعتَ من محمد؟ فقال: ماذا سمعتُ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا^١ على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فنتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدق، قال: فقام عنه الأحنس وتركه^٢.

وكان عتبة بن ربيعة سيدا في قومه، قال يوما وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة^٣ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد، أسمع. قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا^٤ تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه

١ - تجاذى: أقمى، وربما جعلوا الجاذي والجاثي سواء.

٢ - ابن هشام ص ٣٣٧، ٣٣٨ ج ١.

٣ - السطة: الشرف.

٤ - الرثى: ما يتراءى للإنسان من الجن.

ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يُداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل: فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

حَمَّ ① نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا لَوْلَا نُنزِّلُ فِي كِتَابٍ نَمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴿٢﴾ .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم. فإن يُصبه العرب فقد كُفيتُموه بغيركم، وإن يَظْهَرُ على العرب فلُكهُ مُلْكُكُمْ، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم^٣.

٨ - استشاط القوم غضبا وحقدا، وهم يرون دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تجذب إليها القلوب. ويفشو أمرها يوما بعد آخر، فألى كل شريف منهم على نفسه أن يناصب رسول الله العداة حيثما حل. يهزونه ويستهزئون به ويخاصمونه، والأذى الفردي المتتابع يتراكم دخانه الكثيف في أفق الداعية فيبعث على اليأس. ولكن

١ - التابع: من يتبع من الجن. ٢ - الآيات (من ١-٥) من سورة فصلت.

٣ - انظر ابن هشام ص ٣٣٣، ٣١٤ ج ١، وتفسير ابن كثير.

ذلك لم يفت في عضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فواجهه بأيمان راسخ، وعزم ثابت، ومنعه الله من قريش. وجعل القرآن ينزل فيهم بأحداثهم. وفيمن نصب له منهم، فمنهم من سمي لنا، كأبي هب وزوجه، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار.

كان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه. فأنزل الله تعالى فيه:

﴿وَبِذَلِكَ لِكُلِّ حُمْزَةٍ لَمَزَةٌ ۝١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدٌ ۝٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَةٌ ۝٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤﴾
وَمَا أَذْرَبَكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُوتَةُ ۝٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقِ ۝٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۝٨﴾ فِي عَمْدٍ مُّتَدَدَةٍ ۝٩﴾.

والعاص بن وائل السهمي، كان خباب بن الأرت، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قيناً بمكة يعمل السيوف. وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفا عملها له، حتى كان له عليه مال. فجاءه يتقاضاه. فقال له: يا خباب، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب، أو فضة، أو ثياب، أو خدم. قال خباب: بلى، قال: فأنظرنى^٣ إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب أثر عند الله مني، ولا أعظم حظاً في ذلك. فأنزل الله تعالى فيه:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ ﴿إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَزِيْرُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَزِدًا ۝٨٠﴾﴾. وعن خباب بن الأرت قال: «جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده. فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا، حتى تموت وحتى تبعث، قال: فإني لميت ثم لمبعوث، فقلت: نعم. فقال: إن لي هناك مالا وولدا فأقضيك. فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾﴾.

١ - همزة لمزة: كثير الهمز واللمز، قيل: معناهما واحد، أي عياب، وقيل: اللمز: الغمز في الوجه، والهمز في القفا.

٢ - سميت النار بذلك لأنها تحطم كل شيء تكسره وتأتي عليه.

٣ - أنظرنى: أمهلي وأخرفني.

٤ - الآيات (٧٧-٨٠) من سورة مريم.

٥ - أخرجه الشيخان وغيرهما.

٩ - وحرب القطيعة من ألوان الحرب المعروفة التي لا يشهر فيها سلاح القتل العاجل، إنما يشهر فيها سلاح القتل البطيء، تجويعاً وتخويفاً وتضييقاً، وقد استخدمت قريش هذه الحرب حين رأت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هاجروا إلى الحبشة، فأحسن النجاشي وفادتهم، وأصابوا لديه أمناً وقراراً. وأن إسلام عمر وحمزة كان شجاً في حلوقهم، ومنعة للإسلام وأهله، وأن أبا طالب يتولى حماية رسول الله فلا يسلمه إليهم أبداً. فاجتمعوا واثمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لا يُنكحُوا إليهم ولا يُنكحُوهم. ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، وكتبوا ذلك في صحيفة. وتعاهدوا وتوثقوا على هذا الأمر، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة، توكيداً على أنفسهم، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه في شعبه، واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو هلب إلى قريش فظاهرهم وانضم معهم في صحيفة المقاطعة.

اشتد أمر المقاطعة، واستمر سنتين أو أكثر، حتى أكل الناس ورق الشجر، وعز هذا على نفر من القوم، أخذتهم النخوة، واستثارتهم الشهامة والنجدة، وكان أحسنهم بلاء في ذلك: هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة، والمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وأبو البختري بن هشام، وزمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد، اتحد هؤلاء ليلاً بأعلى مكة عند خطم الحجون، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم على نقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدوكم، فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدواً إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة: أنا أكل الطعام، ولبس الثياب، وبنو هاشم هلكتي، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

١ - الحجون: موضع بأعلى مكة، وخصمه: مقدمه.

قال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبتَ والله لا تُشَق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت. قال أبو البختری: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به. قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، وما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تُشَوَّر فيه بغير هذا المكان. وأبو طالب جالس في ناحية المسجد. فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم».

١٠ - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد من عمه أبي طالب عضداً له في أمره، ومنعة على قومه، كما يجد من زوجه خديجة حسن المواساة، وجميل الوفاء، ولكنه أصيب بموتها في عام واحد. فتجرات قريش عليه، ونالت منه ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب. وأغرى ذلك سفهاءها في الأذى والسخرية، حتى اعترضه سفيه منهم فنثر على رأسه صلى الله عليه وسلم تراباً، ودخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تمسح عنه التراب، وهي تبكي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها: لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك. وكان صلى الله عليه وسلم يقول: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب^٢. ولما اشتد أذى قريش خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس تربة خصبة لدعوته. فميم وجهه شطر الطائف. وعمد إلى نفر من سادة ثقيف وأشرافهم^٣، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، واستنصرهم للإسلام، فردوا عليه رداً قبيحاً، واستكتمهم الأمر كراهة أن يبلغ قومه عنه، فيكون هذا شماتة لهم، ويجرّتهم عليه، فأبوا ذلك، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونهم ويصيحون به، حتى اجتمع عليه

١ - أنظر البداية والنهاية ص ٩٥ ج ٣. وابن هشام ص ١٥ ج ٢.

٢ - أنظر ابن هشام ص ٥٨ ج ٢.

٣ - هم إخوة ثلاثة. عبد يا ليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير.

الناس، فعمد إلى ظل حَبَلَةٍ من عنب^١، فجلس فيه. وكان من حائظ العتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وكانا يريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف. ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه إلى ربه بالشكوى: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟^٢ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبي حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك»

فلما رآه ابنا ربيعة، عتبه وشيبة، وما لقي. تحركت له رحمتها فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس، فقالا له: خذ قِطْفًا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له أن يأكل منه، ففعل عداس. ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال: باسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك أخي، كان نبيا وأنا نبي. فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه^٤.

١ - الحَبَلَة: شجرة العنب، أو قضبانها.

٢ - الحائظ: البستان.

٣ - تجهمه: استقبله بوجه كربه.

٤ - انظر ابن هشام ص ٦٢ ج ٢، والبداية والنهاية ص ١٣٦ ج ٣.

وعن عروة بن الزبير: «أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته، أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا بقرن التعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل. فناداني. فقال: إن الله عز وجل، قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال. وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

١١ - استحكمت العداة بين قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغت القلوب منهم الحناجر. ونزل البلاء بالصحابة، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت. ومعادن الناس متفاوتة، والمؤمن غيث حيثما حل أحياء موات القلوب بدعوته، ولا بأس مع الإيمان. فعلى الداعية إذا أدلهم الأمر، وأجذبت النفوس في موطن من المواطن، أو فترة من الزمن، أن يتطلع إلى مستقبل مشرق في موطن آخر، بفترة أخرى، وهكذا كانت سيرته صلى الله عليه وسلم في دعوته.

لقد عرض نفسه على القبائل، وكانت بيعة العقبة الأولى. ثم الثانية، وهي بيعة الحرب، وأذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال. عن عبادة بن الصامت - وكان أحد النقباء - قال: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب. على السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا. ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا. لا نخاف في الله لومة لائم» فهياً

١ - متفق عليه. والأخشبان: جبال مكة. أبو قبيس والذي يقابله.

الله للمسلمين بالمدينة دارا يأمنون بها، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من معه من أصحابه بمكة بالخروج إليهم، واللحوق بإخوانهم، فخرجوا أرسالا^١. فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة من غيرهم في المدينة، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم. عرفوا أنهم قد نزلوا دارا. وأصابوا منهم منعة. فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم. وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم. فاجتمع الملا منهم في دار الندوة^٢، يتشاورون في أمر رسول الله حين خافوه. وحضر معهم إبليس، وتمثل لهم في صورة شيخ نجدى، لأنهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم مع محمد. فقال قائل منهم: إحبسوه في الحديد. وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهير، والنابعة، ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدى: لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتن دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يشبوا عليكم، فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به، حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره، فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا، فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عنا، وفرغنا منه. فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدى: لا والله. ما هذا لكم برأي. ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتن أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، فأروا فيه رأياً غير هذا، فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً، ما أراكم

١ - أرسالا: جماعة في إثر جماعة.

٢ - هي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها.

وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه. فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك نفرق دمه بين القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم. فرضوا منا بالعقل^٢، فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره. فتفرق القوم على ذلك، وهم مجتمعون له. وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿وَأذِمْ كُرْبِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَشْبُوكَ أَوْ يَمُوتُوا أَوْ يُجْرَبُوا أَوْ يُنْفَكُوا أَوْ يُنْفَكُوا أَوْ يُنْفَكُوا أَوْ يُنْفَكُوا﴾^٣

فلما كانت عتمة الليل اجتمع الفتية على بابہ صلى الله عليه وسلم. يرصدونه حتى ينام، فيثبون عليه. وأخبر جبريل رسول الله أن لا يبيت هذه الليلة على فراشه، فأمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه. وأن يتسجى ببرده. ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ حفنة من التراب، ورمى به على رؤوس القوم، وهو يتلو صدر سورة «يس» فأغشاهم الله، وخرج دون أن يروه، ولم يدركوا ذلك حتى الصباح^٤.

١٢ - لم يكن حادث الهجرة حاسما للعداء والأذى، بل تعددت مصادر هذا العداء وتعاونت على الشر.

ظل المشركون على عهدهم منذ فجر الدعوة ألداء في الخصومة والعناد. ونصب اليهود بعد الهجرة العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا وضغنا. وانضم إلى هؤلاء وأولئك رجال من الأوس والخزرج، كانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، ولكن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه. فأظهروا الإسلام، واتخذوه جنة من القتل، وأبطنوا الكفر.

١ - الوسيط: الشريف في قومه.

٢ - العقل: الدية. وعقله: أدى ديته.

٣ - الآية (٣٠) الأنفال: وقوله: ليشبوك: أي ليحبسوك، يقال: رماه فأثبته: إذا حبسه، ومريض مثبت: أي لا حركة به.

٤ - انظر ابن هشام ص ١٢٥ ج ٢.

وأخذت هذه القوى الثلاث تحيك المؤامرات لرسول الله صلى الله عليه وسلم،
وتتربص به الدوائر.

فأحبار اليهود يسألون رسول الله، ويتعننونه، ويأتونه باللبس، ليلبسوا الحق
بالباطل، ويؤلبون عليه.

والمنافقون يخذلون ويشبطنون، ويؤججون نار الفتنة، وينفثون سموم البغي والعدوان.
والمشركون هم قاعدة الظلم، وسند الباطل، وملتقى جحافل الطغيان.
ولهؤلاء جميعا مواقف شتى.

عن ابن مسعود قال: «كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهو
متوكئ على عسيب، فر بنفر من يهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن
الروح، فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم
قال: الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا^١.

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة أمره
الله أن يستقبل بيت المقدس، وفرحت اليهود. فاستقبلها بضعة عشر شهرا، وكان
يجب قبله إبراهيم. وكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله:

﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ فارتاب في ذلك اليهود، قالوا:

﴿ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ فأنزل الله ﴿ قُلْ لَّهِ الْمَشْرِقُ
وَالْمَغْرِبُ ﴾ وقال: ﴿ فَأَيْنَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾^٢.

واجتمع نفر من اليهود، وقالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة، ونكفر
به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعون عن دينهم،
فأنزل الله فيهم ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ ﴾^٣.

٢ - أخرجه بن جرير وابن أبي حاتم.

١ - أخرجه البخاري.

٣ - رواه ابن اسحاق عن ابن عباس.

وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبني عامر جوار وعهد. لم يعلم به عمرو بن أمية الضمري. فقتل عمرو بن أمية رجلين من بني عامر، يظن أنه قد أصاب بهما ثورةً بما أصابوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حادث بئر معونة. فكتب عامر بن الطفيل سيد بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك قد قتلت رجلين لهما منك جوارٌ وعهد، فابعث بديتهما. فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء، ثم مال إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد. فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيقتله بها، فيريحنا منه. فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الصخرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء، بما أراد القوم. فقام. وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعا إلى المدينة، فلما استلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيت داخل المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود قد أرادت من الغدر به. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم.

وعن عروة أن أسامة بن زيد أخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فدكية^١، وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج، وذاك قبل وقعة بدر. حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين

١ - انظر تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ص ٣٦ ج ٣ ط دار القاموس الحديث بيروت.

٢ - فدكية: نسبة إلى فدك: بلدة معروفة على بعد مرحلتين أو ثلاث من المدينة.

والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، فيهم عبد الله بن أبي^١، وفي المجلس عبد الله بن رَواحة، فلما غشيتُ المجلسَ عِجاجةُ الدابة، خمر عبد الله بن أبي أنفة بردائه، ثم قال: لا تُغبرُّوا علينا، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، ثم وقف. فنزل، فدعاهم إلى الله. وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء. لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقا، فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رَواحة: اغشينا في مجالسنا، فإننا نحب ذلك، قال: فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى هموا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يُخفِّضُهُمْ، ثم ركب دابته، حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال: أي سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟ «يريد عبد الله بن أبي» قال: كذا وكذا. قال: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحيرة^٢ أن يتوجوه، فَيُعصِّبوه بالعصابة^٣، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فذلك فَعَلَ به ما رأيت، فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم»^٤.

وعن أبي سعيد الخدري قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسما، إذ جاءه ذو الخويصرة، فقال: اعدل، فقال: ويلك، من يعدل إذا لم أعدل، فنزلت ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية^٥.

وعن ابن مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرء. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: ان الله لغني عن صدقة هذا، فنزل:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية^٦.

١ - عبد الله بن أبي: هو رأس المنافقين.

٢ - البُحيرة: القرية: والمراد بها هنا مدينة النبي صلى الله عليه وسلم.

٣ - أي اتفقوا على أن يجعلوه ملكهم، وكان من عادتهم إذا ملكوا إنسان أن يتوجوه ويعصبوه.

٤ - متفق عليه. ٥ - رواه البخاري. وذو الخويصرة من المنافق. ٦ - رواه الشيخان.

ونال المنافقون من عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أحب زوجاته إليه، في حديث الإفك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، قال عروة: أخبرت أنه كان يُشاع ويتحدث به عنده. فيقره ويستمعه ويستوشيه، حتى أنزل الله براءتها في القرآن:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^١.

وفي غزوة أحد أصاب المسلمون ما أصابهم، ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى نفر قليل. وقد أصيبت رباعيته، وشج رأسه. وقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ ثلاثاً. فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وقد كُفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم. وقد أبقى الله لك ما يسوؤك. فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثله لم أمر بها ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز ويقول: اعل هبل، اعل هبل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل» قال: لنا العزى ولا عزى لكم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا تجيبوه؟». قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» وثبت سعد بن أبي وقاص لحماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانكفاً عليه يستره. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ينثر له كنانته ويناوله النبل ويقول: «ارم فداك أبي وأمي»^٢.

١ - حديث الإفك مخرج في الصحيحين وغيرها.

٢ - انظر ابن جرير ص ١٧ وانظر الصحيحين وكتب السنة.

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كُبرت رباعيته يوم أحد،
 وشج في وجهه، حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا
 بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟» فأنزل الله:
 ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

وفي غزوة الأحزاب تأمرت قوى الشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 فإن نفرا من اليهود، ونفرا من بني وائل هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله
 صلى الله عليه وسلم، فقد خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب
 رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. وما
 زالوا بهم حتى أجمعوا لذلك، واتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا
 غطفان، من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشا تابعوهم على ذلك، وأجمعوا فيه.
 فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجمعوا له من الأمر، ضرب الخندق
 على المدينة. حيث أشار بذلك سلمان، وقال: إنا كنا بفارس، إذا حوصرنا خندقنا
 علينا. وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق، وعمل معه
 المسلمون. وأبطأ عن ذلك رجال من المنافقين. وأخذوا يتسللون إلى أهلهم بغير علم
 ولا إذن، أو بإذن باطل، وبهذا أثمرت القوى الثلاث واجتمعت على حرب رسول
 الله: اليهود، والمشركون، والمنافقون. وأحاط هؤلاء بالمسلمين، وأداهم الخطب، حتى
 زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر. وابتلي المؤمنون، وزلزلوا زلزالا شديدا،
 ثم كانت نفحة النصر نعمة من الله، فأرسل الله عليهم ريحا وجنودا لم يرها المؤمنون.
 عن حذيفة قال: «لقد رأيتنا ليلة الأحزاب، ونحن صافون قعودا، وأبوسفیان
 ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت قط
 علينا ليلة أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها. فجعل المنافقون يستأذنون النبي صلى الله

١ - رواه أحمد ومسلم.

عليه وسلم يقولون : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له ،
فيتسللون»^١ ، وفيهم نزل القرآن :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۗ وَإِذْ قَالَتِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِذْ يُبَدُونَ الْآفِرَارًا ۗ ۲﴾ .

وفي غزوة بني المصطلق عندما تزاحم أنصاري مع مهاجري على الماء . وقال
الأنصاري يا للأنصار ، وقال المهاجري يا للمهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي بن
سلول ، وعنده رهط من قومه ، وقال : أقدم فعلوها ، قد نافرنا وكاثرونا في بلادنا ، والله
ما عدونا وجلايب قريش ما قال القائل : « سَمَّنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ » أما والله لئن رجعنا
ليخرجن الأعز منها الأذل « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى تنفضوا»^٢ .
وتها رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك لغزو الروم ، في زمن عسرة
من الناس ، وشدة من الحر ، وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون
المقام في ثمارهم وظلالهم . فإلهم وحرب الروم ، مع بعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة
العدو . فتعلل بعض المنافقين بأنه يخشى إن رأى نساء بني الأصفر أن لا يصبر ،
فتخلف ، وفيه نزلت الآية : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمُدَّنِي بِآيَاتِهِ لِئَآتِيَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَالْمُتَكَلِّفُونَ لِمَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۗ ۳﴾ .
سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿

وقال بعضهم : لا تنفروا في الحر ، زهادة في الجهاد ، وشطا في الحق ، وارجافا برسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم :

﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ، فَلْيَضْحَكُوا
قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿

وجاء المُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ فَاَعْتَذَرُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فلم

١ - أخرجه البيهقي في الدلائل .

٢ - الآيتان ١٢ ، ١٣ ، من سورة الأحزاب . وانظر : الكامل في التاريخ ص ١٧٨ ج ٢ لابن الأثير ط دار بيروت
للطباعة والنشر .

٤ - بني الأصفر : يريد الروم .

٣ - راجع تفسير سورة «المنافقون» .

يعذرهم الله عز وجل، إنما تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا من غير شك ولا ارتياب^١.

١٣ - والبلاء في العقيدة سنة الله في حياة المرسلين والمصلحين، وفي حياة أتباعهم.

تحصيصة للإيمان. وتمييزا للخبيث من الطيب، وصهرا لمعادن الرجال
﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾^٣.

ولقد استعدت قريش قبائلها على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه، ولا سيما من استضعفوا منهم. فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش. وبرمضاء مكة^٤ إذا اشتد الحر، يفتنونهم عن دينهم.

وكان أبو جهل - الذي يغري بهم في رجال من قريش - إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة، أنبه وأخزاه. وقال: تركت دين أبيك، وهو خير منك، لِنُسْفَهَنَّ حَلْمَكَ، وَلِنُقِيلَنَّ رَأْيَكَ. ولنضعن شرفك. وإن كان تاجرا قال: والله لِنُكْسِرَنَّ تِجَارَتَكَ، ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به.

وقيل لابن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله. إن كانوا ليضربون أحدهم ويجمعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: آلات والعزى إهلك من دون الله؟ فيقول: نعم. حتى إنَّ الجُعَلَ^٥ ليربهم، فيقولون له: أهذا الجعل إهلك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداء منهم مما يبلغون من جهده^٦.

١ - الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومروان بن الربيع، وهلال بن أمية الواقفي.

٢ - الآيتان (٢-٣) من سورة العنكبوت.

٣ - الرمضاء: الرمل الحارة من شدة حرارة الشمس.

٤ - لِنُقِيلَنَّ رَأْيَكَ: أي لنقبحنه ونخطئه.

٥ - الجُعَلَ: دويبة معروفة.

٦ - انظر ابن هشام ص ٣٤٢ ج ١.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين رجلاً من القراء، سفراء له في دعوته. فعرض لهم حيان بن سليم: رغل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر معونة، فقالوا لهم: ما إياكم أردنا، إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي صلى الله عليه وسلم، فقتلوهم، وغدروا بهم، فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم شهراً في صلاة الصبح، وكان ذلك بدء القنوت. قال أنس: فقرأنا فيهم قرآناً، ثم إن ذلك رفع: بلغوا عنا قومنا،

أنا لقينا ربنا، فرضي عنا وأرضانا ^{ببعض الصحابة} وكان بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولى أبي بكر رضي الله عنه لبعض بني جمح. مولداً من مولديهم. وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرج به إذا حميت الظهرية، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله، لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول: وهو في ذلك البلاء: أحدٌ أحد، حتى مر به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً وهم يصنعون ذلك به، وكانت دار أبي بكر في بني جمح. فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى! قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلدُ منه وأقوى على دينك، أعطيكه به. قال: قد قبلت. فقال: هو لك. فأعطاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه ذلك. وأخذه فأعتقه^١.

وامتد عدوان المشركين إلى أسر كاملة لإبادتها والقضاء عليها. كأسرة آل ياسر. فقد كان عمار بن ياسر حليف بني مخزوم، وكانت أمه سمية مولاة لهم. وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، إذا حميت الظهرية، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: «صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة»^٢.

١ - انظر حادث بئر معونة في صحيح البخاري.

٢ - انظر ابن هشام ص ٣٣٩ ج ١ وقد اعتق أبو بكر قبل الهجرة ست رقاب، بلال سابعهم.

٣ - انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ص ٥٠٥ ج ٢ ط مصطفى محمد.

٤
 وكان عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة. قال ابن اسحاق: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يُسمِعُوه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام، ثم قرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» رافعا بها صوته، ﴿الرحمن علم القرآن﴾ فتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد. فقاموا إليه، فجعلوا يضربونه في وجهه. وجعل يقرأ في سورة «الرحمن» حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وعلى وجهه أثر الضرب. فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا. قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون.

٥
 وقدم أبو ذر رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إرجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري» فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم. فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه. وأتى العباس فأكبَّ عليه. قال: ويلكم، أستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام؟ فأنقذه منهم. ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكبَّ العباس عليه.

٥
 وكان خبيث بن عدي أحد العشرة في سرية عاصم بن ثابت بغزوة الرجيع، حيث تبعهم بنو لحيان بين عسفان ومكة بقريب من مائة رام. فاقتصوا آثارهم وقتلوه. ووقع خبيث بن عدي أسيراً، فانطلقوا به، وباعوه بمكة لبني الحارث بن

٢ - قصة إسلام أبي ذر في صحيح البخاري.

١ - ابن هشام ص ٢٣٦ ج ١.

عامر بن نوفل . وكان خبيب قد قتل الحارث يوم بدر . فخرجوا به ليقتلوه ، فلما هموا قال : دعوني أصلي ركعتين ، ثم انصرف اليهم . فقال : لولا أن تروا أن ما بي جَزَع من الموت لزدتُ ، فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل . ثم قال : اللهم أحصِهِم عدداً ، وقال عند قتله :

فلست أبالي حين أُقتل مسلماً على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزَعاً

١٤ - وشاركت المرأة المسلمة الرجل المسلم في البلاء بالدعوة ، فأبليت بلاء حسناً ، يضرب أروع الأمثلة لما ينبغي أن تكون عليه المرأة في المجتمع المسلم ، إيماناً بعقيدة الإسلام ، وثباتاً عليها ، وتضحية في سبيلها ، وتربية لناشئتها . وأسهمت بنصيبها في

كل مرحلة من مراحل الدعوة . سلكة المرأة للخيار
أسلمت فاطمة بنت الخطاب قديماً قبل أخيها عمر بن الخطاب وكانت تخفي إسلامها من أخيها عمر ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن . فخرج عمر بن الخطاب ذات يوم متقلداً بسيفه يريد أن يقتل محمداً صلى الله عليه وسلم ، فلقى رجل من بني زهرة . فقال : أين تعمد يا عمر ؟ قال : أريد أن أقتل محمداً . قال : وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً ؟ قال : ما أراك إلا قد صبأت^١ . قال : قد فعل ذلك من هو أعظم عليك حقاً مني . قال : ومن هو ؟ قال : أختك فاطمة ، وختنك^٢ سعيد بن زيد ، فشى عمر فأتاهما وعندهما خباب بن الأرت . فلما سمع خباب صوت عمر توارى في البيت . فدخل عمر فقال : ما هذه الهمهمة التي سمعت ؟ وكانت فاطمة قد أخذت صحيفة من القرآن فجعلتها تحت فخذها ، فقالا له : ما سمعت شيئاً . قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً في دينه ، وبطش بختنه سعيد ، فقامت إليه فاطمة لتكفه عن زوجها ، فضرها فشجها ،

١ - راجع كتب السيرة وكتب السنة . ولا سيما صحيح البخاري .

٢ - صبأ : خرج من دين إلى دين . ٣ - الحتن بالتحريك : الصهر . والمراد هنا زوج أخته .

فلما فعل ذلك . قالوا له : نعم . قد أسلمنا وآمنا بالله فاصنع ما بدالك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأخته : أعطني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون أنفا ، لأنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي ، ثم أعطته الصحيفة بعد أن استوثقت منه وتطهر . وفيها :

﴿ طه ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴾

فلما قرأ منها صدرا أثنى على هذا الكلام ، فاستبشر خباب وخرج . ورجا إسلامه . فدل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت قصة إسلامه .

وسمية مولاة أبي حذيفة بن المغيرة والدة عمار بن ياسر ، كانت سابعة سبعة في الإسلام ، وكان ياسر حليفا لأبي حذيفة . فزوجه سمية ، فولدت له عمارا ، فأعتقه ، وكان ياسر وزوجته وولده منها ممن سبق إلى الإسلام . قال مجاهد : أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وبلال وخباب وصهيب وعمار وسمية . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فنعهما قومهما . وأما الآخرون فآلبسوا دروع الحديد ، ثم صهروا في الشمس . وجاء أبو جهل إلى سمية فطعنها بحربة فقتلها . فكانت أول شهيدة في الإسلام .^٢

وأسماء بنت أبي بكر الصديق والدة عبد الله بن الزبير ، استأمنها رسول الله صلى الله عليه وسلم على خبر الهجرة . وهي أول حدث كان له خطره في صدر الإسلام . وأحدث تحولا كبيرا في تاريخ الدعوة . فصنعت سفرة^٣ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة ، فلم تجد لسفرته ولا لسقائه ما تربطهما به ، فشقت نطاقها^٤ باثنين ، فربطت بواحد منها السقاء ، وبالأخر

١ - انظر أعلام النساء لعمر كحالة . المطبعة الهاشمية بدمشق ص ٥٠ ج ٤ والإصابة لابن حجر ، والاستيعاب لابن عبد البر .

٢ - الإصابة ص ٣٢٧ ج ٤ .

٣ - السفرة : طعام المسافر .

٤ - النطاق : ما يشد به الوسط .

السفرة، فكانت تسمى ذات النطاقين، وقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة» قال ابن اسحاق: فحدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا، فلطم خدي لطمه طرح منها قرطي^١. ونسبة بنت كعب الأنصارية أم عمارة، مشهورة بكنيتها واسمها معا، شهدت بيعة العقبة الثانية مع زوجها زيد بن عاصم، وأصابها ما أصابها من البلاء. ذكر سعيد ابن أبي زيد الأنصاري، أن أم سعيد بنت سعد بن الربيع قالت: دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة: أخبريني خبرك. فقالت: خرجت - يعني يوم أحد - أول النهار، وأنا أنظر ما يصنع الناس، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في أصحابه، والدولة والرياح^٢ للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنت أبشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إلي، قالت: فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور، فقلت: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قنثة، أقماه الله. لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا. فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فضربني هذه الضربة، فلقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان.

ولأم عمارة مواقف شتى من هذا القبيل، تدل على رسوخ قدمها في الإسلام. وحسن بلائها في سبيله، فقد شهدت بيعة الرضوان. ثم شهدت اليمامة، فقاتلت

١ - انظر الإصابة ص ٢٢٤ ج ٤. والقرط: ما يعلق في شحمة الأذن من الحلى.

٢ - الريح: الغلبة.

حتى قطعت يدها، وجرحت إثني عشر جرحاً^١. وشهد عدد من نساء الصحابة المعارك. وقن بتجهيز الطعام، ومداواة الجرحى، ونقل القتلى، وسقي المجاهدين. وقاتلن عند الحاجة، وإن لم يفرض الإسلام عليهن الجهاد رعاية لخصائص الأنوثة. عن أم عطية الأنصارية قالت: «غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات. أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى^٢». وعن أنس «أن أم سليم رضي الله عنهما اتخذت يوم حنين خنجراً، فكان معها. فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت بطنه. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك^٣».

١ - انظر الإصابة ص ٤٠٣ ج ٤. وأعلام النساء ص ١٧١.

٢ - رواه مسلم وأحمد وابن ماجه.

٣ - رواه مسلم، وأم سليم هي أم أنس بن مالك. تزوجها أبو طلحة بعد أن مات زوجها مالك.

ثانياً: من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وماهن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس، التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» (متفق عليه)

١ - الترجمة لراوي الحديث:

أبو هريرة بن عامر الدوسي: اختلفوا في اسمه، فقال أهل النسب: اسمه عمير بن عامر، وقال ابن اسحاق: قال لي بعض أصحابنا عن أبي هريرة، كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن، وكنيت أبا هريرة، لاني وجدت هرة فحملتها في كمي، فقيل لي: أبو هريرة، وأخرج الترمذي بسند حسن عن أبي رافع قال: قلت لابي هريرة: لم كنيت بأبي هريرة؟ قال: كنت أرعى غنم أهلي، وكانت لي هرة صغيرة، فكنت أضعها بالليل في حجرة، وإذا كان النهار ذهبت بها معي، فلعبت بها، فكنوني: أبا هريرة. واختلفوا كذلك في اسم أبيه: أهو صخر أم عامر؟

وقد أجمع أهل الحديث على أن أبا هريرة أكثر الصحابة حديثاً. روي عنه خمسة آلاف وثلاثمائة حديث، وكان أحفظ من روى الحديث في عصره. وفي صحيح البخاري من طريق وهب بن منبه عن أخيه همام عن أبي هريرة قال: «لم يكن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً مني إلا عبد الله بن عمر، فإنه كان

١ - راجع الاصابة ص ٢٠٠ ج ٤ .

يكتب ولا أكتب» وفي الصحيح كذلك عن أبي هريرة: «قلت يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك، لما رأيت من حرصك على الحديث».

وكان إسلام أبي هريرة بين الحديبية وخيبر، وقدم المدينة مهاجراً، وسكن الصُّفَّة^١، روي عنه أنه قال: «والله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد على الأرض بكبدي من الجوع، وأشد الحجر على بطني». وفي الصحيح عن الأعرج قال: قال أبو هريرة: «إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله الموعود، إني كنت امرأ مسكيناً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مل بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، فحضرت مع النبي صلى الله عليه وسلم مجلساً فقال: «من يبسط رداءه حتى أفضي مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعه مني»، فبسطت بردة علي حتى قضى حديثه، ثم قبضتها إلي، فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئاً سمعته منه بعد».

وهذه الرواية تكشف عن سبب إكثاره في رواية الحديث، وقد وردت من طرق متعددة - والأخبار في ذلك كثيرة.

وتوفي أبو هريرة سنة سبع وخمسين على الراجح، وعمره ثمان وسبعون سنة.

٣ - المباحث اللغوية^٢:

«اجتنبوا السبع الموبقات»، الاجتناب: الابتعاد، وأصله جعل الشيء على جنب، واجتنبوا، أبلغ من: اتركوا - الموبقات: المهلكات، يقال: وبق بيق، موبق يوبق فهو وبق: إذا هلك، وأوبقه غيره: أهلكه، فهو موبق.

١ - أهل الصُّفَّة: كانوا أضياف الإسلام، وكانوا يبيتون في مسجده صلى الله عليه وسلم، والصُّفَّة: موضع مظلل

من المسجد.

٢ - راجع المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، والنهاية لابن الأثير.

«الشرك بالله» ، شرك الانسان في الدين على ضربين : أحدهما : الشرك العظيم ، وهو اثبات شريك لله تعالى وإشراكه في العبادة ، وهو أعظم المحرمات ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ١ .

الشرك الصغير : وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور ، ومنه الرياء والنفاق . «السحر» السَّحْرُ بالكسر : يطلق على كل ما لطف مأخذه ودقَّ وخفى ، وأصله من السَّحَرَ - بالفتح والتحريك - بمعنى طرف الحلقوم ، أو الرئة ، لأنها باطنان خفيان ، ويطلق على معانٍ : منها : التخيل الذي لا حقيقة له كالذي يفعله المشعوذ بخفة يده . فيخدع به العيون حتى ترى ما ليس واقعاً واقعاً - ومنها : ما يحصل بمعونة الشيطان ، بالتقرب إليه بالمعاصي ، فيؤثر في القلوب بنحو الحب والبغض ، وفي الأجسام بنحو الألم والسقم . ومنها : استخدام ما يغير الصور والطبائع على وجه التخويف ، كاستخدام خواص الأشياء وطبائعها التي لا يعرفها العامة ، كخاصية جذب المغناطيس للحديد ، وبعض الخواص «الكياوية» للمواد - ثم استعمل في كل شيء حسن دقيق يأخذ الأبواب ، ومنه الحديث «إن من البيان لسحراً» .

«أكل الربا» ، الربا في اللغة : الزيادة ، مصدر ربا الشيء يربو إذا زاد ، ومنه الربوة ، وفي اصطلاح الفقهاء : الزيادة على رأس المال من وجه خاص . بينته السنة النبوية ، والمراد بأكل الربا : أخذه . والتعبير عنه بالأكل لأنه معظم ما يقصد له المال .

«اليتيم» اليتيم من الانسان : الذي فقد أباه ، ومن الحيوان ، ما فقد أمه .

«التولي يوم الزحف» ، التولي : الفرار والزحف : الانبعاث مع جر الرجل كانبعاث الصبي قبل أن يمشي . وزحف الجيش مشيه إلى عدوه في ثقل لكثرته .

«وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» ، القذف : الرمي بقوة ، والقذف هنا : الرمي بالزنى أو ما كان في معناه ، وأصله الرمي ، ثم استعمل في هذا المعنى حتى

١ - الآية ٤٨ النساء .

غلب عليه - المحصنات: العفيفات اللاتي أحصن نفوسهن من الخنا، مأخوذ من الحصن، وهو المكان المنيع، كأن نفوسهن في حصن من العفاف - الغافلات: اللاتي لم تخطر الفاحشة على بالهن لسلامة صدورهن، وطهارة قلوبهن، فهن ساهيات عن المنكر، والوصف به أبلغ في الدلالة على الطهر من الوصف بالمحصنات.

٣ - المعاني والأحكام

أ - من فضل الله على هذه الأمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هداها إلى سبيل الخير، وصرط الله المستقيم، ودعاها إلى فعل الطاعات التي تقرها إلى الجنة. كما حذرنا من سبل الشر ومسالك الغواية، ونهاها عن ارتكاب المعاصي والسيئات.

وليست المعاصي على درجة سواء، فإنها تتفاوت بتفاوت أضرارها، فتعظم إذا اشتد ضررها وكثر خطرها، وعاقبت الحياة الأنسانية عن الخيرات، وتصغر إذا خف ضررها وهان شأنها، ولم يكن لها التأثير البالغ على التقوى والعمل الصالح. فإن هذه يكفرها اجتناب الكبائر.

وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث باجتناب السبع الموبقات، لأنها من أمهات الكبائر. وتخصيصها بالذكر لا يعني حصر الموبقات فيها، حيث ورد في الأحاديث المتعددة ذكر غيرها، كالزنى، والسرقه، والغلول، والالحاد في الحرم، وشرب الخمر، والعقوق، واليمين الغموس، وشهادة الزور، والنميمة، ونكث البيعة، وفراق الجماعة، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمته، والجمع بين الصلاتين من غير عذر، فما ورد زائداً عن هذه السبع المذكورة في حديثنا يجب الأخذ به، وربما كان الاقتصار على السبع بالنسبة إلى السائل، أو من وقعت له واقعة بعينها.

١ - راجع فتح الباري، شرح البخاري، لابن حجر.

وقد اختلف العلماء في تعريف الكبيرة، ومن أحسن التعاريف التي اختارها ابن حجر قول القرطبي: كل ذنب أُطلق عليه بنص كتاب أو سنة أو إجماع أنه كبيرة أو عظيم، أو أخبر فيه بشدة العقاب، أو علق عليه الحد، أو شدّد النكير عليه فهو كبيرة. وقد تكون الصغيرة كبيرة بالاصرار عليها.

ب - وأولى الموبقات السبع الشرك بالله. فإنه أعظم الذنوب، حيث يتنافى مع عقيدة التوحيد التي بعث الله بها الرسل، ويناقض الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وهو اعتداء صارخ على خصائص الألوهية التي تقتضي عبادة الله وحده، والتوجه إليه في السراء والضراء. فإنه يرجع الأمر كله، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، يملك الضر والنفع، إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها، وإذا أمسك فلا مرسل لها من بعده، له وحده الكمال المطلق، والتعظيم والجلال، والخشية والدهاء، والرجاء والانابة، والتوكل والتوبة، والاستعانة والحب. ولا حكم إلا ما شرع أو شرع بنبيه صلى الله عليه وسلم بالنص أو الفحوى، والشرك بالله اعتداء على هذا كله، ولذا أخبر الله أنه لا يغفره لمن لم يتب، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت مشيئة الله

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^١.

والعقيدة الإسلامية هي التي انتهى إليها أمر الرسالات السماوية كلها في توحيد الله عز وجل، وتجرد النفس إليه تجرداً كاملاً، لتحقيق عبوديتها لله وحده دون سواه

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^٢.

ويقتضي هذا أن تتخلص النفوس من ضروب الشرك التي تحجبها عن الله، أو تشتت شملها، وتمزق وحدتها.

فالقلب الذي يؤمن بوحدانية الله تعالى يتجه بمشاعره إلى الله، في السراء

٢ - الآية ٢٥ الأنبياء.

١ - الآية ٤٨ النساء.

والضراء، يشكره في الأولى، ويسأله دفع الضر في الثانية، ويخلص النية له سبحانه، لأنه وحده علام الغيوب، ويستعلي على الأهواء والشهوات، فلا تستدله شهوة، ولا يستعبده هوى، ويجعل الحياة كلها لله، وفي سبيل الله.

ج - وثاني هذه الموبقات السبع السحر، والسحر بضروبه المختلفة، سواء ما يقع منه بخداع وتخيلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعوذ في حركات سريعة، أو ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم، أو ما يستعان فيه بخواص المادة، أو ما يكون من الطلاسم ومخاطبة الكواكب، هذا السحر بضروبه مفسدة كبيرة، وإثم عظيم، يشغل الناس بأباطيله، ويزلزل عقيدتهم بآثاره، ويفرق بين الزوج وزوجه، ويمزق النفوس، ويشتت القلوب، ويوهن العزائم، ويصيب الأجسام بالأمراض والعلل.

وجمهور العلماء على إثبات السحر، وأن له حقيقة، ونفى بعضهم حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة، وهو مردود، لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق، أو تركيب أجسام، أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص. ونظير ذلك ما يحصل من مزج بعض العقاقير ببعض حتى ينقلب الضار منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعا.

والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة، أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد، والكرامة لا تحتاج إلى ذلك، بل إنما تقع غالباً اتفاقاً، وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة التحدي. ونقل إمام الحرمين الإجماع على أن السحر لا يظهر إلا من فاسق، وقال القرطبي: السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكْتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته، وأكثرها تخيلات بغير حقيقة، وإيهامات بغير

١ - هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني

ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك، كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون ﴿وجاؤوا بسحراً عظيماً﴾ مع أن حباهم وعصيتهم لم تخرج عن كونها حبلاً وعصياً، ثم قال، والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيراً في القلوب، كالحب والبغض، وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم، وإنما المنكور أن الجهاد ينقلب حيواناً أو عكسه بسحر الساحر، ونحو ذلك.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن السحر كفر، وأن متعلمه كافر، وأن عقوبته القتل، وفي الحديث «حد الساحر ضربة بالسيف»^١ وهذا واضح في بعض أنواعه، التي يستعان فيها بالشياطين أو الكواكب، أما ما يكون من باب الشعوذة فلا يكفر صاحبه. قال النووي: عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبي صلى الله عليه وسلم من السبع الموبقات، ومنه ما يكون كفراً، ومنه ما لا يكون كفراً، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر، وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام، فإن كان فيه ما يقتضي الكفر كفر، واستتيب منه وإلا يقتل، فإن تاب قبلت توبته، وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر.

وعن مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب، بل يتحتم قتله كالزندق. وبقول مالك قال أحمد وأبو حنيفة وجماعة من الصحابة والتابعين. وهذا ما يدل عليه ظاهر الآية: ﴿وَمَا كَفَرُوا سُبْحَانَكَ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾^٢ فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر، وكذا قوله في الآية على لسان الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر، فيكون العمل به كفراً.

د - وثالثة السبع الموبقات، قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، فإن الإسلام يعصم دم صاحبه، ويجعل للنفس حرمتها، صيانة لها، حتى يسود الأمن أمة الإسلام،

١ - رواه الترمذي

٢ - الآية ١٠٢ البقرة.

ويتذوق الناس طعم الحياة الآمنة مطمئنة، فيغدون ويروحون، ويكدون ويكدحون، وينعمون برزق الله، فن الجرائم الكبرى أن يعتدى على حرمة هذه النفس، وأن يستباح حماها، فتزهق روحها البريئة، ويراق دمها الزكي، فيتتسم الأطفال وترمل النساء، وتفقد الأسرة عائلها، وينتشر الذعر بين الناس، وتتأجج نار العداوة والبغضاء، ويروع الآمنون، ويتوالى الانتقام والثأر. فلا غرو أن يقول الله تعالى في عذاب القاتل: ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا متعمداً فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ١ ولذا شرع الإسلام القصاص، وجعل فيه الحياة ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ٢.

وإنما تزول عصمة النفس المؤمنة بحق الله عليها، إذا قتلت عدواناً وظلماً، فإنها تقتل قصاصاً، أو إذا أعفها الله بالزواج ثم انتهكت عرضاً، أو خرجت عن الدين، وفارقت جماعة المسلمين، أو حاربت الله ورسوله. فإن تلك الجرائم التي تهدد كيان المجتمع، وتندره بالدمار، لا علاج لها إلا بقتل ذوبها، سلامة للأمة، وصيانة لحرمتها:

هـ - ورابعة الموبقات أكل الربا. فإن الإسلام يقيم نظامه الاقتصادي، بل نظام الحياة كلها، على أساس أن الله تعالى هو خالق هذا الكون بما فيه، ومالكه. وقد استخلف الانسان في أرضه، ومكنه مما ادخر له فيها من أرزاق وأقوات، ومن قوى وطاقات. شريطة أن يقوم بهذه الخلافة وفق شريعة الله... فما وقع منه من عقود وأعمال ومعاملات وفق ما شرع الله فهو صحيح نافذ، وما وقع منه مخالفاً فهو باطل. وقد شرع الله لعباده الانتفاع برزقه الذي أعطاهم على أساس من التكافل في المعاوضة وتبادل المنفعة - لا على قاعدة الشيوخ المطلق كما تقول الماركسية، ولا على قاعدة الملكية المطلقة المستغلة كما تقول الرأسمالية - ولكن على أساس الملكية

١ - الآية ٩٣ النساء.

٢ - الآية ١٧٩ البقرة

الفردية المقيدة في الكسب من الوجوه المشروعة، مع التزام جانب القصد والاعتدال في الاستمتاع بالطيبات التي أحلها الله، والالتزام تنمية المال بوسائله الحلال التي لا ينشأ عنها أذى للآخرين.

ومن ثم فإن الربا يصطدم مع هذا التصور الإيماني، لأنه نظام يقوم على تصور آخر. لا رعاية فيه للمبادئ والغايات للمبادئ التي يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها. إنه يقوم على أساس أن الإنسان سيد نفسه، وسيد هذه الأرض. فهو غير باتباع أوامر الله، ويقوم على أساس أن غاية الوجود الإنساني هي أن يحصل الإنسان على المال بأي وسيلة، ويستمتع به على النحو الذي يهوى، ثم يؤدي هذا في النهاية إلى نظام يسحق البشرية لمصلحة حفنة من المرابين.

وقد توعد الله من اقترف الربا بالمحق، وأذنه بالحرب، إلا من تاب واكتفى بأخذ رأس ماله فإن الله يتوب عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذ بَنِيكُمْ فُلُكُم رُّؤُوسَ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾^١.

و - وخامسة السبع الموبقات أكل مال اليتيم. حين يحتضر المرء ويلقي نظرتة الأخيرة على الحياة الدنيا مودعاً لها، يجد قلبه معلقاً بفلذات كبده الصغار، الذين يتركهم على ضعف، فيخشى عليهم الضياع، والإسلام يرعى هذه الفراخ الزغب في يتمها، حتى تشب عن الطوق، وتبلغ رشدتها، وتقوى على تحمل أعباء الحياة، واقتحام مصاعبها، وخوض غمارها، فعلام الخشية؟

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾^٢.

إن التكافل بين أبناء الإسلام هو حجر الزاوية في بناء مجتمعه، والإسلام يفرض لكل يتيم كافلاً، يقوم على تربيته، وإصلاح شأنه، وتقويم سلوكه، ويقوم كذلك على تنمية ماله، ومخالطته مخالطة أخوة ترعى مصالحه في ظل العقيدة الإسلامية

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَآخِوَانُكُمْ﴾^١

١ - الآية ٢٢٠ البقرة

٢ - الآية ٩ النساء.

١٠ - الآية ٢٧٩ البقرة

والمال قوام حياة المجتمع والحفاظ على مال اليتيم حفاظ على مال الأمة، ومن هذا المنطلق يتولى كافل اليتيم إثراء ماله حتى يعيش منه، وتكون نفقته من ربحه، فلا ينقص رأس ماله ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾^١. وللكافل إذا احتاج أن يأخذ عوضاً عن جهده في تنمية مال يتيمة بالمعروف. وإذا استغنى أن يستعف بماله ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^٢.

ويتولى وصي اليتيم تدريب يتيمة على تصريف شؤونه، ويختبره بما يناسبه، ولا يكاد يبلغ الحلم ويأنس فيه القدرة على حسن التصرف حتى يرد إليه ماله ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾^٣.

وإلى الذين تسول لهم نفوسهم أن التهاون في مال اليتيم هذه الصورة المنفرة التي يتطير شررها ويمتد لهيها إلى حوايا الظالمين الآثمين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾^٤.

ز - وسادسة السبع الموبقات التولي يوم الزحف. فإن المسلم يعيش لعقيدته، يذود عن حماها، ويحمل لواءها، ويجاهد في سبيلها، فيقاتل أعداء الله انتصاراً للحق، وعلواً للدين، ويقدم على الموت في ساحة الوغى إقدامه على الحياة، وكيف؟ وهو يعلم أن الشهادة في سبيل الله هي الحياة الأبدية في دار النعيم ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾^٥.

والمؤمن لا يعرف الجبن، ولا يجد الوهن إلى نفسه سبيلاً، لأنه يوقن أن الآجال محدودة، وأن الأرزاق مقدره ولن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها، ولأن يموت شهيداً في ميدان القتال خير له من أن يموت على فراشه كما يموت البعير ﴿ إِنْ مَلَائِكَةٌ كُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾^٦.

٢ و ٣ - الآية ٦ النساء
٥ - الآية ١٦٩ آل عمران

١ - الآية ٥ النساء
٤ - الآية ١٠ النساء
٦ - الآية ٧٨ النساء

ولقد عقد الله البيعة مع المؤمنين أن يبذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمته، وأن يعطيهم على ذلك الجنة، وتوعد الفارين الهاربين عند الزحف أشد الوعيد، مالم يكن الفرار خدعة من خدع الحرب، يحاول بها الفار أن يكتسب للمسلمين نصراً أو يوقع بالكفار هزيمة، كأن يميل إلى مكان من أمكنة القتال يكون أحوج إليه من مكانه، أو يوهم العدو أنه منهزم فإذا تبعه كره عليه فقتله، أو ينحاز إلى جماعة أخرى من المؤمنين غير الفئة التي كان فيها والكتيبة التي كان معها لينصرهم على عدو تكاثر جمعه وهجم عليهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ ذَرَبَهُ الْأَمْحِرَ فَالْقِتَالِ أَوْ مُخْتَرِجًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئس المصير ﴿١٦﴾﴾ ١ .

ح - وخاتمة السبع قذف المحصنات المؤمنات الغافلات، فإن العرض هو مناط شرف الإنسانية، وقد توارثت حرمة الملل جميعاً، صيانة للنسب، وحفاظاً على طهارته، حتى يكون تناسل البشرية نقياً نظيفاً، تتربى في كنفه الأجيال التي تربطها مع أصرة الدين أواصر الرحم والمصاهرة والطهر والعفاف. فالمرأة المؤمنة التي تحصنت بالعفة، واثرت بالطهر وطابت سريرتها، فلا يخطر على بالها الخنا، ولا يتطرق إلى قلبها الفحش، امرأة نقية الخافية، طاهرة الذيل، لا يبلغ في عرضها إلا أفك أثيم، ينتهك الحرمات ويتناول على العفيفات، ويهدم كيان الأسر، ويمزق شمل الجماعة، ويشيع الفاحشة بين الناس، ويدنس عرض الأمة، وينال من شرفها، ويزرع الأحقاد والضغائن بين أبنائها، قد جاء شيئاً إداً وارتكب جرماً عظيماً، فاستحق العقوبة في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ ٢ .

تلك هي السبع الموبقات، التي لا يقربها إلا العتاة الفاسقون، فليأخذ المسلم حذره منها، وينأى عن أوزارها، ويخشى وعيد الله فيها، حفاظاً على دينه، وسلامة لأمته.

٣ - الآية ٢٣ النور

٢ - أي أتى أمراً منكراً

١ - الآيتان ١٥ و١٦ الأنفال

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصَ ، وَأَقْرَعَ ، وَأَعْمَى ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا ، فَآتَى الْأَبْرَصَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْ نَحَسَنُ ، وَجِلْدُ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدَّرَنِي النَّاسُ بِهِ ، قَالَ : فَسَحَّهْ فَذَهَبَ عَنْهُ قَدْرُهُ ، فَأَعْطِي لَوْنًا حَسَنًا . قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْإِبِلُ ، أَوِ الْبَقْرُ . شَكَ اسْحَاقُ . فَأَعْطِي نَاقَةً عُسْرَاءَ ، وَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا . قَالَ : فَآتَى الْأَقْرَعَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرُ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدَّرَنِي النَّاسُ بِهِ . فَسَحَّهْ ، فَذَهَبَ عَنْهُ ، وَأَعْطِي شَعْرًا حَسَنًا ، فَقَالَ : أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْبَقْرُ ، أَوِ الْإِبِلُ ، فَأَعْطِي بَقْرَةً حَامِلًا ، قَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا ، فَآتَى الْأَعْمَى . فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسُ . فَسَحَّهْ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ بَصْرُهُ . قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْغَنَمُ . فَأَعْطِي شَاةً وَالِدًا . فَأَنْتَجَ هَذَانِ ، وَوَلَدَ هَذَا ، فَكَانَ لِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْبَقْرِ . وَهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْغَنَمِ . قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مَسْكِينٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحِيَالُ فِي سَفَرِي ، فَلَا بُلُوغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالِ ، بَعِيرًا أَتَبْلُغُ بِهِ فِي سَفَرِي . فَقَالَ : الْحَقُوقُ كَثِيرَةٌ . فَقَالَ : كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدِرُكَ النَّاسُ ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ الْمَالُ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَإِبْرَأَ عَنْ كَإِبْرَ ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصِيرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ ، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا . فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصِيرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ . قَالَ : وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مَسْكِينٌ وَابْنٌ سَبِيلٍ ، قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحِيَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بِلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ شَاةً أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي . فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَذَهَبَ اللَّهُ عَنِّي بَصْرِي . وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي ، فَخُذْ مَا شِئْتَ . وَدَعْ مَا شِئْتَ . فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ اللَّهُ ، فَقَالَ : أَمْسِكْ

مَالِكَ، فَإِنَّمَا أَتُّبَلِّتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ. وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»^١.

١ - الترجمة: سبقت ترجمة أبي هريرة.

٢ - المباحث اللغوية: ^٢

«إِسْرَائِيلَ» هو يعقوب عليه السلام. و«إسرا» في لغتهم: صفوة، أو عبد، و«إئيل» اسم الله تعالى، ومعنى «إسرائيل» في لسانهم: صفوة الله، أو عبد الله. وبنو إسرائيل: أي ذرية يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم، وإسرائيل: لقب يعقوب. ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة.

«أَبْرَصُ» البرص: بياض يظهر في ظاهر البدن. يقال: برص كفرح، فهو أبرص. «أَقْرَعُ» قرع: كفرح: ذهب شعر رأسه، فهو أقرع «يتليهم» أي يختبرهم. وبلوته: اختبرته.

«قدرني الناس به» اشمأزوا من رؤيتي بسببه.

«فَمَسَحَهُ» أي مسح على جسمه.

«الإبل، أو البقر - شك إسحاق -» أي أن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة راوي الحديث قد شك في أن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل، وقال الآخر البقر.

فَأُعْطِي نَاقَةَ عَشْرَاءَ» أي أُعْطِيَ الَّذِي تَمَنَى الْإِبِلَ، وَالنَّاقَةَ الْعَشْرَاءَ: بضم العين المهملة، وفتح الشين المعجمة مع المد: هي الحامل التي أتى عليها في حملها عشرة أشهر من يوم طرقتها الفحل، وقيل يقال لها ذلك إلى أن تلد، وبعد أن تضع، وهي من أنفس المال.

١ - أخرجه ومسلم.

٢ - راجع المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، والقاموس المحيط، والنهاية لأبن الأثير.

بارك الله لك فيها: نَمَّأَهَا وجعل فيها الخير، والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء.

«فمسحه» أي مسح على عينيه. بالنسبة إلى الأعمى، وعلى رأسه بالنسبة إلى الأقرع.

«شاة والدا» أي ذات ولد، ويقال هذا كذلك للحامل باعتبار أنها ستكون ذات ولد.

«فَأَنْتَجَ هَذَانُ» أي صاحب الإبل والبقر. والمعنى: تولى نتاجها. والمشهور في اللغة: نُتِجَتِ الناقة: بضم النون. وَنَتَجَ الرجل الناقة: أي حمل عليها الفحل. وقد سمع: أُنتِجَتِ الفرس: إذا ولدت. وفي بعض الروايات «فنتج هذان» والنتاج للناقة كالقابلة للمرأة.

«و وُلِدَ هَذَا» أي صاحب الشاة. و وُلِدَ: بتشديد اللام: أي تولى ولادتها، فهو بمعنى نتج وأنتج في الناقة، فالمولد، والنتاج، والقابلة، بمعنى واحد. ولكن خصت القابلة بالإنسان.

«واد» أصل الوادي: الموضع الذي يسيل فيه الماء.

«ثم إنه أتى الأبرص في صورته» أي في الصورة التي كان عليها لما اجتمع به وهو أبرص. ليكون في ذلك أبلغ في إقامة الحجة عليه.

«انقطعت بي الحبال في سفري» الحبال: جمع حَبْل. والحبل: معروف، واستعير للوصول، وكل ما يتوصل به إلى شيء ويكون سببا فيه. والمراد هنا: الأسباب التي يقطعها في طلب الرزق، فاندعت وسائل كسبه في حال سفره. وقد أراد الملك بهذا أن يعرض له بما كان عليه. أي أنك كنت هكذا، فهو من المعارض. والمراد به: ضرب المثل ليتيقظ المخاطب.

«فلا بلوغ إلى اليوم» البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى المقصد، أي لا أصل إلى مقصدي اليوم إلا بالله ثم بك.

«أتبلغ به» من البلغة، وهي الكفاية. والمعنى: أتوصل به إلى مرادي.
«ورثت هذا المال كائناً عن كائناً» الكبير، والكبير: الرفيع الشأن، أو ورثته
من كبير عن كبير في العز والشرف.

«لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله» أي لا أشق عليك في رد شيء تطلبه مني أو
تأخذه.

«رضي الله عنك وسخط على صاحبك» الرضا: يقتضي الرحمة. والسخط:
الغضب الشديد، وهو يقتضي العقوبة. وبهذا كان مزاج الأعمى أصح من مزاج
رفيقه. لأن البرص مرض يحصل من فساد المزاج وخلل الطبيعة. وكذلك القرع،
بخلاف العمى، فإنه لا يستلزم ذلك. بل قد يكون من أمر خارج. فلهذا حسنت
طباع الأعمى، وساءت طباع الآخرين فيما روي بالحديث. فكان الوصف مناسباً.

٣ - المعاني والأحكام: ١

أ - تشتمل أخبار بني إسرائيل على كثير من العظات البالغة، والعبر النادرة، ولهذا
تأثيره في هداية النفس والاعتبار بأحوال الماضين. وقد رخص رسول الله صلى الله
عليه وسلم في التحدث عن بني إسرائيل بما لا نعلم كذبه، فقال: «بلغوا عني ولو
آية. وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»^٢. ولا ضير علينا في أن نحكي أخبارهم
الصحيحة. وإن كانت تشتمل على ما لا يليق، لأن القصد من ذلك العبرة. فإذا
جاء الإخبار عنهم بما صح من حديث رسولنا صلى الله عليه وسلم، فهذا أدعى
للأخذ به، والاتعاظ بما فيه، ومن ذلك ما جاء في هذا الحديث، فإنه ثابت في
الصحيحين.

وما لم يثبت لدينا صحته ولا كذبه من أخبارهم فإننا نتوقف عنه لقول رسول الله

١ - انظر شرح الحديث في فتح الباري لابن حجر، وشرح مسلم للنووي.

٢ - رواه البخاري.

صلى الله عليه وسلم « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ». لأنه قد يكون صدقا، وقد يكون كذبا.

وجواز ذكر ما صح من أخبارهم التي تتضمن الحديث عن الأحوال السيئة لأفراد منهم لا يكون غيبة فيهم، لأن ذكره يكون للاتعاظ به. وهذا هو السر في ترك تسميتهم بأسمائهم.

ب - من مقتضيات التوحيد الاعتراف بنعمة الله تعالى، ونسبتها إلى المنعم المتفضل، وأداء حق الله فيها وبذاتها فيما يجب. وهذه هي أركان الشكر الواجب لله تعالى، تحرزا من كفران النعمة، وقد ورد الأمر بشكر الله على نعمه في كثير من آيات القرآن الكريم بما يدل على اختصاصه تعالى بذلك، لأن الشكر ضرب من العبادة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^١. ويقابل هذا كفران النعمة الذي جاء النهي عنه ﴿فَاذْكُرُونِي أَن ذُكِّرْتُكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^٢.

ووعده الله الشاكرين لنعمه أن يزيدهم من فضله ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكُمْ لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^٣. وتوعد الجاحدين بأشد العذاب ﴿ولئن كفرتم إن عذاب لي لشديد﴾^٤.

وهذا النوع من الشكر هو الشكر على أصل النعم، وهو مختص بالله تعالى. أما ما يجريه الله تعالى على يد الناس من فعل المعروف الذي يسدى إليك، فإن شكر صاحبه بهذا الاعتبار أمر مرغوب فيه، لإشاعة روح الود، وتوثيق صلوات الحب، وهو من باب الاعتراف بالجميل.

ج - يسعى الإنسان في أسباب المعيشة، ويبذل جهده في وسائل الكسب الحلال. ولكن الأرزاق بيد الله، يرزق من يشاء. وكثير من الناس يكد ويكدح فيجني ثمرة ذلك في كسب محدود، وقد يوفقه الله إلى ربح وفير، ويفتح عليها أبواب رزقه، ويفدق عليه من نعمه، بما لا يكون في حسبانته. فيرفل في مجبوحة النعيم، وبلهنية

١ - رواه البخاري.

٢ - الآية (١٧٢) من سورة البقرة.

٣ - الآية (١٥٢) من سورة البقرة.

٤ - الآية (٧) من سورة إبراهيم.

العيش، ومن الناس من يعمل ثم لا يواتيه الحظ في الكسب، فيخيّب أمله، ولا يتحقق رجاؤه، وذلك من الله بلاء ومحنة.

وقد أفاء الله على أمتنا من نعمه، وفجر لنا ينابيع الثراء في أرضه، ورزقنا من حيث لا نحسب. فأطعمنا من جوع، وآمننا من خوف. وهذا امتحان منه تعالى، ليلونا أنشكر أم نكفر؟ أنطيع أم نعصي؟ فمن حق الله علينا أن نعترف بآلائه، وأن نضيفها إليه وأن نبذلها في مرضاته. حتى يديمها الله ولا يسلبها منا، فإن الدنيا حلوة خضرة، والافتتان بها من أعظم البلاء، الذي يسبب الهلاك والدمار، ويقضي على حياة الأمم. ولم يخش علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفقر، وإنما خشي علينا هذه الفتنة «لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا كما فتحت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»^١.

د - إن ما يحصل عليه الإنسان من مال أو جاه أو منصب، لا يناله إلا بتوفيق الله. فلا يجوز له أن ينسبه إلى مهارة في كسبه، أو جدارة في شخصه، أو استحقاق له عند ربه، أو شرف أوتيه. فإن هذا كله يتنافى مع عقيدة المؤمن، وقد كان الكفار يدعونهم لأنفسهم، ويرون أنهم جديرون بأحسن منه في الآخرة إن كان هناك بعث وحساب وجزاء. فذكر الله في شأنهم ﴿ وَلَئِنْ أَدَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَى ﴾^٢.

ويقول الله تعالى مخبرا عن قارون: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾^{٧٦} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾^{٧٧} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾^{٧٨} ﴿^٣.

١ - رواه البخاري. ٢ - الآية (٥٠) من سورة فصلت. ٣ - الآيات (٧٦-٧٨) من سورة القصص.

هـ - الصدقة على الفقراء والمعوزين من وجوه البر التي أكدها الإسلام. شكرا للنعمة، وآداء للبر، وطهارة للنفس، ومواساة لذوي الحاجة. فهي بلسم يتحسس جراح البائسين، فيداوئها برفق، ويعالجها في حكمة. ولها آثارها الاجتماعية في توثيق أواصر أبناء الأمة، والقضاء على الأحقاد والضغائن، واستئصال شأفة الحرب الطبقية. وهي منهج إنساني في بناء الحياة الاقتصادية في الإسلام، يحول دون تسرب النظم المتطرفة الأخرى، شرقية كانت أو غربية. فالإسلام يحث على الرفق بالضعفاء، ويدعو إلى إكرامهم، ويعينهم على بلوغ مآربهم. ونفس المؤمن نفس سخية، تنفق في جود وعطاء، ولا تخشى من ذي العرش إقلالا. وترجو ان تؤجر على ما تنفق أضعافا مضاعفة ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ جِبَةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ جِبَةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ ﴾ ١ .

أما البخل فإنه داء وبيل، يورث جحود النعمة، ويبعث على الكذب، ويمزق شمل الأمة، ويزرع العداوة فيما بينها. وهو دليل على أن صاحبه لا ثقة له فيما عند الله، ولا إيمان لديه بوافر عطائه. فيعيش ملتاغ الفؤاد، قلق النفس، يتهالك على دنياه، ويعبد المال من دون الله. «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم»^٢. ويكفي أن البخيل يستحق سخط الله، وسلب نعمة الله منه.

و - والله ملك السموات والأرض، وما من شيء يعرض للإنسان في حياته إلا وقد قدره الله، من خير أو شر. بيده سبحانه مقاليد الأمر، ويعز ويذل، ويعطي ويمنع، وما يمنحه الله للناس من قدرات يعينون بها إخوانهم. إنما يرجع الفضل إلى الله وحده الذي يجري الخير على يد من يشاء من عباده. ولذا لا يجوز العطف بالواو على الله تعالى فيما يكون من الإنسان تابعا لمشيئة الله وأفضاله على عباده. حتى يكون التوحيد خالصا لله. فإن الواو تقتضي التشريك. وإنما يجوز العطف بضم. وقد

٢ - من حديث في الصحيحين.

١ - الآية (٢٦١) البقرة.

جاء في هذا الحديث « فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك » ونظير هذا الحلف بغير الله ، وقد جاء الأمران فيما روي « أن يهوديا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تشركون . تقولون : ما شاء الله وشئت . وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت »^١ .

٣ - عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان ملكٌ فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إلي غلاما أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاما يعلمه . فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعده إليه ، وسمع كلامه ، فأعجبه . فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب ، وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكى ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي . وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر . فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس . فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجرا . فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس . فأتى الراهب فأخبره . فقال له الراهب : أي بُني ، أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل علي ، وكان الغلام يبرى الأكمه والأبرص ، ويداوي الناس من سائر الأدواء . فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما ههناك أجمع إن أنت شفيتني ، فقال : إني لا أشفي أحدا ، إنما يشفي الله . فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فأمن بالله ، فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟ قال : ربي ، قال : ولك ربٌ غيري ، قال : ربي وربك الله . فأخذه ، فلم يزل يعذبه حتى دلّ على

١ - رواه النسائي وصححه .

الغلام. فجى بالغلام، فقال له الملك: أي بُني، قد بلغ من سحرك ما تبرى الأكمه والأبرص وتَفَعَلُ وتَفَعَلُ. فقال: إني لا أشني أحدا، إنما يشني الله. فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب، فجى بالراهب. فقيل له: إرجع عن دينك، فأبى. فدعا بالمشارِ، فَوَضَعَ المشارَ في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه. ثم جي بالغلام، فقيل له: إرجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه. فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغت ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه. فذهبوا به، فصعدوا به الجبل. فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرُقور. فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقدفوه، فذهبوا به. فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك، قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له: رأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرُك، قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخذت، وأضرم النيران. وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها. أو قيل له: اقتحم، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام، يا أمه، اصبري، فإنك على الحق» رواه مسلم.

١ - الترجمة لراوي الحديث :-^١

صهيب بن سنان بن مالك المعروف بالرومي ، لأنه نشأ بالروم ، أو سبوه صغيراً فصار أكن ، ثم اشتراه رجلٌ من كلب ، فباعه بمكة ، فاشتراه عبد الله بن جدعان التيمي فأعتقه .

أسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم ، وكان من المستضعفين ممن يعذب في الله ، وهاجر إلى المدينة مع علي بن أبي طالب في آخر من هاجر ، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها .

روي أنه لما هاجر تبعه نفر من المشركين ، فسئل ، فقال : يا معشر قريش ، إني من أركم . ولا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي ، ثم أضربكم بسيفي ، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه ، فرضوا ، فعاهدتهم ودلهم ، فرجعوا ، فأخذوا ماله . فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له : ربح البيع . فأنزل الله عز وجل ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾^٢ . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « السُّبَّاقُ أربعة : أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وبلال سابق الحبشة ، وسلمان سابق الفرس »^٣ .

ولما مات عمر رضي الله عنه أوصى أن يصلي عليه صهيب . وأن يصلي بالناس إلى أن يجتمع المسلمون على إمام .

وعن صهيب قال : لم يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً قط إلا كنت حاضره ، ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضرها ، ولم يسر سرية قط إلا كنت حاضرها ، ولا غزا غزاةً إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله . وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامهم ، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم . وما جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين العدو قط حتى توفي .

٢ - رواه ابن عدي .

١ - راجع الإصابة . وتهذيب التهذيب . وكلاهما لابن حجر .

٣ - رواه ابن عدي والطبراني .

ومات صهيب سنة ثمان وثلاثين وهو ابن سبعين .

٢ - المباحث اللغوية :

« فابعث إلي غلاما » الغلام : الطائر الشارب . ويطلق على العبد والأجير ،
والجمع غُلَمَة وغلّمان .

« فكان في طريقه إذا سلك راهب » السلوك : النفاذ في الطريق ، والراهب :
العابد . من الترهّب : بمعنى التعبد ، وأصله من استعمال الرهبة . أي الخوف من الله .
« حبسني أهلي » : منعي أهلي ، والحبس : المنع من الانبعاث .

« ستبتلى » : ستختبر وتمتحن .

« الأكمه » : الذي يولد أعمى .

« سائر الأدوية » : بقيتها .

« المتشار » : مهموز في رواية الأكثرين ، ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياء . وروي
« المنشار » بالنون ، وهما لغتان صحيحتان : الآلة التي ينشر بها الخشب . سمي كذلك
اعتبارا بما ينشر منه عن النحت ، أي يتطاير وينتشر .

« مفرق رأسه » وسطها ، حيث يكون موضع افتراق الشعر .

« بلغتم ذروته » ذروة الجبل : أعلاه . بضم الذال وكسرهما .

« رجف بهم الجبل » أي اضطرب وتحرك حركة شديدة .

« كفانيهم الله » أغناني الله عن التخلص منهم بهلاكهم وبلوغ مرادي فيهم .

« قُرُقُور » القرقور : بضم القافين : السفينة الصغيرة ، وقيل : الكبيرة ، والجمع

قراقير .

« انكفأت بهم السفينة » أي انقلبت .

« صعيد واحد » الصعيد هنا : الأرض البارزة . ويطلق على وجه الأرض

باعتبار الغبار الذي يصعد منها ، من الصعود ؛ وهو الذهاب إلى الأمكنة المرتفعة .

١ - راجع النهاية لابن الأثير ، ومفردات الراغب والقاموس .

« كنانتي » الكنانة : جُعبة السهام . من الكِن ، وهو ما يحفظ فيه الشيء .
« كبد القوس » ما بين طَرْفي عُلَّاقَتها ، حيث يكون مقبضها عند الرمي .
والقوس : آلة على شكل نصف دائرة تُرمى بها السهام ، وهي مؤنثة ، وقد تذكر .
« نزل بك حذرُك » : أي ما كنت تحذر وتخاف .
« الأخدود » : الشق العظيم المستطيل الغائص في الأرض . وجمعه :
أخاديد ، وأصل ذلك من خَدَي الإنسان . وهما ما اكتنفا الأنف عن اليمين
والشمال .

« أفواه السكك » السكك : الطرق ، وأفواهها : أبوابها .

« أضرم النيران » أشعلها .

« فأحموه فيها » بهمزة قطع : أي ارموه فيها ، من قولهم : حميت الحديدة ونحوها :
إذا أدخلتها النار لتسخن وتحمى وتشتد حرارتها .

« اقتحم » يقال اقتحم الأمر : إذا رمى نفسه فيه بشدة ومشقة .

« فتقاعست » : أي توقفت ولزمت موضعها ، وكرهت الدخول في النار .

٣ - المعاني والأحكام :-

أ - يحكي هذا الحديث قصة أصحاب الأخدود التي جاء ذكرها في سورة « البروج »
وهي قصة تصور نموذجاً من نماذج الجبروت في الأرض . وتعبر عن روعة الإيمان
المستعلي على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة .

إن الطغاة هم الطغاة على أي أرض ، وفي أي زمن ، يسري حب التسلط في
دمائهم . ويستولي على أحاسيسهم ومشاعرهم . لا تطيب لهم الحياة إلا إذا أذلوا
أعناق الرجال . وسحقوا مقومات الفضيلة ، واستعبدوا الأحرار الشرفاء ، وتشفوا من
الأكارم الفضلاء . وضربوا بيد من حديد على أمتهم ، فاستباحوا حرمتها ، وسلبوها
أدنى حقوق الإنسان . يؤهون أنفسهم ليعبدتهم الناس خوفاً وطمعاً ، ومن ورائهم
العبيد الخانعون . يلهبون ظهور الأحرار بالسياط ، وينالون من كل مؤمن بالله ،

« يوزع مجاناً ولا يباع »

يجعلونه غرضاً لسهامهم، حتى يرجع عن دينه دين الحق إلى دين سيدهم المتأله على رؤوسهم. والويل كل الويل لأولئك الذين يعبدون الله الخالق، ويخرجون على طاعة المتأله الغاشم.

ولكن الإيمان بالله في كل عصر، يستعلي على بطش الجبارين. فإن قصارى جهد هؤلاء أن ينالوا من المؤمنين في الدنيا. فيمزقوا أجسامهم، أو يزهقوا أرواحهم، ولكن هذا يهون عند أهل الإيمان. بسمو أرواحهم، واتصالها بالملأ الأعلى، وتطلعها إلى نعيم الخلود.

والقرآن الكريم يحكي قصة أصحاب الأخدود في آيات بينات. تصور مدى ما يصل إليه الطغاة في الأرض من التحريق بالنار، وهم قعود حولها، يتلهون بمأساة جريمتهم. كما يتلهى الأطفال بلعبهم، فأولئك يعبثون بأرواح العباد، وهؤلاء يعبثون بالدمى. ﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ۖ (٤) النَّارِذَاتِ الْوَقُودِ ۖ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۖ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۖ (٧) ﴾ .

وماذا ينقم الطغاة على المؤمنين؟ إنهم ينقمون عليهم ما هو مفخرة لهم. يستحقون لأجله التكريم، في الإيمان بالله، والاعتقاد بوحدايته، والخضوع لشريعته ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۖ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ (٩) ﴾ .

وإذا استمرأ الطغاة طغيانهم، ولم ينيبوا إلى ربهم، فإن مصيرهم نار الجحيم، يحرقون فيها كما حرقوا المؤمنين في الدنيا، جزاء وفاقا، وشتان بين تحريق بنار يوقدها الخلق لحظات ثم تنتهي، وتحريق بنار الخالق أبدا لا يعلمها إلا الله. وفي مقابل ذلك يجد المؤمنون الصابرون المحتسبون النعيم المقيم، والفوز العظيم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۖ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴿١١﴾ ﴿١﴾ .

ب - تجري سنة الله في الكائنات على نسق محكم . لا يختل نظامه ، ولا يختلف ميزانه ، ولا تضطرب ضوابطه ، ولكن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ، لا يسأل عما يفعل ، فيجري بعض الخوارق على يد من يشاء من عباده . معجزة له إذا كان نبيا ، وكرامة إذا كان وليا . وهذا الحديث فيه إثبات كرامات الأولياء ، فيما أجراه الله على يد الغلام .

والكرامة أمر خارق للعادة كالمعجزة ، يظهره الله على يد عبد صالح ، والفرق بينها وبين المعجزة ، أن المعجزة يقع بها التحدي من مدعي النبوة ، بخلاف الكرامة . وإنما تحصل الكرامة بلزوم الاستقامة ، في طاعة الله وطاعة رسوله ، وموالاته أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، والقيام على ما يحبه الله ويرضاه ، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم ﴿ ۞ الْإِنِّزَٰلِیَّآءِ ۗ لِلَّهِ لَآخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿٢﴾ .

وإذا حصل بالكرامة فائدة مطلوبة في الدين كانت من الأعمال الصالحة المأمور بها شرعا . وإن حصل بها أمر مباح كانت من نعم الله التي تقتضي الشكر . وينبغي للمسلم أن يولي اهتمامه طلب الاستقامة لا الكرامة . فإن كثيرا من المجتهدين المتعبدين سمعوا عن الصالحين المتقدمين ما منحهم الله من الكرامات وخوارق العادات ، فلا تزال نفوسهم تتطلع إلى شيء من ذلك . وقد يظل أحدهم منكسر القلب ، متها لنفسه في صحة عمله وإخلاص نيته ، حيث لم يحصل له خارق . ولو علم سر ذلك لهان عليه الأمر ، فإن الله يفتح على بعض من جاهد نفسه صادقا شيئا من ذلك ، ليزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار قدرة الله يقينا ، فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا ، والخروج عن دواعي الهوى . والمنهج الصادق القويم أن يأخذ المرء نفسه بالاستقامة ، فهي سبيل الكرامة .

١ - الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة البروج . ٢ - الآية (٦٢) من سورة يونس .

وعدم الخوارق لا يضر المسلم في دينه ، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ، ولم يُسَخَّرْ له شيء من الكونيات ، لا يُنقص ذلك في مرتبته عند الله ، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له . إذ إن الخوارق قد تكون مع الدين ، وهي الخوارق النافعة ، وقد تكون مع عدمه فتؤدي إلى الفساد في الأرض . ولذا كانت التقوى سبيل الكرامة . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ بِجَعْلٍ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسِبُ ﴾ ١ .

وفي الحديث القدسي «من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه . وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه» ٢ .

ولا يقال : إن الكرامة لو صحت لأشبهت المعجزة فيؤدي هذا إلى التباس النبي بالولي ، وذلك لا يجوز ، فإن هذه الدعوى إنما تصح إذا كان الولي يأتي بالخارق ، ويدعي النبوة . وهذا لا يقع ، ولو ادعى النبوة لم يكن وليا . بل كان مُتَنَبِّئًا كاذبًا ٣ .
ج - لقد أمر الإسلام بالصدق ونهى عن الكذب . ولكن المصلحة الراجحة تبيح الكذب في حالات خاصة ، إذا لم تكن المعارض كافية . وفي الحديث «إن في معاريض الكلام مندوحة عن الكذب» ٤ .

فيجوز الكذب لإنقاذ النفس من الهلاك ظلما ، سواء كان هذا في إنقاذ الإنسان لنفسه ، أو إنقاذه لنفس غيره ممن له حرمة .

١ - الآيتان (٢ ، ٣) من سورة الطلاق .

٢ - أخرجه البخاري فيما يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه .

٣ - أنظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٥٨ ط المكتب الإسلامي .

٤ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، والمعاريض : جمع معراض ، من التعريض بالقول . وهو أن يقال كلام له وجهان ،

بطلق أحدهما والمراد لازمه . ومندوحة : أي فسحة ومتسع .

ويجوز في حديث الرجل مع امرأته، حتى يرضيها، إصلاحا للعشرة. وإبقاء على الود، وحفاظا على كيان الأسرة. إذا لم يكن في هذا إسقاط حق عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له أو لها.

ويجوز الكذب في الحرب، خداعا للعدو، وتضليلا له. وصيانة للأسرار الحربية. وفي قتل كعب بن الأشرف. قال محمد بن مسلمة للنبي صلى الله عليه وسلم: «أذن لي أن أقول. قال: قل» فهذا يدخل فيه الإذن في الكذب تصریحا وتلويحا. ويجوز في الإصلاح بين الناس، حتى تصفو النفوس، ويلتئم الشمل. وتجتمع الكلمة، ويعود الإخاء والحب. وفي الحديث: «ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فينمي خيرا^١ أو يقول خيرا» وروي «لا يحل الكذب إلا في ثلاث: تحدت الرجل وامرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، وفي الإصلاح بين الناس»^٢ قال الطبري: ذهبت طائفة إلى جواز الكذب لقصد الإصلاح. وقالوا: إن الثلاث المذكورة كالمثال. وقالوا: الكذب المذموم إنما هو فيما فيه مضرة، أو ما ليس فيه مصلحة».

د - لا يجد الحق في كثير من الأحيان أذنا صاغية، وإذا عم الجهل وساد الباطل عميت البصائر، واستشرى الفساد في الأرض وأناخ الطغيان بكله على هام الناس^٣. وفي مثل هذا تصد النفوس عن سماع الحق، وتفر منه، بل تقف له بالمرصاد تحاربه، وتتصدى لذويه، حتى يموت في المهد قبل أن ينتزع منها سلطانها وجبروتها.

ولذا كانت الاستعانة على حماية الحق وإبلاغ دعوته أمرا لا بد منه. فإن هذا يفوت على الظالمين هدفهم، ويتيح الفرصة للحق أن ينمو في صمت وهدوء. ولأن ينمو الإيمان بمنأى عن أعين الكفار فترة خير من أن يغشاهم فيشير حفيظتهم، ويستفزههم للقضاء عليه بغيا وعدوانا. وذلك المنهج نجده في موقف الراهب والغلام، وفي مؤمن آل فرعون: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ٢٧ ﴾

١ - رواه البخاري. وينمي خيرا: أي يُبَلِّغ. تقول: نمت الحديث أغية: إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير.
٢ - أخرجه الترمذي.
٣ - جمع هامة: وتطلق على رأس كل شيء، والكلاكل: صدر البعير.

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكْذِبْ فَاعْتَلِهِ
كَذِبُهُ وَإِنْ يَكْذِبْ فَاصِدِّقْ بِبَعْضِ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾

وقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته سرا حتى تكونت نواة الإيمان،
ثم صدع بالدعوة جهرا.

هـ - يعلن الإيمان الصادق بالله عن إخلاص ذويه. وتجردهم له، ورسوخ يقينهم به،
وثباتهم عليه. حتى تكون التضحية في سبيله بالنفس والمال مثلا حيا للقاء. وإذا
كانت الدعوة إلى الله تجد سبيلها في الكلمة الطيبة الحكيمة لتغزو القلوب، وتأخذ
بالألباب، ثم يكون ذبوعها وانتشارها رويدا رويدا، فلا تلبث طويلا حتى تطبق
الآفاق، فإن الصمود للحق في قوة وصلابة يكون لسان صدق للإيمان نفسه. يقرع
مسامع الناس بروعة بلائه، ويهز مشاعرهم بجلادة ذويه. وانتصار عقيدته في
نفوسهم، واستعلائها على أهواء الحياة، وتخلصها من جاذبية الأرض، فلا يسع
الناس - وهم يرون هذا اللسان المؤمن الصامت - إلا أن يذعنوا لجلاله. من حيث
يريد الطغاة سوءاً به، ويحكون الكيد له، ويأخذون على يد المؤمنين تعسفا وبطشا،
فإنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله. وهذا ما نجده في القصة، حيث قال الناس «أنا
برب الغلام، أنا رب الغلام، أنا رب الغلام».

ماذا قال أصحاب الصلوة عند ما صدق

لست قصيدة من لبقرة وعبرتي بديل؟

حطاطاً؟

رسول الله صلى الله عليه وسلم
ابن بن سليم
لماذا وبلغ رسول الله

خطبة رسول صلى الله عليه وسلم
في إرشاد عماله ومحاسبتهم
اللتبية
هلام اللتبية
هذه الخطبة

ثالثاً: من روائع الخطب

١ - خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إرشاد عماله ومحاسبتهم.
عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: «استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأسد على صدقات بني سليم يدعى ابن اللثبية، فلما جاء حاسبه، قال: هذا مالكم وهذا هديّة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فهلّا جلستَ في بيتِ أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً؟» ثم خطبنا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولّاني الله، فيأتيني فيقول: هذا مالكم وهذا هديّة أُهديت لي، أفلا جلس في بيتِ أبيه أو أمه حتى تأتيه هديّته إن كان صادقاً؟ والله لا يأخذُ أحدٌ منكم منها شيئاً غير حقه، إلا لقي الله تعالى يحمّله يوم القيامة، فلأعرفنَّ أحداً منكم لقي الله يحمّلُ بغيراً له رُغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر،» ثم رفع يديه حتى رُئي بياضُ إبطيه يقول: «اللهم هل بلغت» [بَصَرَ عيني، وسمِعَ أُذني]

١ - الترجمة: -

أ - أبو حميد الساعدي، اسمه عبد الرحمن بن سعد، وورد الاختلاف في اسمه واسم جده، شهد أحداً وما بعدها، وتوفي في آخر خلافة معاوية، وقبل: أول خلافة يزيد ابن معاوية.

ب - «استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأسد» جاء في هذه الرواية «رجلاً من الأسد» بالسین الساكنة، وفي نسخة من مسلم «الأزد» بالزاي،

١ - متفق عليه

وهم أزد شنوءة ، ويقال لهم : «الأزد والأسد» وهذا الرجل هو الذي جاء بيانه بعد

في قوله : «يقال له : ابن اللتبية» ^{العامل الذي أرسل رسول محمد ﷺ} ج - «ابن اللتبية» : بضم اللام وسكون التاء ومنهم من فتحها ، وجاء في بعض

الروايات «ابن الأتبية» بالهمز بدل اللام ، قال الكرماني : والأصح أنه «اللتبية» بضم اللام وسكون الفوقية ، نسبة إلى بني لُتب ، قبيلة معروفة ، واسمه : عبد الله بن اللتبية ابن ثعلبة الازدي ، واللتبية : أمه ، ولم يقف العلماء على تسميتها .

د - «بنو سُليم» قبيلة من قبائل قيس ، نسبة إلى أبيها سليم .

٢ - المباحث اللغوية : -

«استعمل رجلاً» : أي اتخذه عاملاً له . وليس هذا قاصراً على العمل اليدوي المهني كما هو شائع اليوم ، ولكنه يتناول أي عمل ، كجباية الزكاة والولاية ونحو ذلك . لأن هذه أعمال يسندها ولي الأمر إلى ذويها ، ويقال فيهم : إنهم عماله ، والمراد هنا : جباية الزكاة .

«صدقات بني سليم» أي زكاة أموالهم . والصدقات : جمع صدقة ، والصدقة : ما يخرج الإنسان من ماله على وجه القرية ، واجبا كان كالزكاة ، أو مندوباً كالتطوع ، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع به ، والزكاة للواجب ، وتسمى الزكاة الواجبة صدقة باعتبار تحري صاحبها الصدق فيها ، قال تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^١ . وقال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾^٢ .

«فلما جاء حاسبه» أي فلما جاء من جمع الصدقات أمر من يحاسبه ويقبض منه .

«هدية» الهدية كغنية : ما أتحف به وقدم إليه تلطفاً .

«فهلاً جلست» ألا : بالهمز مع الفتح والتشديد . وهلاً : بالهاء ، حرف تحضيض ،

مختص بالجمل الفعلية الخبرية كسائر أدوات التحضيض .

٢ - الآية (٦٠) من سورة التوبة

١ - الآية (١٠٣) من سورة التوبة

«مما ولاني الله»: مما جعلني الله واليا عليه . أتولاه وأرعاه واحفظه وأصونه .
لا يأخذ أحد منكم منها شيئا»: أي من الصدقات التي ولي علي جمعها .
«بغير حقه»: بغير استحقاق له ، واستحقاقه هو ما يعطيه الإمام من نصيبه في
الصدقات ، وهو نصيب العاملين عليها .

«لأعرفنَّ أحدا منكم»: أي لأعرفنه على هذه الحالة حين يلقي الله يوم
القيامة ، والجملته واقعة في جواب قسم مقدر ، واللام لام القسم . أي فوالله
لأعرفنَّ ، وفي بعض الروايات «لأعرفن» بالألف على النبي ، قال القاضي : هذا
أشهر ، قال : والأول هو رواية أكثر رواة صحيح مسلم ، والمعنى على رواية النبي :
«لا أعرفن»: أي : ما ينبغي أن تكونوا على هذه الحالة يوم تلقون الله فأعرفكم بها .
«بعيرا له رُغاء»: رغاء : بضم الراء وتخفيف المعجمة مع المد : هو صوت البعير .
«أو بقرة لها خُوار»: خوار : بضم المعجمة وتخفيف الواو : صوت البقر .
«أو شاة تيعر»: تيعر : بفتح المثناة الفوقانية ، وسكون التحتانية . ثم عين مهملة
مفتوحة وتكسر : معناه تصيح . واليعار : بفتح أوله ويضم : صوت الشاة ، وفي بعض
الروايات «أو شاة لها يعار»

«هل بلغت؟» هل : هنا بمعنى قد . وروي أنه قال : «اللهم هل بلغت» مرتين أو
ثلاثا ، والمراد بلغت حكم الله اليكم .

«بصر عيني وسمع أذني» هذا من كلام أبي حميد . ومعناه : أعلم هذا الكلام
يقينا ، وابصرت عيني النبي صلى الله عليه وسلم حين تكلم ، وسمعت أذني فلا شك
في علمي به .

٣ - المعاني والأحكام : -

أ - يدل الحديث على محاسبة الإمام عماله ، فمن واجب ولي الأمر أن يقوم على
شئون الرعية ، فإذا ولي أحدا بعض هذه الشئون كان عليه أن يراقبه ، وأن يحاسبه
فيا ولي عليه ، إبراء لذمته ، وإذا علم الولاة أن الامام يراقب تصرفاتهم ، ويحاسبهم

على أعمالهم، أدوا ما عليهم حق الاداء، وبهذا تنتظم اجهزة الدولة، ويستقيم أمرها، ويشعر الناس بمتعة الأمن في ظل العدالة.

وابن اللبّية وقد استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقات لما جاء حاسبه على ما قبض وصرف. وهذا اصل في محاسبة الإمام عمّاله. والحاكم ولاته.

وينبغي أن يكون الأمر كذلك في مسئوليات الحياة كلها، حيث يتولى المسئول العام محاسبة من ولاهم أعمالاً تحت يده، كما يتولى هؤلاء محاسبة من تحت يدهم، ومسئوليات الحياة متدرجة، تبدأ في نطاق صغير محدود، ثم لا تزال تتسع حتى تصل إلى مسئولية الإمام عن رعيته، فالأم لها مسئوليتها في بيتها، والرجل قوام على مسئولية البيت، والمعلم أو المعلمة، ثم المدير أو المديرية. وهكذا دواليك في شعب الحياة المختلفة، ومصالحها المتعددة.

ب - من أين لك هذا؟ ادركت بعض الدول في العصر الحديث ضرورة سن قانون يحد من استغلال ذوي النفوذ والجاه من الوزراء وغيرهم في الثراء من مال الدولة بوسائل غير مشروعة. وعرف هذا القانون بقانون «من أين لك هذا؟» وقد جاء الإسلام بهذا المبدأ منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، فصادر رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدايا التي أهديت إلى «ابن اللبّية» وادعاها لنفسه. فما كان للناس أن يقدموا له هذه الهدايا لولا قيامه على الصدقات، ولذا قال له صلى الله عليه وسلم: «فهلأ جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً؟»

ج - وجدير بولي الأمر أن يخطب الناس في كل أمر ذي بال، كي يبين لهم وجه الحق، ويتوجه إليهم بالنصيحة. ويحذرهم من زلات الانحراف، ويقوم معوجهم. وقد يغني عن ذلك البيانات الرسمية التي يذيعها عليهم. وهذا هو الذي حفظه لنا تاريخ الإسلام، في سيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم، ثم في سيرة خلفائه من بعده، وفي هذا الحديث لم يكتف رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصح «ابن

اللتبية» بل خطب في الناس . وأوضح لهم المبدأ الإسلامي العام ، في محاسبة الوزراء والولاة والأمراء والعمال والمستولين ، كي يقف كلُّ منهم عند شرع الله في حقوق الرعية ، مبتدئا في خطبته بما سنه من الحمد والثناء على الله بما هو أهله .

د - لقد حث الإسلام على التهادي ، ودعا إلى قبول الهدية ، لما في ذلك من إشاعة المحبة بين الناس ، وتوثيق اواصر الود ، واستئصال شأفة الأحقاد والضغائن ، وذلك من غير إشراف ولا مسألة ، قال صلى الله عليه وسلم : «من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة فليقبله ولا يرده ، فإنما هو رزق ساقه الله إليه» وكان صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويشب عليها . وفي الحديث الآخر «تهادوا تحابوا»

وللهدية دلالتها على الود مهما كانت قليلة الشأن ، يقول صلى الله عليه وسلم :
وسلم : «لو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت»
والهدية لا تخلو من ثلاث حالات : -

١ - أن يكون باعثها التودد والتحاب ، فتكون تعبيرا عن صدق المحبة ولا سيما في المناسبات ، كالزواج ، والولادة ، والسلامة من المرض ، والقدوم من سفر ، ونحو ذلك ، وهذه هي الهدية التي حث عليها الإسلام .

٢ - أن تكون الهدية لمن أسدى إليك معروفا عن طيب نفس ، لتعبر بها عن شكر له ، وتقديرك لمعرفه . فهذه مرغوب فيها ، حفاظا على المعروف بين الناس ، وردا للجميل .

٣ - أن يكون القصد من الهدية التوصل إلى نفع شخص على حساب مصلحة الآخرين . وهضم حقوقهم . أو للإجحاف بحق عام ، فهذا النوع من الهدايا لا يجوز شرعا ، كما لا يجوز قبوله ، ومن ذلك هدايا الحكام والولاة والأمراء . لأنها تكون بمنزلة الرشوة ، قال عمر بن عبد العزيز : « كانت الهدية في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية ، واليوم رشوة » وروى ابن سعد من طريق فرات بن مسلم قال :

«اشتهى عمر بن عبد العزيز التفاح ، فلم يجد في بيته شيئا يشتري به . فركبنا معه ، فتلقاه غلمان الدير بأطباق تفاح ، فتناول واحدة فشمها ، ثم رد الأطباق ، فقلت له في ذلك ، فقال : لا حاجة لي فيه ، فقلت : ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية ؟ فقال : إنها لأولئك هدية . وهي للعمال بعدهم رشوة»

والرشوة : هي كل مال دفع لبيتاع به من ذوي جاه عوننا على ما لا يحل . وفيما يرويه احمد من حديث أبي حميد مرفوعا : « هدايا العمال غلول»

وقد دل موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع «ابن اللتبية» على ذلك . حيث لم يقبل منه ما ادعاه فيما أُهدي اليه . ولم ير أنه حلال له ، وأرجع ذلك إلى أن الحقوق التي عمل لأجلها هي التي كانت سببا في الاهداء له . ولو أقام في منزله لم يهد إليه شيء ، فلا ينبغي ان يستحلها لوصولها إليه عن طريق الهدية ، «هلا جلس في بيت أبيه وأمه لينظر هل يهدى إليه؟» أي انه لولا الطمع في أن يضع من حق الزكاة ما أُهدي إليه .

ويبدو من هذا أنه يجوز للعامل أن يقبل الهدية إذا كانت لشكر معروفه ، أو للتحبب إليه ، وأن الممنوع من ذلك هو ما إذا كانت الهدية للطمع في وضعه من الحق . لما في ذلك من إجحاف بالحق العام ، أو الحق الخاص .

ه - ولولي الأمر أن يصادر هدايا الولاة والوزراء والمستولين التي قدمت إليهم محاباة لهم ، وطمعا في إجحافهم حقوق الآخرين لحسابهم ، ونظير هذا ما يأخذونه من أموال الدولة بجاه مناصبهم من غير وجه حق ، ما لم يأذن لهم ولي الأمر بشيء من ذلك . وإذا صودرت وأخذت منهم فإن الإمام يجعلها في بيت المال ، فقد نقل ذلك عن العلماء في شرح هذا الحديث . لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر «ابن اللتبية» برد الهدية التي أهديت له لمن أهداها .

و - ومن أساليب التأديب التوبيخ ، فيجوز توبيخ المخطئ تأديبا له . ولقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن اللتبية بهذا التأديب ، حيث وبخه على خطئه ،

وأعلن ذلك للناس تحذيراً من الاغترار به، وإنذاراً لمن تسول له نفسه أن يصنع صنيعه.

سؤال

ز - وفي الحديث دليل على جواز استعمال المفضول في الإمارة والإمامة ونحو ذلك مع وجود من هو أفضل منه، فإن الاختيار لمثل هذه المناصب يكون له اعتبارات كثيرة، وربما نظر الإمام من الاختيار إلى اعتبارات يرى أهميتها في الولاية، ومع هذا فإنه لا يقر عماله على خطأ.

ح - وقد تضمن الحديث تصويراً مروعاً لعذاب أولئك الذين يستحلون أموال الناس بغير حق، حيث يؤتى بهم يوم القيامة، وهم يحملون سمات الأموال التي استحلوها، وهي تعلن في صراخها عن الظلم الذي وقع عليها، تشهيرا بالظالمين يوم الدين، وليس أدل على ذلك من رغاء البعير، وخوار البقر، ويعار الشاة.

ط - ومن خصائص أمة الإسلام الدقة في الرواية، وتحري النقل، وصدق الخبر، ولا سيما خاصية الضبط في تحمل الحديث وأدائه والمسلمون في ذلك لهم قصب السبق في منهجية البحث العلمي وتقعيده وتأصيله، فيما وضعه علماءنا من أصول الحديث. وهذا هو ما أكده أبو حميد الساعدي راوي هذا الحديث بقوله: «بصر عيني، وسمع أذني»

ألا فما أحوجنا إلى أن نأخذ من خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث تلك الأحكام والمعاني، وإن نجعلها نبراساً لنا في حياتنا؟؟

٢ - خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما ولي الخلافة

تكلم أبو بكر عندما ولي الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، إني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا

عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلواتكم يرحمكم الله»^١.

١ - المباحث اللغوية:

«ولست بخيركم»: الخير: يقابل الشر، ويطلق على الفاضل المختص بالخير، يقال: رجل خيرٌ، وامرأةٌ خيرَةٌ، وهذه خيرَةُ النساء. قال تعالى ﴿فبين خيرات حسان﴾

«فقوموني»: عدلوني، أصله من قام: إذا انتصب معتدلاً، واستقام: اعتدل، وقومته: عدلته، أما تقويم السلعة فهو بمعنى: بيان قيمتها.

«أريح عليه حقه»: أراح فلان على فلان حقه: أي رده عليه، مستعار من أراح الإبل، إذا ردها إلى المراح بضم الميم، أي المأوى.

«تشيع الفاحشة»: تنتشر، يقال: شاع الخبر: أي كثر وانتشر - والفاحشة والفحش، والفحشاء: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

٢ - المعاني والأحكام:

أ - يلقب رئيس الدولة الإسلامية الذي يقوم على تصريف شئونها بلقب خليفة، كما يلقب بالامام، وبأمير المؤمنين، فالخلافة، والإمامة الكبرى، وإمارة المؤمنين، كلمات مترادفة بمعنى واحد، وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا^٢، قال الماوردي: الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا^٣، وقال ابن خلدون: الخلافة هي حمل الكافة على الأحكام الشرعية في احوال دنياهم وآخرتهم^٤.

١ - رواه ابن اسحاق في السيرة، وقال ابن كثير: اسناده صحيح، وانظر كنز العمال ص ١٢٩ ج ٣ ط حيدر آباد.

٢ - انظر الخلافة أو الإمامة العظمى ص ١٠ لمحمد رشيد رضا - ط. المنار.

٣ - الأحكام السلطانية ص ٥ ط الحلبي.

٤ - مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ ط عبد السلام محمد.

ولقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وامت البيعة لأبي بكر بعد الاجتماع الذي عقد في سقيفة بني ساعدة، ولم يكن هناك لقب ينادى به، فدعاه أحدهم: يا خليفة الله، فقال: لست بخليفة الله، ولكنني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يخاطب بقولهم: يا خليفة رسول الله.

أما تسميته إماماً فتشبيهاً له بإمام الصلاة في اتباعه والاقتران به. ولما توفي أبو بكر وبويع عمر بالخلافة بعده كانوا ينادونه: خليفة خليفة رسول الله فكأنهم استثقلوا طول هذا اللقب، فدعاه بعض الصحابة بأمر المؤمنين، فاستحسن الناس هذا اللقب، ولقب به.

وقد زعم بعضهم - كابن عربي ومن تابعه - أن الخليفة هو خليفة عن الله ونائب عنه، وليس كذلك. لأن المراد بالخليفة أنه خلف من كان قبله من الخلق، فكان أبو بكر خليفة رسول الله لأنه خلفه على أمته بعد موته. والخليفة إنما يكون عند عدم المستخلف بموت أو غيبة، ويكون لحاجة المستخلف إلى الاستخلاف، وكل هذه المعاني منتفية في حق الله تعالى وهو منزّه عنها، فإنه سبحانه حي قيوم شهيد لا يموت ولا يغيب ولا يحتاج، وهو غني عن العالمين^١.

ب - وإذا كان تحكيم الشريعة الإسلامية في كل شأن من شؤون الحياة واجباً، ولا يستطيع المسلمون ذلك إلا بوجود إمام يحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله، فإن نصب الخليفة يكون واجباً، وقد اجمع سلف الأمة وجمهور الطوائف على أن نصب الإمام واجب شرعاً لا عقلاً وجوباً كفاً كالجهاد^٢.

فإنه ما كاد خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يترامى إلى أسماع الصحابة حتى أدركوا أنهم في حاجة إلى من يقوم على أمرهم. يخلف رسول الله في

١ - انظر مجموع الفتاوى للشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤٥ ج ٣٥ الطبعة الأولى.
٢ - خالف في ذلك بعض المعتزلة وطائفة الخوارج فقالوا: إن الواجب تنفيذ أحكام الشريعة، وذلك ممكن إذا تواطأت الأمة عليه.

جب تولية حكام على الجماعة لیسرد لظلم
اتباع الشريعة الإسلامية ولجنة النبوية في الحكم
جب انه يسور لصدقه بینه حكام در عیته

حفظ الدين وسياسة الدنيا بشريعة الله، ولم يختلفوا على وجوب نصب خليفة للمسلمين، وإنما وقع الاختلاف بادىء ذي بدء على من يتولى هذا المنصب، ثم تمت البيعة لأبي بكر في اجتماع السقيفة، فكان اول خليفة لدولة الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقديرا منهم لخطورة هذا الأمر وأهميته فقد قدموه على الاشتغال بتجهيز الرسول صلى الله عليه وسلم ودفنه.

تعاون مع
نكاح واستراد
مع له
انه كونه حكام
رغبت كل ما يامر صلى
من يطهر حكام

وصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا امرّوا عليهم أحدهم»، فكيف بقيادة الأمة وولايتها.

جب انه تتبع حجه
يكون ما يامر
فتمشيا مع
شريعة الإسلامية

وكثير من الامور الواجبة شرعا - كإقامة الحدود، وسد الثغور، وتعبئة الجيوش، وإقامة العدل، وإنصاف المظلوم ممن ظلمه، وغير ذلك - لا يمكن القيام به الا اذا وجد خليفة للمسلمين، وإذا كانت هذه الواجبات يتوقف القيام بها على نصب الخليفة فإنه يجب عليهم أن ينصبوه، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والحفاظ على وحدة الأمة معتصمة بحبل الله لا بد له من قيادة واحدة تسوسهم بسياسة واحدة، وتحكم فيما شجر بينهم بما في كتاب الله وسنة رسوله.

ج - وقد عرف الناس ما يسمى «بالبيان الحكومي» الذي يلقيه رئيس الدولة عند توليته، يعرضه على الأمة، ويذيعه في المدياع، ويقدم في «التلفاز»، وينشر في الصحف، يبين فيه الحاكم نهجه في حكمه، وسياسته في تدبير شئون دولته، وأسس الإصلاح التي يعتزم القيام بها، فيكون هذا خطة لحكمه، يتعهد بالوفاء بها، والتزام ما جاء فيها التزام المرء بميثاق يأخذه على نفسه. وربما ظن بعض الناس ان هذا لم يعرف الا في النظم الدستورية الحديثة.

وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه. أول الخلفاء الراشدين الذين قلدوا مهام الدولة الإسلامية يخطب في غرة خلافته هذه الخطبة الجامعة، التي يرسم فيها منهجه

القويم في سياسة حكمه، مستندا الى قواعد الدين واصول شريعته ومبادئ عدله، مهتديا بهدي رسول هذه الامة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أخذ على عاتقه تحمل ما في خطبته، ووفى بذلك اعظم الوفاء. إيمانا وصدقا، وحزما وقسطا.

وما عرفت الدنيا رئيس دولة تدين بالنظم الدستورية الحديثة يلقي بيانه الحكومي على أسس قومية راسخة ثم يهب نفسه للوفاء بها ما وهب ابو بكر نفسه لأمة الإسلام، إنما عرّفت بيانات تزهو عباراتها، وتُنمق كلماتها، وتغري معانيها، وتدغدغ عواطف الشعوب بمشاريع الإصلاح والتعمير والتصنيع المرتقب، والخير المأمول، وتنظر الأمة إلى تلك الآمال بلهفة، فإذا جاءتها وجدت ذلك كسراب بقيعه^١، يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. فيخيب أملها، وتعود صفر اليدين.

د - تتكافأ في الإسلام حقوق الإمام وواجباته، فمن حقه إذا أحسن أن تقف الأمة وراءه، تشد أزره، وتمده بالعون، ذودا عن حياض دينها، وحماية لبيضتها^٢، وإعلاء لكلمة الله وتحكيا لشريعته، وإحقاقا للحق، ونصرة للمظلوم، وأداء لواجب الدعوة، وتيسيراً لسبل العيش الكريم، ونهوضاً بمستوى الدولة، وإعزازا لشأنها. ومن واجبه أن يتقبل النقد الهادف، والتوجيه الصادق، والرأي السديد، والنصح الخالص، لأن هذا هو واجب الأمة نحوه، تبصيرا له بما يغفل عنه، وتقويما لسلوك قد يستهين به. حتى لا تزل قدمه بالأهواء، ولا يشتط عن جانب الحق، وبهذا ينتفع بالرأي السديد، وذروة ذلك المبدأ فيما قاله ابو بكر الصديق «إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني» وهذه هي «الديمقراطية» الحققة في أسس الحكم الإسلامي.

ه - والعلاقة بين الحاكم المسلم وأمتة علاقة صدق وأمانة، فيكون الحاكم صادق اللهجة، مستقيم النهج، طاهر السيرة، يطلع أمتة على الحقائق دون تزييف،

١ - القبعة والقاع: المستوى من الأرض.

٢ - بيضة كل شيء: حوزته

ويخبرها عن الواقع دون بريق، كما يكون الناس معه كذلك، صادقين في حبهيم، يحضونه النصيحة، ويخلصون له المشورة، ويحدثونه حديث الصدوق، وبتبادل الصدق بين الراعي ورعيته يكون صدق الولاء.

أما الكذب في الأقوال والأفعال فهو خيانة للأمة. يكذب ولي الأمر فيعد وعودا لا يني بها، ويمني الناس بالأمانى ولا يحقق لهم أمنية، ويدعي أنه فعل ولم يفعل. ويكذب الناس فينقلون له صورة تتنافى مع الواقع، ويزينون له سوء صنيعه، ويظهرونه على غير حقيقته، بالدعاية الجوفاء، والمديح الرخيص، فيعمى عن الحق، ويتأدى في الغي، وفي هذا وذاك خيانة كبرى.

وحيثما أغرق الناس في الشناء، وكالوا المديح، ودقوا طبول النصر، وكبروا تكبير الظفر، ونسجوا قصص البطولة، وبنوا من الامجاد ناطحات السحاب، وصموا الآذان بطنين الألفاظ التي يدوي رنينها كدوي النحل - حيثما كان الأمر كذلك، انهارت الأمة، وتردت في الهاوية، وهذا شأن أمم الدنيا اليوم.

أما أمة الإسلام فنهجها في بيان رئيس الدولة «الصدق أمانة، والكذب خيانة»
و - والعدل هو قوام نظام الحكم في الاسلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ لَآتٍ وَتُؤَدُّونَ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ
أَهْلِهَا وَإِذْ أَحْكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^١

والإمام العادل احد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله^٢، وكم تتطلع البشرية منذ أقدم العصور الى حياة آمنة، يستقر العدل فيها بين أبنائها، حتى تنعم بالطمأنينة والسعادة، فإنه لا شيء ادعى للأحقاد والضغائن وأقوى على إثارة الفتن واضرام نار العداوة والبغضاء كظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

وفي مراحل التاريخ المتطورة ظل العدل هدف الانسانية الذي يداعب احلامها، تنشده وراء كل بارقة من بوارق الأمل في حركات الدعاة والمصلحين، حتى تلقى عن

٢ - من حديث في الصحيحين.

١ - الآية (٥٨) من سورة النساء.

كاهلها اوزار الظلم وتحطم اغلال الاستبداد، وتقضي على بواعث الاضطراب والفوضى وتستظل بلواء الأمن، فتستمر مواهبها وقدراتها في الاستفادة من هذا الكون الذي سخره الله لها، قياما على الحق، واسعادا للبشرية، واستمتاعا بطيبات الحياة.

وتقدم الإنسان في مضمار العلوم والمعارف، واكتشف العديد من النظريات العلمية التي تبهر العقول بعظمتها، وتمتلك القلوب بمنجزاتها. ووصل إلى أوج الحضارة في العصر الحاضر، ولا يزال يكتشف المزيد من ضروب المعرفة، ولكن هذا الازدهار في التقدم الحضاري، وإن أتى أكله في ميدان الإنتاج والرخاء والرفاهة، لم يؤت أكله في تحقيق العدل، بل زاد الإنسانية شقاء حين استخدم العلم في أدوات التخريب والدمار، ونشر على ربوع الدنيا سحابة كثيفة من البؤس تثير في نفوس البشر الهول والفرع، أمام المخاوف المرتقبة، والأطماع المرعبة، وهيهات لهذا العالم أن يشعر بالاستقرار وقد أصبح ميزانه قائما على تصارع القوى، يأكل القوي الضعيف دون هوادة او رحمة.

والعدل في الإسلام يضرب أروع الأمثلة في تاريخ أمتنا:

لقد سرقت فاطمة المخزومية قطيفة وحليا، وبنو مخزوم من أشرف البطون القرشية، فعز عليهم أن تقطع يد امرأة منهم وأن يلحقهم عار السرقة، فأتوا إلى أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطلبوا منه أن يشفع لدى رسول الله فيها، فوقف رسول الله الموقف العادل المنصف الحازم: عن عائشة: أن قریشا أهمتهم المخزومية التي سرقت، قالوا: من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترى عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟» ثم قام فخطب فقال: «يأيها الناس. إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق منهم الشريف تركوه، وإذا سرق منهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن

فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها^١. وبهذا القول الحاسم أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم حجر العدل بين الناس كلهم أمام شريعة الله. وروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قتب^٢. يغدو، فقال له: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير ند^٣ من إبل الصدقة أطلبه، فقال علي: لقد أذلت الخلفاء بعدك، فقال: لا تلمني يا أبا الحسن، فوالذي بعث محمداً بالنبوة لو أن عناقاً^٤ ذهبت بشاطىء الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة.

وقاعدة العدل في البيان الحكومي لدى أبي بكر الصديق «الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى أخذ الحق منه إن شاء الله».

ز - ومن واجب الحاكم المسلم أن يستأصل شأفة الفساد والشر من أمته، فالجريمة وباء يسري في المجتمع، فيهدم كيانه، ويمزق شمله، وإذا شاعت الجريمة، أصبحت داءً وبيلاً، يقضي على حرمت الناس، ويبعث في نفوسهم الهول والفرع. ومن واجبه أن يرفع لواء الجهاز ليعلي كلمة الله، ويعز أمة الإسلام، ويقوض دعائم الشرك، ويدك حصون البغي، ويجعل لأمة الإسلام هيبة. والأمة معه في ذلك كله، تسانده، وتستجيب له إذا استنفرها، وتسارع تحت قيادته للعمل والبذل والفداء.

ويوم أن كانت أمتنا أمة نظيفة الخلق، وكان الجهاد سمة لها، صدق وعد الله فينا، عزة وإباء (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) أما حين تخلت عن واجبها، واستكانت لعرض الحياة الدنيا، فقد ذلت نفوسها، ثم استذلها أعداؤها، وتلك سنة الله، فإنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم «لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله

١ - الحديث مخرج في الصحيحين

٢ - القتب: الإكاف على قدر سنام البعير، والمراد هنا البعير

٣ - ند البعير: شرد

٤ - العناق: الأنتى من أولاد المعز

إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء»
ح - والإسلام يوجب على الأمة أن تنقاد لولي الأمر في العسر واليسر،
والمنشط والمكروه. فله عليها حق السمع والطاعة، ولكن ذلك مشروط بشرطين في
الانقياد للأمر:

١ - أن يكون المأمور قادراً على القيام بما أمر به، أما ما لا يستطيع القيام به
فلا تلزمه الطاعة فيه. إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وعن ابن عمر قال: «كنا
إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا: فيما
استطعتم»^١. والله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^٢.

٢ - أن يكون ما أمر به معروفاً موافقاً لأحكام الشريعة، فالسمع والطاعة على
المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا
طاعة^٣. وهذا هو ما بينه أبو بكر الصديق رضي الله عنه «اطيعوني ما أطعت الله
ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

وذلك أولاً وآخرًا بيان أبي بكر الصديق الخليفة الأول في أول خطبة يوجهها
لأمته.

فمن سياتي
كلية
أقول هذه الخصة على قول أبي بكر رضي الله عنه
البيان حكوي ليقية رئيسي لبرك عند تولي
حازا فصل الجهد للصورة

١ - متفق عليه

٢ - الآية (١٦) من سورة التغابن

٣ - رواه البخاري.

رابعاً: من الهدى النبوي في بعض شئون الحياة

أ - آداب طلب العلم

هذا فرض الإسلام على المسلم أن يتعلم، وأن تكون أمته أمة علم ومنازة هداية للبشرية كافة في مرافق الحياة كلها.

فنهج القرآن الكريم في الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، وبما له من صفات الكمال، وتوحيده عز وجل هو منهج الفطرة في النظر والتأمل، حتى يهتدي الإنسان إلى الاعتقاد بوجود خالق مدبر لهذا الكون يستحق العبادة وحده دون سواه

﴿ وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^٢

وعلى المسلم أن يتعلم أصول العقائد والعبادات والمعاملات والحلال والحرام بما تسلم به عقيدته، ويصح دينه.

ويفرض الإسلام على الأمة الإسلامية أن تتعلم من وسائل الحياة وال عمران وأسباب القوة ما يقوم بشأنها، ويحفظ لها كيانها، ويصون عزتها. حتى تكون في منعة من أعدائها. وفي الحديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^٣ ويقول تعالى:

١ - الايتان (١٦٣، ١٦٤) من سورة البقرة

٢ - الآية (٢٢) من سورة الأنبياء

٣ - رواه ابن ماجه

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَنفِقُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾^١

وقد بين الغزالي في الاحياء العلم الذي هو فرض كفاية والذي هو فرض عين فقال^٢. «إعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم، والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية، وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة، فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة، أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، والحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرها، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج^٣. أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين، فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات، كالزراعة والحياكة والسياسة بل الحجام والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجام لسارع الهلاك إليهم، وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله.

وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك، مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه، وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات^٤. وعلم الشعبة والتلبيسات وأما المباح فالعلم بالأشعار

٢ - إحياء علوم الدين للغزالي ص ١١٧ ج ١

١ - الآية (١٢٢) من سورة التوبة

٣ - حرج: وقعوا في الحرج والإثم.

٤ - الطلسم: كلمة يونانية الأصل، تدخل في علم السحر وشاع على الألسنة: طَلَسَم كجعفر، والجمع طلسم.

التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار وما يجري مجراها».

وذكر ابن تيمية في كتاب «الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية» ما يحتاج إليه الناس من صناعات، وبين أن هذه الصناعات فرض على الكفاية، فإنه لا يتم مصلحة الناس إلا بها، كما أن الجهاد فرض على الكفاية، والكفاية ما لم يتم بها أحد يعتبر فرض عين على من لديه استطاعة.

وإذا كان علماءنا السابقون قد نصوا على علوم وصناعات بعينها فلأنها هي التي كانت لديهم مما تدعو إليه الحاجة. وانطلاقاً من قاعدة ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب.. يتبين لنا بالنسبة إلى عصرنا الحاضر أنه يجب على الأمة أن يكون لديها من المتخصصين وأرباب المهن ما يسد حاجتها في مجالات الحياة كلها، بدءاً بالخباز ونهاية بعالم الذرة وما يحتمل أن يجد من علوم في المستقبل، حفاظاً على دينها وحماية لها.

وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على طلب العلم وبين ثبوته «من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»^٢.

وكان من هديه صلى الله عليه وسلم، أن يتفقه الناس، وأن يحملوا العلم إلى غيرهم «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^٣. «الدال على الخير كفاعله»^٤. «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» وكان ابن مسعود يقول: «اغد عالماً أو متعلماً، ولا تغد فيما بين ذلك، فإن ما بين ذلك جاهل أو جهل. وإن الملائكة تبسط أجنحتها لرجل غدا يطلب العلم من الرضا لما يصنع».

وكتابة العلم أدعى للضبط واعون للحفظ وأكثر تناقلاً وذيوعاً، عن عمرو بن

١ - انظر ص (١٧-٢٢) ط دمشق، دار الكتب العربية

٢ - خرجه مسلم ورواه الأربعة والحاكم

٣ - رواه البخاري

٤ - رواه مسلم وأبو داود

شعيب عن أبيه عن جده قال: «قلت يا رسول الله، اكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم، قلت: في الرضا والغضب، قال: نعم فاني لا أقول في ذلك كله الا حقا» وقال الخليل بن أحمد: ما سمعت شيئا الا كتبتة، ولا كتبتة إلا حفظته، ولا حفظته الا نفعني.

ومهما كان الانسان دقيقا في الكتابة أو كانت دقة الطباعة فإن الأمر لا يخلو من تصحيف أو سقط. ولذا كانت المعارضة لازمة، عن هشام بن عروة قال: «قال لي أبي: يا بني كتبت؟ قلت: نعم. قال: عارضت؟ قلت: لا. قال: لم تكتب» وعن عبد الرزاق قال: «سمعت معمرا يقول: لو عورض الكتاب مائة مرة ما كاد يسلم من أن يكون فيه سقط، أو قال: خطأ».

ومن هديه صلى الله عليه وسلم أن يسأل الانسان أهل العلم فيما لا يعلمه، ففي الحديث «شفاء العي السؤال» وقالت عائشة: «رحم الله نساء الانصار، لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن» وقالت ام سليم: «يارسول الله، ان الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة من غسل؟»

واستحي علي رضي الله عنه أن يسأل عن المذي لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابنته التي كانت عنده. فامر المقداد بن الأسود فسأل له رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

وفي الأحاديث والآثار آداب للعالم والمتعلم نجمل اهمها:

١ - حسن النية وصحة المقصد - فانما الاعمال بالنيات، والعلوم الشرعية أولى بأن يكون هدف صاحبها منها الخير العام، وإسرار المعروف لصالح الاسلام، وأن يتطهر من أعراض الدنيا ليسدد الله خطاه. والانتفاع بالعلم ثمرة الاخلاص فيه، وفي الأثر عن جابر مرفوعاً «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتجتازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار» ومن وصايا لقمان

١ - وعيد له بالنار وتحذير من ذلك.

لابنه» يا بني : لا تتعلم العلم لثلاث ، ولا تدعه لثلاث ، لا تتعلمه لتماري به ، ولا لتباهي به ، ولا لترائي به ، ولا تدعه زهادة فيه ، ولا حياء من الناس ، ولا رضا بالجهالة» .

٢ - حسن الخلق - فالمعلم في موقف المؤدّب ، ولا تبلغ الآداب مبلغها في النفس الا إذا كان المؤدّب مثالا يحتذى في الخلق والفضيلة ، والكلمة الطيبة تجذب اليها الدارس ، ويأخذ منها القدوة ، والكلمة النابية قد تصرف الطالب عن الاستفادة مما يسمع أو يقرأ ، وتقطع عليه مجرى تفكيره .

٣ - الامتثال والعمل - فإن العلم يجد قبولاً من العاملين به أضعاف ما يجد من سمو معارفه ودقة مباحثه ، وحسن السيرة يجعل المعلم قدوة حسنة لطلابه ، ومثالا حيا لما يقرره من علم ، وكثيرا ما يصد الناس عن تلقي العلم من بحر زاخر في المعرفة لسوء سلوكه وعدم تطبيقه . وقد قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾

ومن أول الناس الذين يقضى فيهم يوم القيامة ، رجل تعلم العلم وعلمه ولم يعمل به . وعن معاذ قال : «اعملوا ما شئتم ان تعلموا ، فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا» .

٤ - التواضع ولين الجانب - فالصلف العلمي حاجز حصين يحول بين الانسان والانتفاع بعلمه ، «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» ومن افضل آداب العالم تواضعه ، وترك الاعجاب بعلمه ، ونبذ حب الرئاسة عنه ، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه ، فان اعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله .

٥ - عزة النفس - فينبغي للعالم ان يترفع عن سفساف الأمور ولا يغشى أعتاب الجاه والسلطان كالسائل المتكفف ، وفي الحديث «ومن أتى السلطان

١ - رواه مسلم وأحمد والترمذي

٢ - السفساف : الرديء من كل شيء أو الأمر الحقير .

افتتن» ومن وصايا أبي قلابة لأيوب السخيتاني «يا أيوب احفظ عني ثلاث خصال .
إياك وأبواب السلطان، وإياك ومجالسة أصحاب الأهواء، والزم سوقك، فإن الغنى
من العافية».

٦ - حسن السمات والوقار - فان هذا يكسب العالم هبة في مظهره العام،
وجلوسه ووقوفه ومشيته دون تكلف . وعندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل : إن الرجل يجب أن
يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة ؟ قال : « إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق ،
وغمط الناس» وعن ابن عباس قال : « مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر بن الخطاب
عن حديث ما معني منه إلا هيبته» وعن طاوس قال : « إن من السنة أن توقر
العالم» والهبة لا تنافي التواضع ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم ،
وتعلموا له السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولا تكونوا جبابرة
العلماء»^٢.

٧ - تقديم من هو أولى منه - فلا يتصدى للعلم بحضرتهم وهم أحياء ،
ولا يغمطهم حقهم بعد الممات ، بل يرشد الى الاخذ عنهم وقراءة كتبهم . وقيل
لمعاذ بن جبل : « أللرجل العالم أن يقول ومعه عداؤه من الناس في الأمر لا بد منه ؟
قال : إن شاء قال ، وإن شاء أمسك حتى يكفيه أصحابه ، فذلك أحب إلي»^٤.

١ - أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد .

٢ - رواه مسلم ، وغمط الناس : احتقارهم

٣ - أخرجه البخاري في الادب المفرد .

٤ - راجع هذا الموضوع من كتاب « جامع بيان العلم وفضله » لأبن عبد البر .

ب - آداب الطعام والشراب

الاسلام دين عام شامل يتناول شئون الحياة كلها، حتى تكون حياة المسلم على هدى من الله وبصيرة. يمارس أي عمل من الأعمال فيشعر فيه برابطة الدين التي تجذب إلى استشعار عظمته، وأنه يلتزم الوفاء نحوه، يستوي في هذا شئون الانسان التعبدي، وشئون العادية المباحة، فإن حسن النية في العادة المباحة يجعل المباح قرينة وعبادة، ومن ذلك ما هداانا اليه رسولنا صلى الله عليه وسلم في آداب الطعام والشراب.

١ - الحلال الطيب - أباح الله لعباده الطيبات من الرزق، والطعام الطيب

في الاسلام هو ما كان طريق كسبه مشروعاً، وكان تناوله مشروعاً، حتى يكون طيباً عاجلاً وأجلاً، وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾^١ وقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾^٢

فينبغي للمسلم أن يقصر طعامه وشرابه على الحلال الطيب.

٢ - التسمية في أول الطعام - والمسلم يصل أمر حياته دائماً بالله،

ويستهديه في كل شأن من شئونه، ويلتمس منه البركة والخير. وكان من هديه صلى الله عليه وسلم: أن يسمي الله على أول طعامه، وإذا نسي الانسان التسمية أولاً فإنه يتدارك ذلك عند تذكره أثناء الطعام «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإذا نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: بسم الله أوله وآخره»

٣ - الحمد في آخر الطعام - وكما يبدأ المسلم طعامه بالتسمية فإنه يختم

بالحمد، وقد استمتع بما أحل الله له، اعترافاً بنعمته تعالى عليه. وشكراً له على ما أنعم، وثناء عليه بما يستحق «وكان صلى الله عليه وسلم إذا رفع مائدته قال:

١ - الآية (١٧٢) من سورة البقرة. ٢ - الآية (٥١) من سورة المؤمنون.

٣ - رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح

« الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفي ولا مُستغنى عنه ربنا » وقال صلى الله عليه وسلم: « من أكل طعاما فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ».

٤ - أن لا يعيب طعاما حلالا - لكل انسان شهوته الخاصة نحو أطعمة بعينها يحبها وتشتهيها نفسه، وقد تعاف نفسه بعض الاطعمة التي أحلها الله، لعدم إلفه لها، أو ندرة وجودها في بيئته، أو لأن نفسه تقزز من طعام بعينه لأي عامل نفسي، فإنه يتركه دون أن يعيبه أو يعيب من يأكله. فقد كان هديه صلى الله عليه وسلم في الطعام أنه لا يرد موجودا، ولا يتكلف ما ليس عنده، وما قرب اليه شيء من الطيبات الا أكله، الا ان تعافه نفسه، فيتركه من غير تحريم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط. إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه » وأكل الضب على مائدته ولم يأكل منه، إذ عافته نفسه، لأنه ليس بأرض قومه.

٥ - الأكل باليمين - وسنة هذه الأمة التيامن في كل أمر حسن لا يستقذر، كالوضوء والغسل والتيمم، ولبس الثياب، ودخول المسجد، والمصافحة. والمؤمن يأخذ كتابه بيمينه يوم القيامة.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا فَرُؤْتُ كِتَابِيهِ ۗ ﴾ (١٩) ﴿ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ هُمْ أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۗ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۗ ﴾ (٩)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه التيمن في شأنه كله، في طهوره وترجله، وتنعله.

٢ - رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن

١ - رواه البخاري

٤ - متفق عليه

٣ - قرأت نفسه: أبت الطعام

٥ - الآية (١٩) من سورة الحاقة. هاء: اسم فعل أمر بمعنى خذ، وهاء: للجمع، أي خذوا

٧ - الحديث متفق عليه - ورجل شعره: سرحه.

٦ - الآيتان (٨، ٩) من سورة الواقعة

ومن التيامن المسنون الأكل والشرب باليمين، فلا يأكل باليسار التي يستخدمها فيما يستقذر غالباً، وعن سلمة بن الأكوع «أن رجلاً أكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله فقال: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت» ما منعه إلا الكبر فما رفعها إلى فيه»^١.

ولا بأس بأن يستعين الإنسان بالشمال في طعامه، ولكنه يجعل تناول يمينه، وإذا كان الأكل بالسكين «والشوكة» قد جرى فيه العرف عند الناس أن يقطع الإنسان الطعام بالسكين في يمينه لأن اليمين أمكن في القطع، ويتناول المقطوع بالشوكة إلى فيه بيساره، فهذا عرف خاطيء، ويستطيع الإنسان أن يقطع الطعام أولاً مستعيناً بكلتا يديه، ثم يتناول بيمينه، أو يعود نفسه أن يمك السكين باليسار «والشوكة» باليمين.

٦ - الأكل مما يليه - حين يأكل الإنسان في «صحن» مستقل يضع فيه القدر المناسب والذي يأكله، ولا يشاركه أحد فيه. أما حين يأكل مع غيره من قصعة كبيرة فإنه ينبغي أن يأكل مما يليه، فلا تطيش يده يمينه ويساره أمام غيره، أو وسط القصعة، لأن هذا يؤذي الذين يأكلون معه. والنفس بطبيعتها تأنف أكل الطعام الذي انغمست فيه الأيدي المتعددة، إذ لا يدري المرء مدى نظافتها، واليد الطائشة في تناول الطعام تشعر بنهم صاحبها ونزقه. وعن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: «كنت غلاماً في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم^٢ وكانت يدي تطيش في الصحفة^٣ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»^٤.

١ - رواه مسلم.

٢ - أي تحت نظره.

٣ - تتحرك وتمتد في نواحي الصحفة. والصحفة: قطعة كبيرة منبسطة تشبه الخمسة.

٤ - متفق عليه.

وإذا تحركت الأيدي بطيش في القصعة انفرط سماطها^١، وظن الأكلة أنها لا تنفي بحاجتهم، وذهبت بركتها، وفي الحديث «البركة تنزل وسط الطعام، فكلوا من حافتيه، ولا تأكلوا من وسطه»^٢.

٧ - الأفراد فيما يتأتى فيه القران - من الأطعمة ما يكون حبا صغيرا جدا يصعب على الإنسان ان يأكله حبة حبة، مثل حب السمسم، فلا بأس أن يقرن الانسان بين حبتين او اكثر، أما ما يكون كبيرا كالتمر والعنب ونحوهما فإن تناوله واحدة واحدة ادعى للقناعة، وايسر في المضغ، فلا يقرن بين ثنتين، وعن جبلة بن سحيم قال: «اصابنا عام سنة^٣، مع ابن الزبير، فرزقنا تمرا، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يمر بنا ونحن نأكل فيقول: لا تقارنوا فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن القران»^٤.

٨ - الجلوس المعتدل - والأكل تناول لطعام انعم الله به على الانسان، وذلك يقتضي ذكر النعمة، وشكر المنعم، وجميل التواضع له، والجلوس المعتدل عند تناول الطعام فيه من الاتزان ما يوحى بذلك. وهذا هو أدب الاسلام في هدي رسولنا صلى الله عليه وسلم، فإنه قال: «لا أكل مُتَكَنًا»^٥، والاتكاء المذموم عام يشمل المائل على جنبه، والذي يتكى على إحدى يديه ويأكل بالأخرى، ونحو ذلك.

٩ - عدم البطنة - المعدة بيت الداء، والمسلم عفا يأكل قدر حاجته، بما يغذي جسمه، ويسد جوعته، لأنه يأكل في معي واحد، فلا يكون شرها، يأكل بنهم كأنما يأكل في سبعة أمعاء، والصحة البدنية تنص على ذلك في علومها، وللبطنة ادواء وبيلة، تعود على صاحبها بالضرر البالغ، والمرض العضال الفتاك، ولذا كان هدي الاسلام ان لا يفرط الانسان في الطعام والشراب، عفة لنفسه، وحفاظا على صحته

٢ - رواه أبو داود والترمذي.

٤ - متفق عليه.

١ - السباط: الشيء المصنف، والسباط: ما يبسط ليوضع عليه الطعام.

٣ - أي جذب.

٥ - رواه البخاري.

«ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، حسب ابن آدم لقيات يُقمن صلبه. فإن كان ولا بد فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^١.

١٠ - ما يتصل بالأكل بالأصابع - قد يأكل الانسان بيده مستخدما اصابعه، وقد يستخدم ادوات الطعام المعروفة اليوم، ولا يعتبر استخدام هذه الادوات امارة على التقدم والرفق، كما لا يعتبر اكل الانسان باصابعه امارة على التأخر والبداءة، فإن الانسان ينظف يده بنفسه، ويظمن الى نظافتها. ولا تأنف نفسه منها، وهذا كله قد لا يتحقق في ادوات الطعام التي يستخدمها، ومن الأطعمة ما يتعذر استخدام هذه الادوات في تناولها فيكون الانسان مضطرا الى استخدام يده، وهذا لا عيب فيه «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث اصابع، فإذا فرغ لعقها»^٢، والأكل بإصبع واحدة يدل على التكبر، والأكل بالأصابع الخمس يدل على الحرص والجشع.

١١ - قلة الطعام وكثرته - إن الطعام القليل يجعل الله فيه البركة، إذا دعي اليه أهل التقوى وتكاثر الأيدي عليه. وكثيرا ما يعرض للانسان ضيف طارىء، فيتوهم ان استضافته مع قلة الطعام الذي في بيته توقعه في الحرج، ولكن النفس السمحة الطيبة تقبل كرم الضيافة على اي حال، ويستقبل المضيف هذا برضا اداء لسنة الاسلام، وليس الكرم في كثرة الطعام بقدر ما يكون في سماحة النفس وجودها وسخائها «طعام الاثني كافي الثلاثة وطعام الثلاثة كافي الاربعة»^٣.

١٢ - التنفس خارج الإناء في الشرب - إن عبّ الشراب مرة واحدة له تأثيره السيء على اللهاة والحنجرة، وقد يشرق به الانسان، ولا سيما اذا شرب بعد عطش، وقد يضيف تنفسه فيتنفس داخل الاناء، وزفير التنفس يخرج ملوثا بالجراثيم الضارة، ويمر على الفم الذي يكون متغير الرائحة غالبا. ولذا كانت

١ - رواه البخاري.

٢ - رواه مسلم.

٣ - متفق عليه.

٤ - شرب بالماء ونحوه: غص

الأناة في الشرب على جرعات متقطعة يتنفس فيها المرء خارج الاناء ثلاثاً من أدب الشرب في الاسلام «وكان صلى الله عليه وسلم يتنفس في الشراب ثلاثاً»^١، وقال: «اشربوا مثني وثلاث. وسموا اذا أنتم شربتم. واحمدوا اذا انتم رفعتهم»^٢ «ونهي ان يتنفس في الاناء»^٣.

والنفخ في الشراب كالتنفس في الاناء للأضرار الصحية الأنفة الذكر، بل هو اشد من التنفس، وقد ورد النهي عنهما معا «نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتنفس في الاناء أو يُنفخ فيه»^٤.

١٣ - الأيمن فالأيمن - اذا كان الناس في مجلس واحد فان تقديم الشراب يكون الى كبيرهم اولاً، ثم يعطى من على يمين الشارب فمن يليه، وهلم جرا، وان كان من على يساره اولى واكبر، لأن سنة الاسلام التيامن، وتقديم من على اليمين - وإن كان مفضولاً - على من على اليسار، وليس هذا ترجيحاً لمن على اليمين، ولكنه ترجيح لجهته، اي لمعنى في جهة اليمين، وهو فضلها على جهة اليسار.

ومن الخطأ الشائع ما يظنه بعض الناس من ان البدء باليمين يعني يمين المجلس. او يمين الساقى، وليس كذلك، عن انس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بلبن قد شيب بماء، وعن يمينه اعرابي، وعن يساره ابو بكر رضي الله عنه، فشرب، ثم اعطى الاعرابي وقال: «الأيمن فالأيمن»^٥.

١٤ - الشرب جالسا - شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً، وشرب قائماً، وكان اكثر شربه قاعداً، ويتعرض من يشرب قائماً لغير عذر الى ان يُغصّ، ويتعرض الى سقوط الاناء من يده، وقد ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم «نهي ان يشرب الرجل قائماً»^٦، وثبت انه شرب قائماً، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سقيت النبي صلى الله عليه وسلم من زمزم فشرب وهو قائم»^٧.

١ - متفق عليه. ٢ - متفق عليه. ٣ - متفق عليه. ٤ - رواه الترمذي. ٥ - متفق عليه - وشيب: أي خلط. ٦ - رواه مسلم. ٧ - متفق عليه.

وعن النَّزَّالِ بْنِ سُبْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَى عَلِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَابَ الرَّحْبَةِ^١، فَشَرِبَ قَائِمًا وَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَّ كَمَا رَأَيْتُمُونِي فَعَلْتُ».

وقد ذكر ابن حجر أنه لا خلاف في جواز الأكل قائماً، لا ماشياً - وإنما اختلفوا في جواز الشرب قائماً، فذهب الجمهور إلى الجواز وكرهه قوم، قال: والذي يظهر لي أن أحاديث شربه صلى الله عليه وسلم قائماً تدل على الجواز، وأحاديث النهي تحمل على الاستحباب والحث على ما هو أولى وأكمل، ولم يخرج البخاري أحاديث النهي، وإنما خرَّجها مسلم، وقال النووي: إن النهي فيها محمول على التنزيه، وإن شربه قائماً لبيان الجواز، وبهذا تجمع أحاديث الباب.

هذا وإن تكييف وسائل الطعام والشراب واعداد السفرة^٢، وتجهيز المائدة وتنسيقها وتصنيفها ونحو ذلك لا شيء فيه، وللناس أن ينظموا طعامهم كما يشاءون ماداموا يراعون آداب الطعام والشراب، ولا يستعملون آنية الذهب والفضة في الأكل والشرب - وسائر وجوه الاستعمال - لما في ذلك من بذخ وإسراف، وضياع لمال الأمة، وتعطيل لثروتها، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «إن النبي صلى الله عليه وسلم نهانا عن الحرير والديباج والشرب في آنية الذهب والفضة، وقال: «هي لهم في الدنيا، وهي لكم في الآخرة»^٣، وفي رواية لمسلم: «إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب إنما يُجرُّجر في بطنه نار جهنم» والحرير والديباج يحل للنساء دون الرجال أما آنية الذهب والفضة فإنها تحرم على النساء والرجال جميعاً.

١ - الحديث رواه البخاري، والرحبة: المكان المتسع، والرحبة هنا: رحبة الكوفة

٢ - السفرة: ما يبسط إليه الأكل، وتطلق على طعام المسافر.

٣ - متفق عليه

ج - آداب النوم والاستيقاظ

يأوي الانسان الى فراشه، ويأخذ مضجعه لينام، فيسلم نفسه لبارئها، ثم يستيقظ فيغدو ويروح لكسبه، بعد ان اخذ جسمه قسطه من الراحة، فيكون اكثر نشاطا وهمة، والمسلم في جميع احواله على ذكر دائم لربه، يلهج بالثناء عليه، ومن ذلك ما ورد في آداب النوم والاستيقاظ.

١ - الدعاء عند النوم واليقظة: النوم موت اصغر:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^١

فإذا استيقظ الانسان بعد نومه فذا يشبه الحياة بعد الموت. وفي ذلك تذكرة له بالحياة الآخرة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا اراد ان ينام قال: «باسمك اللهم اموت وأحيا» واذا استيقظ من منامه قال « الحمد لله الذي احيانا بعدما اماتنا واليه النشور»^٢.

٢، ٣ - نفض الفراش والاضطجاع على الشق الأيمن - يكون فراش النوم

خاليا طول النهار غالبا، وهذا يعرضه للغبار، وربما آوت اليه بعض الهوام التي قلما يخلو منها بيت، فيكون تنفيذه نظافة وامنا واطمئنانا.

والتيامن من هدي الاسلام، والقلب يميل الى الشق الايسر، فاذا نام الانسان على الشق الايمن كان اكثر استعدادا لليقظة والشعور والانتباه، وهذا يساعد على الاستيقاظ المبكر، ولا سيما الاستيقاظ لصلاة الصبح.

وفي هذين الامرين روي عن ابي هريرة انه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذا أوى احدكم الى فراشه فليحلّ داخله إزاره، فلينفض بها فراشه، فإنه لا يدري ما خلف في فراشه، وليضطجع على شقه الأيمن»^٣.

١ - الآية (٤٢) من سورة الزمر

٢ - أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه

٣ - أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي.

وعن البراء بن عازب قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوى الى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال: «اللهم وجهت وجهي اليك، واسلمت نفسي اليك، وألجأت ظهري اليك، رهبة ورغبة اليك، لا منجا ولا ملجأ منك الا اليك، أمنت بكتابك الذي انزلت. ونبيك الذي ارسلت» قال: «فمن قالهن في ليلة ثم مات مات على الفطرة»^١. وهذا دعاء جامع لكل ما يجب الأيمان به اجمالا من الأهلآت والنبوات، واسناد ذلك الى الله، والتوكل عليه سبحانه، والرضا بقضائه، والاعتراف بالثواب والعقاب.

٤ - الوضوء - والنوم على طهارة اكثر نظافة، حيث يكون ذلك في نهاية يوم قضاه الانسان في العمل. فكان الوضوء قبل النوم محققا لذلك، وفي رواية البخاري بحديث البراء الآنف الذكر: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذا اتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن».

٥ - وضع اليد تحت الخد الأيمن - اذا نام المرء على شقه الأيمن، فإن جسمه يأخذ راحته اذا وضع كفه اليمنى تحت خده، «وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا اخذ مضجعه وضع كفه اليمنى تحت خده الأيمن وقال: «رب قني عذابك يوم تبعث عبادك»^٢.

٦ - غسل اليدين - واذا لم يمكن الوضوء، فلا اقل من ان يغسل الانسان يديه لانهما يتعرضان للوسخ، واذا نام بهما ملوثتين كان تحركهما في النوم مؤذيا له، في عينيه او فمه، وربما كانت رائحتهما مدعاة لاجتذاب الهوام نحوهما، فيكون غسلهما وقاية من ذلك كله، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من نام وبيده غمرٌ قبل ان يغسله فأصابه شيء فلا يلومنّ الا نفسه»^٣.

٧، ٨، ٩ - إغلاق البيت، وإحكام غطاء الآنية، واطفاء السرج - يحتاج

١ - متفق عليه.

٢ - أخرجه النسائي والترمذي.

٣ - رواه البخاري، والغمر: زهومة اللحم والسمن ونحو ذلك من الدسم.

النوم الى طمأنينة النفس حتى يكون قسط الانسان من راحته كافيا ، واكثر ما يعرض للبيوت ليلا من اخطار يعرض لها ، باقتحامها سلبا ونهباً وعدوانا ، او بإشعال الحريق فيها سهواً او خطأ ، وترك البيت مفتوحا ، او المصباح موقدا يؤدي الى تلك الاخطار ، واستخدام المصابيح «الكهربائية» المستعملة الآن في عصرنا بوسائل الإضاءة وان كان اكثر امانا فإنه لا يسلم من الخطر كذلك . لما يحتمل ان يعرض اثناء النوم من مس «كهربائي» واذا حصل الأمان في القناديل «الكهربائية» الخافتة ، ذات قوة خمس شمعات او عشر فلا بأس بها لانتفاء العلة .

وترك انابيب الماء دون تثبيت من اغلاق الصنبور ، او الغفلة عن تغطية آنية الماء او الطعام يؤدي الى اضرار اخرى اذا سال الماء . او تلوثت الآنية . وفي هذا كله يقول صلى الله عليه وسلم : «أغلقوا الأبواب ، وأوكثوا السقاء^١ ، وخرروا الإناء^٢ ، وأطفئوا المصباح^٣» .

والامر باطفاء السرج يدخل فيه الاحتراز من النار بالطريق الاولى ، وقد ورد ما يخصها بالذكر «لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون»^٤ .

وذكر الشاطبي في الموافقات : أن المعونة الغيبية يستحقها من لم يقصر في الأسباب العادية حسب وسعه ، وهذا يدل على ان الأخذ في الاسباب السابقة المطلوبة شرعا يحقق معونة الله للعبد في أمنه على نفسه وبيته ، ولا يكون الامر كذلك عند التفريط .

١٠ - غسل اليدين بعد الاستيقاظ - لا يشعر الانسان اثناء النوم بحركة يديه ، وقد تمتد إحداها او كلاهما الى مكان مستقذر ، فيعلق بها ما يعلق ، فإذا استيقظ غسل يديه قبل ان يستعملها في شيء ، أو يدخلها في إناء : «إذا استيقظ احدكم من نومه ، فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا ، فإنه لا يدري اين باتت يده»^٥ .

١ - اربطوه وشدوه ، والوكاء : اسم ما يشد به القربة .
٢ - خمرروا الإناء : أى غطوه .
٣ - أخرجه البخاري والترمذي .
٤ - متفق عليه .
٥ - رواه أحمد في مسنده ، ومالك في الموطأ .

خامسا من الحقوق الإسلامية

على المسلم حقوق نحو ربه، وحقوق نحو إخوانه. والأقربين من أهله، وإليك طرّفاً من هذه الحقوق:

أ - حق الله، وحق رسوله صلى الله عليه وسلم.

يقف المرء عاجزا عن بيان حق الله تعالى وحق رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ لا يستطيع أن يحصي ذلك إحصاء دقيقا، وتلك - كما أرى - حقيقة تعبر عن قصور الإنسان وعجزه، فإن آلاء الله عليه لا يحصيها عد، وكل نعمة تستوجب شكرا، وقصارى ما يستطيعه المرء أن يتعرّف على أصول هذه الحقوق:

١ - التوحيد - توحيد الله تعالى في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، والبراءة من الشرك بأنواعه هو أساس الدين، ورأس الإيمان، حتى تتحقق العبودية الخالصة لله، بتجرد العبد لربه، يدعوه، ويعبده، ويخصه بالرجاء والخوف، والسؤال والقصده، ويثبت له ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تعطيل ولا تأويل.

وهذا التوحيد هو عماد الدين، وبه بعث الله رسله وأبلغهم رسالاته، حتى يخلصوا البشرية من الأرباب المتعددين، وسلطات المتألهين، وما من رسول بعثه الله إلا ودعا الناس إلى توحيد الله. وعبادته وحده، ويتابع المسلم موكب النبوات عبر التاريخ فيجد ان لب دعوتهم هو هذه العقيدة، حتى ختم الله رسالاتهم برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كلها، تلك الرسالة الخالدة إلى يوم

الدين. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢٥) ﴿١﴾

١ - الآية (٢٥) من سورة الأنبياء

وهذا يتضمن إثبات الإلهية لله وحده، فلا يعبد المسلم إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله. كما يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات.

ولقد كان المشركون يقرون بخالق واحد، ولكنهم أشركوا به غيره في العبادة، واتخذوا من دون الله شفعاء.

وهذا التوحيد الذي هو حق لله على عباده له أدلته التفصيلية من الفطرة والعقل والنقل بما يلجم المعاندين، ويدحض شبه المفتريين، ومجال ذلك في مادة التوحيد.

٢ - العبادة: عبادة الله وحده هي غاية الحياة التي من أجلها خلق الله الإنس والجن: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي ﴾.

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وأصلها من التذلل والخضوع، ولا يستحقها إلا من له غاية الإنعام وهو الله سبحانه وتعالى، وهي تعني أن يلتزم العبد طاعة الله والقيام بشرعه في كل شأن من الشئون خاضعا متذللا، يبتغي مرضاته تعالى، ويرجو منه الثواب والأجر ﴿ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ ﴾.

ولا يكفي أن يمارس المسلم العبادة حتى يكون قلبه خالصا لله، فالأعمال بالنيات وقد قال الله تعالى لنبيه ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾. وقال:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾.

إنه لا سلطان لأحد على عباد الله إلا إذا كان هذا السلطان مستمدا من شرع الله، سواء في ذلك سلطان الخرافة والوهم، أو سلطان الهوى والشهوة. أو سلطان الرهبنة ورجال الدين، أو سلطان الجبابة الطغاة من ذوي السلطة الزمنية. فهذا ونظائره من الطواغيت التي تجاوزت حدها، وتقمصت ما ليس لها من خصائص

٢ - الآية (٥) من سورة الفاتحة.

١ - الآية (٥٦) من سورة الذاريات.

٤ - الآية (٥) من سورة البينة.

٣ - الآية (٦٦) من سورة الزمر.

الألوهية، وهي التي جاء الأمر باجتنابها في مقابل الأمر بعبادة الله وحده

﴿ وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾^١.

والعبادة بهذه المعنى من صميم عقيدة التوحيد.

ولم يجد الشر مدخلا على الحياة الإنسانية لإفسادها، وانحراف سلوكها،

واجتيالها عن دينها^٢. بمثل ما وجد من هذه السبل في القديم والحديث، تأليها

للأحبار والرهبان، أو خروجا على تحكيم شريعة الله في الأرض

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾^٣.

فكل سلطة أو إمامة أو قيادة تبغي على الله وتتمرد على شريعته، وتحمل عبادة

على طاعتها بالإكراه، أو بالإغراء، أو بالتدجيل والتضليل، فهي طاغوت.

واستسلام المرء لتلك السلطة أو الإمامة أو الزعامة وتعبده لها وطاعته إياها عبادة

للتاغوت

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^٤.

واللجوء في الأهوال والشدائد إلى أي قوة حقيقية أو وهمية، والتضرع لها،

والاعتقاد بقدرتها على كشف الضر والإغاثة، أو جلب النفع والإعانة - كل ذلك من

العبادة التي لا تكون إلا لله، وإذا صرفت لغيره كان الشرك

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾^٥ اذ ندعوم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما

استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم^٥. ﴿ قُلْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا

وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^٦.

١ - الآية (٣٦) من سورة النحل.

٢ - الآية (٣١) من سورة التوبة.

٣ - الآية (٧٦) من سورة المائدة.

٤ - الآية (٣) من سورة الأعراف.

٥ - الآيتان (١٣، ١٤) من سورة فاطر.

وفي حديث معاذ بن جبل بالصحيحين : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » .

٣ - الشكر - يسدي إليك شخص معروفًا يمد إليك فيه يد العون دون أن يضر بالآخرين ، فتجد نفسك أسير جميله ، تحرص على مكافأته ، وتتقدم إليه بخالص الشكر ، والله سبحانه وتعالى هو الذي أنعم عليك بهذا الخلق السوي ، ورعاك في مراحل نموك جنينا وطفلا وصبيًا ، ويكلؤك بعنايته شابا وشيخا ، في سرائك وضرائك . وتتوالى نعمه عليك تترى في كل حال من أحوالك . فمن حق هذا المنعم المتفضل عليك أن تشكره بأداء حقه في كل نعمة .

فمن شكر الله عليك في صحتك وسلامة حواسك أن تستفيد منها فيما أحل ، وتصونها عما حرم ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾^١

ومن شكر الله عليك في مالك أن تستمتع به المتعة الحلال ، وأن تؤدي حق الله فيه للفقراء والمساكين والمعوزين وذوي المسغبة ، وتواسي به البائسين ، وتكفكف عبرات المنكوبين ، وتسهم في مشروعات البر والخير خدمة لأمتك ، وعونا لأبناء جلدتك ، واصلاحًا لمجتمعك .

ومن شكر الله عليك في علمك أن تستثمره في إفادة غيرك ، ورفع شأن بلادك ، وإعلاء كلمة الله ، وإعزاز دينه - وهكذا دواليك في كل نعمة ، وإذا خرج الأمر عن ذلك كان الكفران والجحود

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ تَرْتَبِئُونَ بِهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾^٢ .

٤ - حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته - لقد كانت بعثة رسولنا صلى الله عليه وسلم نعمة كبرى أنعم الله بها على البشرية بعامة ، وعلى أمتنا بخاصة ، فأنقذنا الله من مهاوي الرذيلة والشرك ، ومتاهات الضلال والجهل ، وهدانا إلى الإيمان والرشد والفضيلة ، ورفع برسالته ذكرنا في الخافقين .

١ - الآية (٣٦) من سورة الإسراء .

٢ - الآية (٨٣) من سورة النحل .

فمن حق رسولنا صلى الله عليه وسلم علينا أن نحبه ونطيعه ، فذلك سبيل محبة الله ﴿ فَلَا زَكَّوْتُمْ حَتَّىٰ تَحِبُّوا لِلَّهِ فَاتَّبِعُوْنِي يُحِبُّكُمْ اللهُ ﴾ ١ .

وقد فرض الله على المؤمنين طاعته ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّعُوا اللَّهَ وَاطِّعُوا الرَّسُولَ ﴾ ٢ .
وجعل الله تعالى طاعة رسوله من طاعته تعالى ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ ٣ .
فاتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية حق شرعي علينا .
لقد عرف التاريخ في حياة الأمم قادة مصلحين ، وأعلاما بارزين ، قدموا أعمالا كان لها أثرها في النهوض بأممتهم ، فأعطاهم الناس ما يستحقون من تعظيم وإكبار وحب وولاء ، فكيف برسولنا صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله على فترة من الرسل . فأخرج الناس من الظلمات إلى النور وهداهم إلى الصراط المستقيم ؟ إنه جدير بأن نمنحه خالص حبنا ، وأن نجعل سنته ملء آسماعنا وأبصارنا .

١ - الآية (٣١) من سورة آل عمران

٢ - الآية (٥٩) من سورة النساء

٣ - الآية (٨٠) من سورة النساء

ب: حق الوالدين والأقارب

يرسي الإسلام دعائم مجتمعه على اسس راسخة وقواعد ثابتة، تمتد من اعماق النفس البشرية فتخالط شغاف القلب^١، وتستقر في سويدائه. وتمتزج بعواطفه الأصيلة، حتى يكون بناء الامة الاسلامية بناء قويا متينا.

واقرب العواطف واشدها تأثيرا في النفس عاطفة الأبوة والامومة، والقربا، فإنها العاطفة التي تضم بين حنانها الوليد في مراحل نموه، فيشعر بدف عواطف الحب والرحمة والشفقة حتى يشب ويترعز وتواصل سيرها معه يافعا ورجلا وشيخا، ومن روابط هذه العواطف يكون بناء الأسرة، فيشتد ساعدها، ويقوى عضدها.

وشتان بين هذا المعنى في الاسلام وما عليه المجتمعات الشيوعية والمجتمعات الرأسمالية، فتلك تقتلع الأسرة من جذورها، وتتنكر لها، وتبيح ان يكون الوليد ابنا للدولة يتربى في دور الحضانة، لا يعرف ابا ولا اما ولا قرابة، وهذه ان ابقت على رابطة الأسرة حينما فسرعان ما تحمل الابناء والبنات الى الانفصال عنها في سن مبكرة ليعيش كل واحد بمنأى عن الآخر عيشة مستقلة.

وإذا كان شعور الانسان يتطلع دائما الى المستقبل، ويتدفق حيوية وطموحا نحو الجديد من الزوج والذرية، ويجد دافعا قويا الى ذلك بعامل الفطرة، فإن الاسلام لا يوصي الوالدين بالاولاد^٢، لان ذلك امر مركز في فطرة الانسان، ولكن شعور الانسان الانف الذكر ينسيه النظر الى الوراء فلا يلتفت اليه، ولا يعيره اهتماما، ولذا كان التأكيد على تذكر الانسان بنشأته وفضل والديه عليه امرا لا بد منه، حتى يكون المرء على ذكر لمن افنيا حياتهما سهرا عليه، وهجرا الكرى^٣، رعاية له، واسديا اليه من المعروف رحيق حياتهما، وآثراه على انفسهما.

١ - شغاف القلب: غلافه - وسويدائه: حبه

٢ - لفظ الولد والاولاد يشمل الذكر والأنثى. وهذا ما نريده في تعبيرنا

٣ - الكرى: النوم

ويدرك الآباء والامهات هذه الحقيقة مع اولادهم، فان الاب او الام يطيب له ان يمرض ولا يمرض ولده. وان يجوع ولا يجوع ولده، يكون في يده الطعام الشهى فيستمتع بتناول ولده له استمتاعا يفوق متعة تناوله له.

ولذا جعل الاسلام حق الوالدين والأقربين يلي حق الله تعالى.

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾^١.

وأكد القرآن الكريم حق الوالدين وحق الأقربين في اكثر من آية

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا ﴾^٢. ﴿ وَإِذِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَفَا ﴾^٣. ﴿ فَأَيُّ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾^٤،
﴿ وَأَنْفُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾^٥.

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بر الوالدين من افضل الاعمال واحبها الى الله تعالى فيما اخبر به، واذا كانت الصلاة عماد الدين فإن بر الوالدين يلي الصلاة في الفضل، ويسبق الجهاد في سبيل الله، عن عبد الله بن سعود رضي الله عنه قال: «سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل احب الى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم اي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم اي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»^٦.

وتكفل الله الرحمن الرحيم ان يصل من وصل رحمه، وان يقطع من قطعها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى خلق الخلق، حتى اذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، اما ترضين ان اصل من وصلك، واقطع من قطعك؟ قالت: بلى؟ قال: فذلك لك» ثم قال صلى الله عليه وسلم: اقرؤوا ان شئتم ﴿ فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم واعمى أبصارهم ﴾^٧.

١ - الآية (٣٦) من سورة النساء.

٢ - الآية (٨) من سورة العنكبوت.

٣ - الآية (٢٦) من سورة الإسراء.

٤ - الآية (٣٨) من سورة الروم.

٥ - الآية (١) من سورة النساء.

٦ - متفق عليه. ٧ - متفق عليه.

وللوالدين ثم الاقربين حقوق : -

١ - الاحسان: الاحسان اعلى درجات العمل الصالح، لانه يعني اداء الواجب مع مراقبة الله تعالى فيه، وهو كلمة جامعة تقتضي بالنسبة الى الوالدين برهما والانفاق عليهما ان كانا محتاجين، ورفع مستواهما ان كانت حالتهما دونك في المعيشة، وقد كان يوسف عليه السلام محسنا الى والديه بعد ان آتاه الله الملك، اذ جاء بهما من البدو، ورفعهما الى العرش - وهذا الاحسان جاء مؤكدا بصيغة المصدر في الآية ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ اي احسنوا بالوالدين احسانا.

٢ - الكلمة الطيبة وحسن المعاملة - تبلغ الكلمة الطيبة في النفس ما لا يبلغه الانفاق، ويتميز الوالدان بالشعور المرهف نحو الولد، ويشتد هذا الشعور بعد الكبر، حيث يشعران بالحاجة الى العون والرعاية، وتكون حالتهما حالة ضعف قد يزدريها الانسان ويحقر من شأنها، والكلمة الطيبة في مثل هذا تضمد الجراح، وتنزل بلسما على أس الشيخوخة، والمعاملة الحسنة تبعث على الثقة، وتشيع في النفس روح البهجة، اما بذاءة اللسان بالكلمة النابية، أو اظهار ما يدل على التضجر، او الايذاء بأي نوع من انواع الاذى كالزجر والغضب، فذلك عقوق يحز في نفس الابوين، ويقتلها قتلا، وان رأى الانسان منهما ما يكره، حيث تكون الاساءة في موضع الاحسان يقول تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُلْفِزُ عِنْدَكَ الْكِبْرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقْلُهَا أُفٌ ۚ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾

٣ - التواضع ولين الجانب - قد يفوق الابناء ما كان عليه الآباء، فيكون الولد اكثر ثراء، واعظم شأنًا واعلى جاها، وهذه عوامل ربما تبعث على الاستهانة بحق الوالدين غفلة وسفها، والترفع عنهما مهانة واحتقارا، والاسلام يلجم هذه النزوة الطائشة فيفرض على الولد مهما علت مكانته، وكانت وجاهته، ان يلين جانبه

١ - أف: اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر.
٢ - الآية ٢٣ من سورة الاسراء

ويخفضه لوالديه في صغار وذلة رحمة بهما، واشفاقا على احساسهما

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّكْرِ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾

٤ - الدعاء لهما: - الولد زرع ابيه، واذا عجز الانسان عن مكافأة صاحب المعروف بما له فإنه يمتلك الدعاء له، فيكون هذا الدعاء اثراء له في الدار الآخرة، والدعاء للوالدين من حسن الوفاء، وعظيم البر، ولا يقتصر امره على حياتهما، بل يمتد في الحياة وما بعد الممات، فإذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث: احداها الولد الصالح الذي يدعو له قال تعالى:

﴿ وَقُلِّبْ أَرْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ۝١٤﴾ وفي هذه الحقوق جاء قوله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝١٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّكْرِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلِّبْ أَرْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ۝١٤ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلَّهِ وَأَبْنَيْهِ غَفُورًا ۝١٥ وَأَنْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَفَا ۝١٦﴾

٥ - الوفاء وصلة اهل ودهما: - وحقوق الوالدين تظل موصولة بعد مماتهما في الدعاء لهما والاستغفار وطلب الرحمة، وتظل موصولة كذلك بذوي الرحم والمودة والصدقة لهما، سأل رجل من بني سلمة فقال: «يا رسول الله، هل بقي من بر ابوي شي ابرهما به بعد موتها؟ فقال: نعم. الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وانفاذ عهدهما بعد موتها، وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما، واكرام صديقيهما»^٢. «ومن ابر البر ان يصل الرجل اهل ود ابيه»^٤.

٦ - فضل الأم: - والأم في تلك الحقوق اولى من الاب، فإنهما وان اشتركا في العناية بالولد، هذا برعايته وماله، وهذه بخدمته في مطعمه ومشربه وملبسه ومأواه،

١ - والثانية: علم ينتفع به، والثالثة: الصدقة الجارية، وقد ثبت هذا في الحديث الصحيح

٢ - الآيات (٢٣-٢٦) من سورة الإسراء.

٣ - رواه ابو داود - والصلاة عليهما: الدعاء لهما ٤ - رواه مسلم.

لكن الأم قد حملته في بطنها تسعة اشهر ، يمتص خلاصة غذائها ، فيزيد عناؤها ، وهناً على وهن ، وضعفاً بعد ضعف ، وكم برحت بها الآلام عند ولادته ، فأشرفت على الهلاك ، وتظل ترضعه من خالص حياتها حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة .

والام كذلك ضعيفة الجانب . مكسورة الخاطر . تحتاج الى من يقف بجانبها ، يشعرها بالكرامة ، ويكون عضداً لها في الشدة ، ولذا اوصى الله الانسان بالاحسان الى والديه ولم يذكر من الاسباب الا ما تعانيه الام اشارة الى عظم حقها ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ شَكَرْتَهُ وَلِوَالِدِكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾^١ . ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾^٢ .

وكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم حق الام ثلاثاً ، ثم اتبعه بعد ذلك بحق الاب «جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : من احق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : امك ، قال : ثم من ؟ قال : امك ، قال : ثم من ؟ قال : امك ، قال : ثم من ؟ قال : امك ، قال : ثم من ؟ قال : ابوك»^٣ .

هذا وان بر الوالدين يسمو به الاسلام ، حيث لا يفرق في ذلك بين بر وفاجر ، فهو حق عام يجب ادائه ، ومعروف ينبغي الوفاء به . مالم يترتب على ذلك معصية ، فانما الطاعة في المعروف :

﴿ وَإِذَا جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾^٤ .

١ - الآية (١٤) من سورة لقمان .

٢ - الآية (١٥) من سورة الأحقاف .

٣ - متفق عليه .

٤ - الآية (١٥) من سورة لقمان .

رسوخه و صلته بالبنية المرصوخة
 ليس بصلب بعضها
 رخص هذه لصاحبها
 حق المسلم على المسلم

أرأيت بناء شامخا يروك منظره ويعجبك رسوخه، وتدهش لاحكامه؟ ان بناء كهذا يتكون من قواعد وأعمدة، وجدران وقاعات وأجر وأدوات بناء متعددة، يشد بعضها بعضها، ومنها كان تماسك البناء وصلابته، كذلك أمة الإسلام في رسوخ قواعدها، وسموق بنائها، وتآخي أبنائها، وشدة أواصرها، ويصلب عود هذه الأمة ويستعصي على أعدائها ما قويت رابطتها، وتعمقت في نفوسهم عقيدتها، امثالاً لأمره تعالى ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ ﴾^٢

وما أتيت أمة الاسلام من قلة عددها وفقر بلادها فهي أكثر امم الأرض عددا وأغناها ثروة. ولكنها أتيت من جذب نفوسها ووهن رابطتها فاستطاع العدو ان يمزق شملها، وأن يجعل أبنائها شيعة واحزابا، ناهيك بالغزو الفكري الذي يغمر بالسذج كي ينسلخوا من عقيدتها.

إن المثل الحي لأمة الاسلام هو ما عبر عنه نبي الأمة صلى الله عليه وسلم بقوله « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فهي امة واحدة:

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾^٦ كالجسد الواحد يشعر كل عضو فيه بشعور الآخر « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »^٧.

ولذا شرع الاسلام حقوقاً للمسلم على أخيه، تحفظ هذه الوحدة، وتصون هذا الكيان.

١ - الأجر: معربة: اللبن المحروق.
 ٢ - الآية (١٠٣) آل عمران
 ٣ - رواه البخاري ومسلم والترمذي
 ٤ - متفق عليه
 ٥ - سيق سموقاً: علا وطلال
 ٦ - ناهيك: حسبك
 ٧ - الآية (٩٢) من سورة الأنبياء

١ - تعظيم حرمت المسلم: - للمسلم حرمة في دمه وماله وعرضه، وهذه هي الحقوق العامة التي يقوم عليها بناء الحياة الانسانية الآمنة، حيث يشعر الانسان بالأمن على نفسه، فلا يعتدي عليه قوي يبطش به، والأمن على ماله، فلا يسطو عليه لص أو يغتصبه غاصب، والأمن على عرضه، فلا يدنس شرفه ولا يلوث نسبه، ولهذا شرع القصاص في النفس والأطراف وشرع حد السرقة، وحد الزنا، وحد القذف، حماية للدم والمال والعرض. وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحقوق في قوله: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه».

٢ - رد السلام: - ومن حق المسلم على المسلم اذا مر عليه أو زاره، أو قابله، أو استأذن لدخول بيته، أو مقرر عمله أن يشعره بالأمان، حتى تطيب نفسه، ويطمئن خاطره، وتستقر حياته، وذلك بالسلام عليه «السلام عليكم ورحمة الله» فاذا سلم على أخيه كان أحق بأن يرد أخوه عليه السلام بأحسن منه. يبادلُه الشعور بالأمان والود، توثيقاً لعرى المحبة، وإشاعة لروح الأخوة، ودعاء له بالرحمة فيقول: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

﴿وَإِذْ أُخِيْتُمْ بِحَيَّةٍ فَمَجَّوْا بِأَحْسَنِهَا أَوْرَدُوهَا﴾

ولا يغني عن السلام غيره مما كان عليه أهل الجاهلية من قولهم: عم صباحا، أو عم مساء أو نحو ذلك. فكيف بمن يتشددون في تحية بعضهم بعضاً بما يحيي به الأجنبي أبناء جلدته بلغته؟ والسلام هو تحية المسلمين في الدنيا والآخرة

﴿مَجَّيْنَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾^٢ والجنة هي دار السلام ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾^٣

٣ - عيادة المريض: - يمرض الانسان فيسعر باهزال، وتخور عزيمته، ويتطرق اليه اليأس، وتضعف نفسيته. ويتوهم شبح الموت ماثلاً أمامه يريد أن ينقض عليه ليلتهم، ويحس بأن المرض قد طحنه طحناً، فأصبح من الهلاك قاب

١ - متفق عليه

٢ - الآية (٨٦) من سورة النساء

٤ - الآية (٢٥) من سورة بونس.

٣ - الآية (٢٣) من سورة ابراهيم

قوسين أو أدنى، وفي مثل هذه الحالة يفتش المريض عن إنسان يواسيه، وزائر يدعو له، وأخ يفتح أمامه أبواب الأمل في الشفاء، ونصير يقدم له العون حتى تستعلي همته على بواعث الضعف، ويجد من إخوانه مشاركة له في بأسائه تخفف وقع المصيبة، وآلام السقم «اللهم ربَّ الناس، أذهب البأس، اشف أنت الشافي، لا شفاء الا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»^١.

وزيارة المريض من حقوق المسلم التي نص عليها الاسلام، تحقيقاً لتلك الغايات السامية، والأهداف النبيلة، وترويحاً عن المريض، وتسلياً له . وتذكيراً للزائر بناعي الموت حتى يعرف قيمة الصحة، ويشكر نعمة الله عليه فيها. وينبغي أن يراعي المسلم في زيارة المريض اختيار الوقت المناسب، وأن لا يجلس اليه طويلاً، أو يشق على أهله في عيادته، وأن يلاحظ أوامر الأطباء، من ترك الكلام معه، أو قلة الترداد عليه.

٤ - اتباع الجنائز: - تعظم المصيبة بالموت، حيث يحف غصن من شجرة الأسرة، وتنقص العشيرة لبنة من لبناتها، وعلاقة المسلم بأخيه لا تنقطع بفارقة الحياة، وإنما يظل حبلها موصولاً، بالوداع الأخير في الصلاة عليه . وتشيع جنازته، حتى توارى جثته في قبرها ومستقرها، وفي ثنايا ذلك يجد أهله من إخوانهم المواساة الحميدة في مصابهم. «فله ما أعطى، ولله ما أخذ، وكل شيء عنده بأجل مسمى»^٢ وفي ذلك لأجر عند الله، قال صلى الله عليه وسلم: «من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان، قيل: وما القيراطان؟ قال: مثل الجبلين العظيمين»^٣.

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء عن اتباع الجنائز، ففي حديث أم عطية «نهينا عن اتباع الجنائز ولم يُعزم علينا»^٤.

١ - متفق عليه، وهو دعاء يدعو به الزائر للمريض

٤ - رواه مسلم

٣ - متفق عليه

٢ - من حديث متفق عليه

٥ - إجابة الدعوة: - يحدث للانسان من نعم الله عليه ما يسره كأن يزف إلى عروسه او يرزقه الله بولد، أو يشفى من مرض، فيقيم وليمة يدعو إليها إخوانه وأقاربه حتى يشاركوه مسرته، والحب في الله من أركان الايمان. وآية ذلك في صلة المسلم بأخيه أن يجيب دعوته، تأكيداً لعلاقة أخوته. وبرهانا عمليا على انه يجب له ما يحب لنفسه، فان رفض الاجابة بلا عذر، أوغر صدره، وعرض صلته للوهن، وأثار الارتباب في أمره وربما سبب ذلك العداة والخصومة.

وحفاظا على وحدة المجتمع المسلم، وتوثيقا لروابط أخوته ودعما لكيانه، كان من حق المسلم على أخيه أن يجيب دعوته «إذا دعى أحدكم الى وليمة فليأتها».

وقد يسوغ له ترك إجابة الدعوة لأعذار تستوجب ذلك كالدعوة التي يدعى إليها الأغنياء وحدهم، وهو صنيع أكثر الناس اليوم - أو التي يكون في طعام وليمتها شبهة، أو التي تؤدي إلى منكر وفساد كسرب الخمر ورقص الغانيات، والخلوة بالاجنبيات. وسائر ضروب الشر الأخرى، فهذا ونظائره منكر تجب محاربه، فكيف تجاب له دعوة؟

٦ - تشميت العاطس - تشميت العاطس: هو الدعاء له بالخير والبركة. كأنه يسأل الله له أن يجنبه ما يدعو الى الشماتة. والعطاس يخرج الأبخرة المحتقنة في الدماغ. ولو بقيت لحدثت ضررا به، فيكون العطاس نعمة تستدعي الحمد، والصيغة الثابتة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله. فاذا قال: يرحمك الله فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم»^١ وما لم يحمد العاطس الله فلا تشميت له. ولما كان الحمد طاعة لله كان من موجبات الرحمة. فدعا له بها المشمت، فيكافؤه العاطس بطلب الهداية له وإصلاح الحال. وتشميت العاطس من حق المسلم على المسلم.

٢ - رواه البخاري

١ - رواه مسلم.

٧ - النصيحة - النصيحة كلمة جامعة تعني حيازة الحظ للمنصوح له . وهي من حق المسلم على أخيه ، يؤديها المرء لائمة المسلمين وعامتهم .
يؤديها لائمة المسلمين وأولي الأمر من الملوك والأمراء ، والوزراء والرؤساء ،
والعلماء والمديرين ، إعانة لهم على الحق ، وتذكيرا بجوائح الناس ، وحفزا لهمتهم
حتى يقيموا دين الله ويعملوا على نشره .

ويؤديها لعامة المسلمين ، أمرا لهم بالمعروف ، ونهيا عن المنكر ، وإرشادا الى
مصالحهم في دنياهم وأخراهم .

وفي تلك الحقوق يقول صلى الله عليه وسلم : « حق المسلم على المسلم خمس :
رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت
العاطس » وفي رواية لمسلم « حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه .
وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا
مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » .

٨ - تفريج كربته - يلم بالانسان من نوائب الحياة ما قدر عليه ، في
صحته وماله وولده . فيحتاج الى عون يخفف عنه وطأة البلاء محتسبا الأجر عند
الله . والاسلام يجعل هذا من حقوق التآخي فيه . فمن أصابته متربة بذل له أخوه من
ماله . ومن اجتاحت ثمره جائحة قدمت اليه المعونة ، ومن انتابه مرض وجد من يعالجه
أو يحضر له طبيبا ، وبهذا ونحوه يصير وقع النازلة خفيفا . وقد ضمن الله لفاعل ذلك
ان يرفع عنه يوم القيامة كربته « ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من
كرب يوم القيامة »^٢ .

٩ - ستر زلته إذا حقق هذا مصلحة ، ولم يكن فيه مضرة - إن الجريمة
إذا كان في الاخبار بها مصلحة للمسلمين أو دفع مضرة عنهم وجب ابلاغ من يملك
التأديب عنها . ولا يجوز التشهير بها بين الناس . وإن كان في الاخبار مجرد الفضيحة

١ - متفق عليه

٢ - متفق عليه

ولا مصلحة وراء ذلك كان الستر أولى . وبخاصة على الذين لم يعرفوا بالفساد ، والستر في مثل هذا مع النصيحة الخالصة قد يعين على الاصلاح ، ويحمل على الاستقامة «ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»^١ .

١٠ - حق الضيافة - إكرام الضيف من حقوق المسلم حيث ينزل المرء على أخيه ، فيحتاج الى أنسه ويتطلع إلى بره ، فينبغي أن يحسن استقباله ، فيهش في وجهه ويبش ، ويظهر له السرور بحضوره ، ويقدم له خير ما عنده من الطعام والشراب ، وبهيء له وسائل الراحة في جلوسه ونومه ، ثم يودعه كما استقبله بمعاني الود والاخاء . والضيافة ثلاثة أيام وما زاد عليها فهو فضل من المضيف .

١١ - حق الجوار : - ومن حقوق المسلم على أخيه حق الجوار ، بأن يتجنب ما يؤذي جاره ، فلا يلقي قمامته جهة بيته ، ولا يقلق راحته إن سكن فوقه ، ولا يحدث ضجيجا يؤرقه في نومه ، وأن يقدم له ما يستطيع من ضروب الخير ، يعطيه اذا احتاج ، ويكون أمينا على سره ، ويسارع الى نجده ، ويتودد اليه بالهدايا ، ويحرص على مصالحه حرصه على مصالح نفسه ، ولا يؤذي أولاده بإظهار ما لدى أولاده من لعب الاطفال وقطع الحلوى ونحو ذلك . وفي الحديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»^٢ .

١٢ - النصر : - النصر في الحق من أمارات المروءة ، لدفع البغي ورد العدوان ، وحمل الناس على الاستقامة ، وردع القوى عن ظلمه ، وإنصاف المظلوم وإرجاع حقه ، ومن حق المسلم على المسلم أن ينصر أخاه ظلما او مظلوما . ينصره مظلوما فيمنع عنه الظلم ، ويرفع الحيف ويسعى جاهدا لارعواء الظالم ويسلك في ذلك شتى الوسائل . بالنصح ان كان الكلام مجديا ، أو القضاء ان تعين سبيلا لاسترداد الحق المسلوب ، أو القوة التي لا تؤدي الى ضرر أشد .

١ - من حديث متفق عليه .

٢ - أخرجه الشيخان وابن ماجه

وينصره ظلماً، ولا يكون نصر الظالم بمساندته، والتشيع له بالحق وبالباطل كما يفعل أولوا العصبية، فهذا ظلم فوق ظلم، ولكن نصر الظالم يكون بمنعه من الظلم، والأخذ على يده، وكبح جماح غضبه، وبالنصح تارة، ورفع أمره إلى ذوي السلطة أخرى، وذلك نصر له حتى لا يستمرى البغي، فيعرض نفسه للسمعة السيئة والعقوبة القضائية في الدنيا، ويعرضها لعقوبة الله في الحياة الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ فقال: تأخذ فوق يديه».

سادسا: من أعلام الإسلام

أ - مصعب بن عمير رضي الله عنه

تصوغ العقيدة الإسلامية رجالها في نموذج من يرى الناس في سيرتهم مرآة صادقة عن الإسلام، تعبر عن عمق الإيمان، وعظيم البلاء فيه. والتضحية في سبيله بالنفس والمال.

ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار احد هذه النماذج المعبرة في جلاء ووضوح.
إسلامه: -

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته سرا، والمشركون يتربصون به الدوائر، واتخذ من دار الأرقم بن أبي الأرقم ملتقى يلتقي فيه مع صحابته ومع الراغبين في الإسلام، فهي الندي المتواضع الذي يظله جلال الوحي وروعة الرسالة، ولم يكن يأتي أول الأمر إلى دار الأرقم راغب في الإسلام إلا مستخفيا يخشى على نفسه عدوان المشركين، ويخشى على نفسه تعنت الأقربين من أهله ونبذهم له، وكان مصعب بن عمير في مقدمة هؤلاء الرواد الذين أتوا إلى دار الأرقم، فأسلم سرا، وكنتم إسلامه خوفا من أمه وقومه، ولم يلبث طويلا حتى تسرب خبره. علم عثمان بن طلحة بإسلام مصعب فسارع إلى الوشابة به، نكاية فيه، وصدا عن سبيل الله، وأتى أهله فأثار حفيظتهم، وأخبرهم بالأمر محرضا عليه، حتى شاط بهم الغضب^١. فأوثقوه وحبسوه، وانبوا وبالغوا في تعنيفهم له، فتقبل هذا صابرا محتسبا، وظل يفكر في حيلة للخلاص من محبسه حتى اهتدى إلى سبيل

١ - شاط به الغضب: اشتعل.

للفرار، فهرب ناجيا بنفسه، وتوارى عن أنظار قومه حتى هاجر مع من هاجر إلى الحبشة^١.

حياته في سبيل الدعوة :-

الجمال والزينة بهجة الحياة الدنيا، وكم يعيش أناس لذلك. وقليل هؤلاء النفر الذين يؤثرون شظف العيش في سبيل العقيدة استعلاء بالإيمان على جاذبية النعمة والترف. فيعيشون لدينهم، ولقد كان مصعب بن عمير أنضر شباب مكة جمالا ونعمة، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال. تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه. وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره ويقول: «ما رأيت بمكة أحدا أحسن لمة^٢، ولا أرق خلّة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير» ولكنه بعد أن أسلم سرا، وبصر به عثمان بن طلحة يصلي فأخبر أمه، وكان حبسه، وكانت هجرته - تغير حاله، وعاش على الكفاف، أقبل ذات يوم والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه وقد ارتدى ثوبا موصولا بإهاب^٣. فبكى للذي كان فيه من النعمة، ولما صار إليه، وقال: الحمد لله، يُقلّب الدنيا بأهلها، لقد رأيت هذا - يعني مصعبا - وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيما منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير من حب الله ورسوله ولذا كان يقال له مصعب الخير^٤.

وعاش مصعب بن عمير مقلا زاهدا حتى لقي ربه. وفي الصحيح: «أن مصعب ابن عمير لم يترك إلا ثوبا، فكان إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا رجله خرج رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعلوا على رجله شيئا من الإذخر»^٥.

٢ - اللّمة: الشعر المجاوز تحمة الأذن.

٤ - طبقات ابن سعد ص ٨٢ ج ٣.

١ - الإصابة ج ٣: ٨٠٠٤

٣ - الإهاب: الجلد.

٥ - الإذخر: حشيش طيب الرائحة.

أول داعية بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم :-

ويعتبر مصعب أول داعية إلى الإسلام نفر ليفقه الناس ويعلمهم، ذكر أهل السير أنه لما انصرف أهل العقبة الأولى الاثنا عشر، وفشا الإسلام في دور الأنصار، أرسلت الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبت إليه كتاباً: ابعث إلينا رجلاً يفقهنا في الدين ويقرئنا القرآن، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير، فقدم، فنزل على سعد بن زرارة، وكان يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم، فیدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، فيسلم الرجل والرجلان، حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار، وأسلم أشرفهم، وكان يدعى بالمقرى.

ثم خرج مصعب بن عمير من المدينة مع السبعين الذين وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى في العقبة الثانية من الأوس والخزرج، فقدم مكة، فجاء منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً، ولم يقرب منزله، فجعل يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأنصار وتسابقهم إلى الإسلام، فسر رسول الله بما أخبره به مصعب.

وبلغ أمه أنه قد قدم فأرسلت إليه. واشتدت في لومها، وقالت له: أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأني؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من جمع في الإسلام جمعة :-

ومصعب أول من صلى بالناس جمعة، كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة، يستأذنه أن يجمع بالأنصار الذين أسلموا. فأذن له، وكتب إليه: أنظر من اليوم الذي يجهر فيه اليهود لسبتهم، فإذا زالت الشمس فزدلف إلى الله فيه بركعتين، واخطب فيهم، فتجمع بهم مصعب بن عمير في دار سعد بن خيثمة، وهم اثنا عشر رجلاً. قال ابن شهاب: فكان أول من جمع الجمعة بالمدينة بالمسلمين قبل أن يقدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بلاؤه واستشهاده يوم أحد:

حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب .
فأقبل ابن قبيصة من صفوف المشركين، وكان فارسا مغوارا، فضرب يده اليمنى
فقطعها. ومصعب يقول: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) وأخذ
اللواء بيده الأخرى، وحنا عليه، فضرب يده اليسرى فقطعها، فحنا على اللواء
وضمه بعضديه إلى صدره، وهو يقول: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله
الرسل) ثم حمل عليه بالرمح، فأنفذه، واندق الرمح، ووقع مصعب مضرجا في دمه
قتيلا شهيدا، فلما انتهت المعركة وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على
مصعب وهو منجفع على وجهه^١. فقرأ هذه الآية:

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا ۗ ﴾^٢

وهكذا سقط مصعب رضي الله عنه شهيدا وهو ابن أربعين سنة في ريعان شبابه

وفتوته^٣.

١ - منجفع: صريع منكفيء على وجهه، وجعفه كمنعه: صرعه.

٢ - الآية (٢٣) من سورة الأحزاب.

٣ - ريعان الشيء: أوله وأفضله.

ب: عبد الله بن المبارك:

١١٨ - ١٨١ هـ

٧٣٦ - ٧٩٧ م

قد يعلو نسب الإنسان فيبطيء به عمله، وقد يرفعه عمله فيصل إلى الذروة. والمعدن النظيف يصقله الإيمان، فتجد فيه حلية تطوق هام المجد والرفعة. وعبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن المروزي مولى بني حنظلة أحد هؤلاء الأعلام الذين علا بهم علمهم، وكستهم التقوى حلة من الوقار، وأغناهم زهدهم عما في أيدي الناس، كانت أمه خوارزمية، وكان أبوه عبدا تركيا لرجل من التجار من همدان من بني حنظلة.

علمه:

أخذ ابن المبارك العلم عن العلماء الأثبات، وفي مقدمتهم: سليمان الأعمش، وهشام بن عروة، وابن جريج، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وشعبة، والأوزاعي، والليث بن سعد، فهل من معين ثراً، لعلوم الشريعة الإسلامية وعمل، وشرب من كأس المعرفة حتى الثمالة. فاجتمع له الحديث والفقہ، والعربية، والتاريخ، وأضفى على هذه العلوم من سخائه وأدبه ومحبة الناس له ما زاد علمه فضلا وشرفا.

أتى ابن المبارك حماد بن زيد في أول الأمر، فنظر إليه وأعجبه حديثه، وقال له: من أين أنت؟ قال: من أهل خراسان، قال: من أي خراسان؟ قال: من مرو،

١ - الهامة: رأس كل شيء، جمعه هام، وهامات

٢ - انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ص ١٥٢ ج ١٠

٣ - ثرت العين: غزر ماؤها، فهي ثرة، وهو ثر، والنهل: الشرب الأول والعلل: الشرب الثاني

٤ - الثمالة: ما بقي في الاناء من شراب.

قال : أتعرف رجلا يقال له : عبد الله بن المبارك ؟ قال : نعم ، قال : ما فعل ؟ قال : هو الذي تخاطب ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأكرم وفادته .

ولا يتخلى ابن المبارك عن أدب الحديث في أداء النصيحة ، وتعليم الناس ، عطس رجل عنده يوما فقال له : ماذا يقول الرجل اذا عطس ! قال : يقول : الحمد لله ، فقال له ابن المبارك : يرحمكم الله ..

كان يلقب بأمير المؤمنين في الحديث ، وإليه يلجأ العلماء في معضلات الحديث والفقه ، يغشاه الناس إذا رأوه ليسألوه ، فيحيطون به في كوكبة يعز مثلها لدى الأمراء . قدم أمير المؤمنين هارون الرشيد الرقة^١ ، فأنجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك^٢ ، وارتفعت الغيرة ، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج القصر ، فلما رأت الناس قالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان ، قدم الرقة ، يقال له : عبد الله بن المبارك ، فقالت : هذا والله الملك ، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعموان .

وأخذ العلم عن ابن المبارك أساطين العلماء الأفاضل^٣ . ومنهم : سفيان بن عيينة ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرزاق بن همام ، وغيرهم .

وبلغت كتبه التي حدثت بها عشرين ألفا ، حفظها ووعاها ، حتى قال له أبوه يوما : لئن وجدت كتبك لأحرقنَّها ، فقال له : وما علي من ذلك وهي في صدري ؟ . سخاؤه :

حين ترفع النفس عن الدنيا وزينتها تنساب جودا وسخاء ، لا تخشى من ذي العرش إقلالا ، وما كان ابن المبارك لتعلق نفسه بعرض من أعراض الدنيا ، فقد زهد فيها ، وجاء بما يملك برا وكرما .

٢ - انجفل القوم : نفرُوا مسرعين

١ - الرقة : غرب بغداد على الفرات

٣ - أساطين العلماء : أعمدته وحكماؤه جمع أسطوانة ، والكلمة معرّبة

جاء رجل إليه فسأله أن يقضي ديناً عليه ، فكتب له إلى وكيل له ، فلما ورد عليه الكتاب ، قال له الوكيل : كم الدين الذي سألت فيه عبد الله أن يقضيه عنك ؟ قال : سبعمائة درهم ، فكتب إلى عبد الله : إن هذا الرجل سألك أن تقضي عنه سبعمائة درهم ، وكتبت له سبعة آلاف درهم ، وقد فنت الغلات ، فكتب إليه عبد الله : إن كانت الغلات قد فنت فإن العمر أيضا قد فني ، فأجز له ما سبق به قلمي^١ .

شجاعته :

ان أعلام الإسلام أحرزوا قصب السبق في ميادين الحياة المتعددة ، وكانوا قدوة حسنة لأجيالهم ، علما وعملا وسلوكا وبذلا في سبيل الله . ولعبد الله بن المبارك قدم راسخة في العلم ، وفي السخاء ، وله كذلك قدم راسخة في الشجاعة والتضحية . يجود بنفسه لإعلاء كلمة الله عن صدق وإخلاص لا عن رياء وسمعة .

حدّث أبو حاتم الرازي قال : سمعت عبدة بن سليمان يقول : كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو ، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا الى البراز ، فخرج إليه رجل فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله ، فزدحم إليه الناس ، فكنت فيمن ازدحم إليه ، فإذا هو يلثم وجهه بكمه^٢ ، فأخذت بطرف كمه ، فددته ، فإذا هو : عبد الله بن المبارك^٣ . فرحم الله جنود الإسلام الأتقياء الأخفياء ، ورحم الله عبد الله بن المبارك عالما زاهدا جوادا شجاعا .

سئل ابن المبارك : من الناس ؟ قال : العلماء ، قبل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يعيشون بدينهم .

١ - تاريخ بغداد ص ١٥٩ ج ١٠

٢ - يريد ان يوارى نفسه عن أعين الناس حتى لا يعرف إخلاصا منه

٣ - حلية الأولياء ص ١٦٧ ج ٨

وروي عنه أنه قال : أحب الصالحين ولست منهم . وأبغض الطالحين وأنا شر
منهم ، ثم أنشأ يقول :

من منطلقٍ في غير حينه	الصمت أزين للفتى
في القول عندي من يمينه	والصدق أجمل بالفتى
سمة تلوح على جبينه	وعلى الفتى بوقاره
إذا نظرت الى قرينه	فن الذي يخفى عليك
غلب الشقاء على يقينه	رب امرئ متيقن
فابتاع دنياه بدينه	فأزاله عن رأيه

الامام أبو حنيفة النعمان: ٨٠-١٥٠ هـ ٦٩٩-٧٦٧ م

يطالع المرء في صفحات التاريخ الاسلامي المشرقة سيرة أعلام الهدى الذين عاشوا للاسلام، وأفنوا حياتهم لخدمة شريعته، وكانت لهم عبقرية فذة في الفقه الاسلامي، ويتصدر هؤلاء إمام أصعاب الرأي، وفقه أهل العراق: أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي، من أصل فارسي، كان جده زوطي مملوكا لبني تميم الله بن ثعلبة، فأعتق وصار ولاؤه لهم.

عصره: لقد كانت ولادة أبي حنيفة في زهرة شباب دولة بني أمية في عهد عبد الملك بن مروان، وأدرك في بداية حياته ولاية الحجاج الثقفي على العراق، وشاهد ما كان عليه من قسوة، وما اختاره لنفسه في معاملة خصوم الأمويين السياسيين من عنف وشدة. كما أدرك في شبابه خلافة الامام العادل عمر بن عبد العزيز، وعاصر ضعف الدولة الأموية. وشهد مصرعها، وامتد به الأجل الى أن نجحت الدعوة لبني العباس، ولم تدركه الوفاة الا في أيام المنصور عام ١٥٠ هـ. وقد بلغت الدولة الاسلامية في عصر أبي حنيفة أوج عظمتها، وامتد سلطانها من المحيط الاطلسي غربا إلى الصين شرقا. واستولت على جزء غير قليل من أوروبا بفتح الاندلس. وهي تضم تحت لوائها شتاتا من الأجناس المختلفة التي دخلت في الاسلام بعد فتح بلادها. فكان منهم الفارسي والرومي والتركي والهندي والمصري. وبتوسع رقعة الدولة وتباعد أقاليمها واختلاف أجناس أبنائها وتعدد ثقافتهم تزداد مطالبها، وتحتاج الى أسس وطيدة شاملة تبني عليها قواعد السلطة، وتقيم دعائم الحكم. وتحدد علاقاتها في السلم والحرب، وهذا كله يحتاج الى جهد علمي من الفقهاء لاستنباط الاحكام وسد حاجات البلاد في الفتيا والقضاء.

وقد بدأ تدوين العلم في عصر أبي حنيفة، وظهرت حركة الترجمة، فسرى

١ - راجع: تاريخ بغداد ص ٣٢٣-٤٢٣ ج ١٣، وكتاب «أبو حنيفة، للشيخ محمد ابو زهرة».

التفكير اليوناني مع مزيج من التفكير الفارسي الى البلاد الاسلامية، وتفاعل هذا التفكير بمنهجه العقلي مع المنهج النقلي لدى المسلمين، فأثر هذا في التفكير الاسلامي، وأخذ البحث الفقهي يتجه نحو الكشف عن العلل في الأحكام الشرعية، ويفرض المسائل ويستعمل القياس، حيث لا يجد نصاً في كتاب أو سنة. وإذا عرفنا ان العراق كانت أهم مركز للنشاط العلمي ورث الحضارات القديمة، وانسابت اليه فلسفتها وعلومها، واتخذها العباسيون عاصمة لهم فازدهرت فيه الحركة العلمية، وعرفنا إزاء هذا أن العراق كان مهد مدرسة أهل الرأي وكبار شيوخها، أمثال علقمة بن قيس النخعي، وابراهيم بن زيد النخعي، وحماد بن أبي سليمان الأشعري، إذا عرفنا هذا كله وأن حياة أبي حنيفة كانت في العراق فاننا ندرك أنه استمد من هذه العوامل كلها منهج تفكيره.

علمه وفقهه: نشأ أبو حنيفة تاجراً يتجر في الخبز بالكوفة، وهي آنذاك زاخرة بالعلماء والفقهاء، فما لبث أبو حنيفة حتى مال إلى مجالسهم والأخذ عنهم، وأقبل على الفقه بعد أن الم بطرف من العلوم الاسلامية، وما زال ينهل من معينه حتى صار إمام أهل الرأي.

هذا القول هو لذي جهد يستند

وأخذ أبو حنيفة من قوله صلى الله عليه وسلم «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» نبراساً له في استنباط الأحكام الفقهية، فإنه إذا اجتهد فأصاب كان له أجر الاجتهاد وأجر الاصابة، وإن أخطأ كان له أجر اجتهاده. فقد عرف أبو حنيفة بكثرة اجتهاده وأخذه بالقياس. وتأثر في ذلك بشيوخه الذين اخذ عنهم، فكان شيخه حماد بن أبي سليمان الذي انتهت اليه في عصره رياسة الفقه في العراق بمدرسة أهل الرأي.

ولا يعني هذا أن أبا حنيفة لم يأخذ العلم عن أحد سوى حماد، فقد أخذ عن

١ - انظر مذكرات «تاريخ التشريع والفقه الاسلامي» للمؤلف

٢ - رواه أحمد والبخاري ومسلم بألفاظ متقاربة مع وحدة المعنى

[عبد الله بن زيد بن عاصم]

عطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى عبد الله بن عباس، ونافع مولى ابن عمر، وأخذ عن المبرزين في الفقه من أئمة الشيعة، كالامام زيد بن علي والامام جعفر الصادق. روي أن أبا حنيفة دخل يوماً على المنصور وعنده عيسى بن موسى، فقال للمنصور: هذا عالم الدنيا اليوم، فقال له: يا نعمان: عن أخذت العلم؟ قال: عن أصحاب عمر عن عمر، وعن أصحاب علي عن علي، وعن أصحاب عبد الله ابن عباس، فقال له الخليفة: استوثقت لنفسك.

وتطلع أبو حنيفة في حياة شيخه حماد أن يجلس محدثاً في المسجد مجلس الرياسة، وواتته الفرصة ليخلفه فترة من الزمن، فجلس مجلس شيخه، وعرضت عليه مسائل قرابة ستين، وأجاب عنها، وكتب أجوبتها. فلما عاد حماد بن أبي سليمان عرض إجابتها عليه، قال أبو حنيفة: فوافقني في أربعين، وخالفني في عشرين، فأليت على نفسي ألا أفارقه حتى يموت، فلم أفارقه حتى مات.

وما كاد شيخه حماد يموت سنة (١١٩) هـ حتى رأى تلاميذه من أصحاب أبي حنيفة أنه وحده هو الذي يستحق أن يجلس مكان شيخه.

وكان أبو حنيفة قوي الحجّة، عذب المنطق، ساطع البرهان. قيل لمالك بن أنس: هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته.

وشهد له جهابذة العلم بمجودة الفقه. سئل يزيد بن هارون أيما أفقه، أبو حنيفة أو سفيان؟ قال: سفيان أحفظ للحديث، وأبو حنيفة أفقه. وقال الشافعي: الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه.

وقال يحيى بن معين: القراءة عندي قراءة حمزة، والفقه فقه أبي حنيفة، على هذا أدركت الناس.

وله المعية نادرة، وذهن وقاد، وفطنة تسبر اغوار المسائل، وتلطف في الجواب.

١ - الجهادة: جمع جهيد، والجهيد بالكسر: النقاد الخبير

«يوزع مجاناً ولا يباع»

قصه تدل على حجة فقهية

دخول الخوارج يوما مسجد الكوفة، وابو حنيفة واصحابه جلوس، فقال ابو حنيفة لاصحابه: لا تبرحوا، فجاءوا ووقفوا عليهم، فقالوا لهم: ما انتم؟ فقال ابو حنيفة: نحن مستجيرون، فقال امير الخوارج: دعوهم وابلغوهم ما منهم. ودعا المنصور ابا حنيفة، فقال الربيع حاجب المنصور - وكان يعادي ابا حنيفة - يا امير المؤمنين، هذا ابو حنيفة يخالف جدك كان عبد الله بن عباس يقول: اذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم او بيومين جاز الاستثناء^٢، وقال ابو حنيفة لا يجوز الاستثناء الا متصلا باليمين، فقال ابو حنيفة: يا امير المؤمنين: ان الربيع يزعم انه ليس لك في رقاب جندك بيعة، قال: وكيف؟ قال: يحلفون لك ثم يرجعون الى منازلهم فيستثنون فتبطل ايمانهم، قال: فضحك المنصور، وقال: يا ربيع، لا تتعرض لأبي حنيفة. فلما خرج ابو حنيفة قال له الربيع: اردت ان تشيط بدمي؟ اي تذهب به - قال: لا، ولكنك اردت ان تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي. وحلف رجل ليقربن امرأته في رمضان، ثم سأل ابا حنيفة، فأفتاه ان يسافر بها فيقربها نهارا في رمضان.

وحلف رجل - وقد رأى امرأته على السلم - فقال: انت طالق ثلاثا ان صعدت، وطالق ثلاثا ان نزلت، ثم سأل ابا حنيفة فأفتاه ان تقف المرأة على السلم ولا تصعد ولا تنزل، ويحتمل جماعة يحملون السلم بالمرأة فيضعونه على الأرض.

جراته في الحق ومحنته في القضاء: -

كان ابو حنيفة جريئا في الحق، شأن علماء عصره، يتورع عن الجاه والمنصب، ومن ذلك امتناعه عن القضاء، حتى اصابه من جراء ذلك البلاء. وقد قال صلى الله

١ - الخوارج: فرقة خرجت على علي رضي عنه وصحبه ويقولون بكفر علي ومعاوية.

٢ - الاستثناء في اليمين، أن يحلف على الشيء ويقول: إن شاء الله، وهذا يمنع من انعقاد اليمين فلا يحث إذا كان متصلا اتفاقا واختلفوا فيما إذا تأخر.

عليه وسلم: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق ففضى به، ورجل عرف الحق وجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»^١. ولذا اصر ابو حنيفة على ان لا يتولى القضاء.

اراد منه عامل مروان على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، ان يلي له قضاء الكوفة، فأبى، فضربه مائة وعشرة اسواط، في كل يوم عشرة، وهو على الامتناع، فلما رأى تصميمه على الرفض خلى سبيله.

وكان بلاؤه في دولة العباسيين كبلائه في دولة الامويين.

أشخصه الخليفة ابو جعفر المنصور من الكوفة الى بغداداً، واراده على ان يلي القضاء فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف ابو حنيفة ان لا يفعل فقال له حاجب الخليفة: الا ترى امير المؤمنين يحلف؟ فقال ابو حنيفة: امير المؤمنين على كفارة أيمانه اقدر مني على كفارة أيماني، وابي ان يلي القضاء. فأمر به الى الحبس. ودعا به ابو جعفر يوماً من الحبس، فقال له: اترغب عما نحن فيه؟ قال: اصلح الله امير المؤمنين، لا اصلح للقضاء، فقال له: كذبت، ثم عرض عليه الثانية، فقال ابو حنيفة: قد حكم عليّ امير المؤمنين اني لا اصلح للقضاء، لانه ينسبني الى الكذب، فان كنت كاذباً فلا اصلح، وان كنت صادقاً فقد اخبرت امير المؤمنين اني لا اصلح، فرده الى الحبس.

تقواه وورعه:

قد يكون لدى الانسان مواهب علمية، في قوة الذاكرة والمعية الذهن، وحدة الفهم، ونصاعة البيان، ولكن اثره العلمي في نفوس الناس وحياة مجتمعه لا يعدو ان يكون سجلاً محفوظاً، فإذا ازدانت مواهبه العلمية بالسلوك المستقيم كانت القدوة الصالحة علماً وعملاً، ورأى الناس فيه مورداً عذباً يرده الظمان فيصدر عنه طيب

١ - رواه ابن ماجه وأبو داود.

٢ - أشخصه: أزعجه في الحضور بشخصه

النفس بما اصابه من ري وهداية . و ابو حنيفة العالم الفقيه كان تقيا ورعا ، يحيي الليل صلاة ودعاء وتضرعا ، ويجمع القرآن احيانا في ركعتين ، ويختمه في شهر رمضان ستين ختمة ، قال يحيى بن سعيد القطان : جالسنا والله ابا حنيفة ، وسمعنا منه ، وكنت والله اذا نظرت اليه عرفت في وجهه انه يتقي الله عز وجل ، وعن زائدة قال : صليت مع ابي حنيفة في مسجده عشاء الآخرة ، وخرج الناس ولم يعلم اني في المسجد ، و اردت ان اسأله عن مسألة من حيث لا يراني احد فقام فقرا وقد افتتح الصلاة حتى بلغ الى هذه الآية ﴿ فَرَأَى اللَّهُ عَيْنًا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ (٢٧) . فأقمت في المسجد انتظر فراغه . فلم يزل يرددها حتى اذن المؤذن لصلاة الفجر .
 وبلغ من خوفه الله تعالى انه قام ليلة بهذه الآية :

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ ﴾ (٤١) ﴿١﴾ . يرددها ويكي ويتضرع جوده وكرمه : واذا استقر الايمان في سويداء القلب ، تطهرت النفس من الشح ، ووثقت فيما يخلفه الله عليها ، ﴿ وَمَنْ يُوَقِّشْ نَفْسَهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٩) ﴿٢﴾ . وكان ابو حنيفة غنيا سخيا ، يفيض بره على من يرى من ذوي الحاجة ، فيغمرهم بفضله ، رأى يوما على بعض جلسائه ثيابا رثة ، فأمره فجلس حتى تفرق الناس وبقي وحده ، فقال له : ارفع المصلى وخذ ما تحته ، فرفع الرجل المصلى فكان تحته الف درهم ، فقال له : خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك ، فقال الرجل : اني موسر وانا في نعمة ، ولست احتاج اليها ، فقال له : اما بلغك الحديث « ان الله يحب ان يرى اثر نعمته على عبده » ؟ فينبغي لك ان تغير حالك حتى لا يغم بك صديقك .

وأنته امرأة تطلب منه ثوب خز ، فأخرج لها ثوبا ، فقالت له : اني امرأة ضعيفة ، وانها امانة فبيني هذا الثوب بما يقوم عليك ، فقال : خذيه بأربعة دراهم ، فقالت : لا تسخر بي وانا عجوز كبيرة ، فقال : اني اشتريت ثوبين ، فبعت احدهما برأس المال

٢ - الآية (٤٦) من سورة القمر .

٤ - رثة : بالية

١ - الآية (٢٧) من سورة الطور .

٣ - الآية (٩) من سورة الحشر .

د - الامام مالك بن أنس ٩٣ - ١٧٩ هـ - ٧١٢ - ٧٩٥ م

حيثما نظر المسلم في صدر الاسلام بأنحاء دولته وجد علما من أعلام الفقه الإسلامي، رهن حياته للعلم، وعكف على مصادر الشريعة الإسلامية، يستقي من معينها، ويجتهد في فهمها، ويؤدي أمانة العلماء تدريسا وبلاغا. وأحد هؤلاء الأئمة الأعلام إمام دار الهجرة: مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي من قبيلة ذي أصبح اليمنية، فهو عربي الأصل، وكان بين جد مالك وبني تميم حلف، حيث قدم إلى المدينة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بدر، وسكنها، وشهد المغازي كلها خلا بدرا، وارتبط ببني تميم بالمصاهرة، ثم ارتبط بهم بعد ذلك برابطة الحلف والتناصر.

عصره: يشبه عصر مالك عصر أبي حنيفة إلا أنه أدرك من الدولة العباسية حظا أوفر، فقد كانت ولادته في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي، وكانت وفاته في عهد الرشيد العباسي، فعاصر دولة بني مروان في عنفوان شبابها، وشاهد تداعي الدولة الأموية وقيام دولة بني العباس على أنقاضها، وأدرك الحضارة العباسية في أوج عظمتها، وقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية من الأندلس غربا إلى السند شرقا، بمدنها العامرة الزاهرة بالحركة العلمية والنشاط التجاري والنهضة الزراعية والصناعية، ولهذا أثره الكبير في حيوية الفقه الإسلامي وازدهاره، لتفاعل الحضارات المختلفة من أجناس متباينة الأرومة صهرها الإسلام في بوتقته، فكثرت الأحداث وتفرعت المسائل، واستنبط العلماء لكل مسألة حكما.

والمدينة وهي دار الهجرة التي أقام بها مالك، كانت تستقبل العديد من وفود المسلمين الذين يقدمون لزيارة مسجدها من حين لآخر.

واتسم عصر مالك كذلك بالحركة الفكرية التي نجمت من اتصال الفكر

١ - انظر: الإمام مالك للشيخ محمد أبو زهرة، والديباج المذهب لابن فرحون ومذكراتنا في تاريخ التشريع والفقه الإسلامي.

أثر المدرسة على الناس

الاسلامي بالفلسفة اليونانية والفارسية والهندية إثر حركة الترجمة على النحو الذي بسطناه في الحديث عن عصر أبي حنيفة. لكن أبا حنيفة كان بالعراق، موطن احتدام الصراع الفكري، أما مالك فقد عاش بالمدينة بمنأى عن المنازعات الفكرية، إذ لم يرج في سوق المدينة مذاهبها، بل راج فيها علم الكتاب والسنة.

وفي المدينة كانت المدرسة الفقهية الاولى المعروفة بمدرسة الفقهاء السبعة، وعلى يد تلاميذ هذه المدرسة تلقى مالك العلم. وهم يؤثرون الرواية، ويرون فيها عصمة من الفتن، ولا يأخذون بالرأي الا اضطرارا، أما شيوخ أبي حنيفة، فهم من مدرسة أهل الرأي في العراق الذين يفرضون مسائل غير واقعة، ويضعون لها أحكاما باستنباطهم.

وقد استطاع مالك في جو المدينة الهادي أن يصون نفسه عن موجة أهل الأهواء العارمة التي كادت تشغل أذهان المسلمين عن حقيقة الدين، كالشيعة والخوارج والقدرية والجهمية والمرجئة.

حياته العلمية: نشأ مالك في بيت علم بمدينة علم بدار الهجرة، موئل السنة، ومرجع العلماء، وموطن الفتاوى الماثورة. فحفظ القرآن الكريم في صدر حياته، ثم اتجه الى حفظ الحديث، وجالس العلماء ناشئا صغيرا، ولازم أحد هؤلاء العلماء في عصره، وهو عبد الرحمن بن هرمز، يروى عنه أنه قال: كان لي أخ في سن ابن شهاب، فألقى أبي يوما علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت. فقال لي أبي: أهلك الحماؤم عن طلب العلم، ففضبت، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين، لم أخلطه بغيره. وكنت أجعل في كمي تمرا، وأناوله صبيانه، وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول.

١ - الفقهاء السبعة هم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، وسليمان بن يسار. وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، نظمهم القائل: إذا قيل من في العلم سبعة أبحر فقل: هم عبيد الله، عروة، قاسم

روايتهم ليست عن العلم خارجة سعيد، ابو بكر، سليمان، خارجة

وقال ابن هرمز يوما لجارسته : من بالباب ؟ فلم تر الا مالكا ، فرجعت وقالت :

ما ثم الا ذاك الاشقر ؟ فقال : ادعيه فذاك عالم الناس .

وأخذ مالك عن ابن شهاب الزهري بعد أن نال قسطا كبيرا من العلم ، وصار

ضابطا حافظا ، كما اخذ الفقه عن ربيعة بن عبد الرحمن المعروف بريعة الرأي .

وأخذ عن يحيى بن سعيد الأنصاري من بني النجار قاضي المدينة الذي أخذ عن

الفهاء السبعة وكان حجة في الفقه .

وروى عنه الأوزاعي ويحيى بن سعيد القطان وغيرها .

ومنح الله مالكا حافظه قوية ، وذاكرة واعية ، روي عنه أنه قال : قدم علينا

الزهري فاتيناه ومعنا ربيعة . فحدثنا نيفا وأربعين حديثا ثم أتيناها في الغد ، فقال :

أنظروا كتابا حتى احدثكم ، رأيتم ما حدثكم به أمس ، قال له ربيعة : ههنا من

يرد عليك ما حدثت به أمس ، قال : ومن هو ؟ قال : ابن أبي عامر ، قال : هات ،

فحدثته بأربعين حديثا منها ، فقال الزهري : ما كنت أرى أنه بقي أحد يحفظ هذا

غيري .

منزلته العلمية : اتممت لمالك دراسة الحديث والأثر والفقه ، فعلت منزلته بين

العلماء ، وأمه الناس يستفتونه من كل صوب ، بعد أن استوثق لنفسه ، ففاق أقرانه ،

وعز بين أترابه ولداته . يقول مالك : قل رجل كنت أتعلم منه ما مات حتى يجيئني

ويستفتيني ، وقال ابن وهب : سمعت مناديا ينادي بالمدينة : ألا لا يفتي الناس إلا مالك

بن أنس . ومن هنا ندرك المثل القائل : لا يفتى ومالك بالمدينة .

وشهد له أئمة اهل العلم بالفضل والسبق ، تثبتا في الرواية ، وفقها للكتاب

والسنة : قال الشافعي : قال لي محمد بن الحسن ، وهو من أصحاب أبي حنيفة أيهما

أعلم ؟ صاحبنا أم صاحبكم ؟ يعني أبا حنيفة ومالكا رضي الله عنهما ، قال : قلت :

١ - النيف بوزن الهين ، ويخفف : الزيادة ، يقال : مائة ونيف ، وعشرة ونيف . وكل ما زاد على العقد فهو نيف حتى يبلغ

العقد الثاني .

علي الانصاف؟ قال: نعم، قلت: ناشدتك الله من أعلم بالقرآن صاحبنا أم صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم، قال: قلت: ناشدتك الله من أعلم بالسنة صاحبنا أم صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم، قال: قلت: ناشدتك الله من أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المتقدمين صاحبنا أم صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم، قال الشافعي: فلم يبق إلا القياس، والقياس لا يكون إلا على هذه الاشياء، فعلى أي شيء نقيس؟^١

واتفق العلماء على أن مالكا كان إماما في الحديث، وأن روايته موثوق بها، وقال أبو داود: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، ومن العلماء من يسمي هذا السند سلسلة الذهب.

ولم يجلس الامام مالك للدرس والافتاء بالمسجد النبوي حتى شهد له سبعون من العلماء أنه أهل لذلك^٢ وقال عبد الرحمن بن مهدي: أئمة الحديث الذين يقتدى بهم اربعة: سفيان الثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، والاوزاعي بالشام، وحماد بن زيد بالبصرة، ووازن بين الثوري والاوزاعي فقال: الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة. والاوزاعي إمام في السنة وليس بإمام في الحديث، ومالك إمام فيهما. والامام مالك أول من عرف بالتدوين والتأليف في الاسلام. وكتابه «الموطأ» أقدم مؤلف معروف. وهو كتاب حديث وسنة وفقه. ومنهجه في تدوينه أن يذكر الأحاديث في الموضوع الفقهي الذي أجتهد فيه، ثم يذكر عمل أهل المدينة المجمع عليه، ثم يذكر رأي من التقى بهم من التابعين وأهل الفقه، ثم يذكر الرأي المشهور بالمدينة، فإن لم يكن شيء من ذلك بين يديه في المسألة اجتهد رأيه على ضوء ما يعلم من الاحاديث والفتاوى والاقضية.

سمته ووقاره وورعه: حسن السمات من أمارات النجابة، والحفاظ على الوقار من

١ - انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٤٣٩ ج ١

٢ - انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم ص ٣١٦ ج ٦

سمات النفوس الأبية، وكان الامام مالك يلبس أحسن الثياب، ويتطيب، ويقول: ما أحب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يُرى أثر نعمته عليه. قال فيه أحمد بن حنبل: كان مالك أعظم الخلق مروءة، وأكثرهم سمتا، كثير الصمت، قليل الكلام، متحفظا بلسانه، من أشد الناس مداراة للناس واستعمالا للانصاف. وكان إذا أصبح لبس ثيابه وتعمم، ولا يراه أحد من أهله ولا أصدقائه إلا كذلك. وكان من أحسن الناس خلقا مع أهله وولده.

وعرف مالك في درسه بالوقار والسكينة، والابتعاد عن لغو الكلام، وكان يقول: حق على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية. وقال الواقدي في مجلس درسه: كان مجلسه مجلس وقار وعلم، وكان رجلا مهيبا نبیلا، ليس في مجلسه شيء من المراء واللغظ، ولا رفع الصوت، وإذا سئل عن شيء فأجاب سائله لم يقل له: من أين هذا، وكانت الوفود التي تفد إلى المدينة لزيارة المسجد تزاحم عند بابه لتستفتيه، فكان يأذن لكل جماعة بعد جماعة لكثرتهم.

ولا يدعي مالك أنه أحاط بكل شيء علما، ولم يجد الفرور العلمي إلى نفسه مدخلا، وترفع عن الفتوى فيما لا علم له به، وهذا هو العلم الذي يوثق فيه. سأل رجل مالكا عن مسألة فقال: لا أحسنها. فقال: إني قدمت اليك من كذا وكذا لاسألك - يريد من أماكن بعيدة - فقال له مالك: فإذا رجعت إلى مكانك فاخبرهم أني قد قلت لك: إني لا أحسنها. وكان إذا افتى بشيء تلا هذه الآية ﴿إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين﴾.

محنته وبلاؤه: كثيرا ما يتعرض أئمة الهدى إلى تعسف السلطان حين يتعارض هواه مع الحق، ويجد صمود الايمان حرجا عثرا في طريقه. وكان الامام مالك يحدث بحديث «ليس على مستكره طلاق» في الوقت الذي خرج فيه محمد بن عبد الله بن حسن النفس الزكية بالمدينة، وهو امام علوي، فسعى بمالك إلى جعفر بن سليمان وإلى المدينة، وهو عم أبي جعفر المنصور، وقالوا له: إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء،

فتأثر جعفر من هذه الوشاية وغضب على مالك ، ودعا به ، وجرده من ثيابه ، وضربه بالسياط ، ومدت يده حتى انخلعت كتفاه ، وارتكب منه أمرا عظيما .
وروي أنه لما ضرب حمل على بعير ، فقيل له : ناد على نفسك . فقال : ألا من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس الاصبحي . وأنا أقول : طلاق المكره ليس بشيء . فبلغ جعفر بن سليمان أنه ينادي على نفسه بذلك ، فقال : أدركوه أنزلوه .

ومن حيث يريد السلطان الجائر النكاية بأهل الحق والتنكيل بهم ، ترتفع مكاتهم ، ويتعلق الناس بهم ، ويجدون فيهم مثلا للايمان والثبات والصبر . ويقول الواقدي في مالك : فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة ، وكأنما كانت تلك السياط حليا حلي بها .

والثبات على الحق هو الذي يحطم كبرياء المتغطرسين ويجعل لأهل الايمان هيبة لا تعلوها هيبة . فقد سخط أهل المدينة على بني العباس وولاتهم لما أصاب الامام مالك ، فطلبه أبو جعفر المنصور واعتذر اليه بأنه لا علم له بذلك ، وأكرم وفادته . وهكذا تكون عزة العلماء .

السلطان نور الدين محمود زنكي: ٥١١-٥٦٩ هـ ١١١٨-١١٧٤ م

عصره: تجري سنة الله في تاريخ الأمم على نسق محكم في صعودها وهبوطها، في رفعتها وضعفها، في عزها وهوانها، فان أسباب الصعود والرفعة والعزة يأخذ بعضها بحجز بعض، استقامة وعدلا، وجهادا وبذلا، وعلى النقيض من ذلك تكون أسباب الهبوط والضعف والهوان. ومن فضل الله على أمة الاسلام أن أيام تاريخ الحوالك، حيث المحن والنكبات، لم تخل من ظهور بوارق الأمل في بطل من الأبطال تبعته حكمة الله، فيبدد غياهب الظلمة، ويمزق سحابة اليأس، فيعمل عن إيمان، ويجاهد عن عزيمة، ويصمم عن يقين، حتى يفتح الله على يديه الخير لبلاد الاسلام. ولا غرو فالامة التي تستمد كيانها من عقيدة التوحيد لا يمكن أن تعلن استسلامها. إنها تقدم أبطال العقيدة بطلا تلو بطل، يتسلم الواحد منهم راية الجهاد ليسلمها بدوره للبطل الذي سيليه، في أنحاء العالم الاسلامي الفسيح، من كل جنس ومن كل لون، سواء كانوا عربا أو أتراكا أو أكرادا، من الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر، ومن بلاد فارس وما وراء النهر وتخوم الهند والصين.

وعبر أيام الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمان في مد وجزر، وقد تمكن الصليبيون من الاستيلاء على أجزاء واسعة من بلاد الشام والجزيرة، وكانت الخلافتان: العباسية في الشرق والفاطمية في الغرب - كانتا أضعف من أن تقف في وجه هذا الزحف الفرنجي الصليبي الجديد، وكان السلاجقة قد بددوا قواهم في الصراع على السلطة - عبر تلك الأيام في أمة فقدت وحدتها ولا تجمعها قيادة واحدة ظهرت أسرة من الامراء المحليين في الجزيرة الفراتية والشام حملت عبء قتال الصليبيين، ورفعت راية الجهاد في سبيل الله، ووحدت معظم الامارات تحت سلطان واحد، فأمدتها الله بنصره، وردت الخطر الصليبي على أعقابها خاسرا. تلك هي أسرة

١ - انظر ابن الاثير ص ١٥١ ج ١١، وابن خلكان ص ٨٧ ج ٢، والنجوم الزاهرة ص ٧١ ج ٦

زنكي التي وحدث كثيرا من الامارات في جبهة اسلامية واحدة ، ولمع نجمها في حياة عماد الدين زنكي الذي مهد الطريق لولده نور الدين محمود ، ثم لصلاح الدين الايوبي من بعده .

مولده ونشأته :- ولد نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي السلجوقي مولاهم ، في السابع عشر من شهر شوال سنة إحدى وعشرة وخمسمائة من أسرة إمارة وسلطة ، وصلاح وتقوى ، وجهاد وتضحية . هي أسرة إمارات بني أرتق التي ظهرت في أقاصي شمالي الجزيرة الفراتية ، على حدود الأناضول ، عند منابع دجلة والفرات ، وحكمت ما يزيد عن ثلاثة قرون^١ ينتمي نور الدين إلى قبائل « الساب يو » التركمانية ، وكان جده « آق سنقر » مملوكا للسلطان السلجوقي « ملكيشاه بن ألب أرسلان » ، تربى معه ، ورافقه حتى صار من أعيان أمرائه ، واخص أصدقائه^٢ وولاه بعض الامارات في شمالي العراق . وخلفه ابنه « عماد الدين زنكي » والد « نور الدين » الذي اشترك في معارك ضد الصليبيين ، فأظهر شجاعة فائقة ، ومقدرة عظيمة على القتال ، أكسبته شهرة واسعة ، وكان رداءا للسلطان محمود السلجوقي فجعله موضع ثقته ، وسلمه ولديه « ألب أرسلان والخفاجي » ليكون « أتابكا » لهما ، أي أبا مربيا ، ومنذ ذلك الوقت سمى زنكي « أتابكا » وولاه السلطان إمارة الموصل والجزيرة وما يتبعها ، فاستطاع أن يفتح عددا من بلاد الشام ، وأن يستخلص من أيدي الصليبيين « الرها » وكانت من أهم معاقلهم ، واستولى على حلب وبعلبك ، ووحد كثيرا من الامارات تحت قيادة إسلامية واحدة . وبين أحضان « زنكي » تربى ولده « محمود » الملقب بنور الدين الشهيد على الخير والصلاح والشجاعة ، وكان والده يرى فيه مخايل النجابة ، فيقدمه على سائر أولاده ، حتى شب وترعرع ، وضرب بسهمه في الجهاد لكبح جماح الغزو الصليبي .

١ - انظر « الكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبة .

٢ - راجع كتاب « عماد الدين زنكي » للدكتور عماد الدين خليل .

فلما توفي والده سنة إحدى وأربعين وخمسمائة أشار عليه بعض الأمراء أن يتوجه إلى حلب، وأن يجعلها كرسي مملكته، حيث يكون ذلك أدعى إلى اجتماع الناس عليه، ففعل ذلك، وأبطل الأذان بحجى على خير العمل، وأنكر ما كان فيها من تشيع، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة والجماعة^٢. ثم حاصر دمشق حتى دخلت في حوزته، واستولى على حمص وحماه وبعلبك وسائر بلاد الشام. وهو الذي بنى سور بعلبك المشهور.

وسير نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه إلى مصر في حملات ثلاث لانقاذ البلاد من براثن الفرنج، وحماية المسلمين من أذاهم، وبلغت الحملة الثالثة سبعين ألف فارس وراجل، فسحق الفرنج، وأوقع بهم الهزيمة، وأعجب به الملك العاضد فقلده الوزارة ولقبه بالملك المنصور سلطان الجيوش، حتى مات، فولى بعده أحد قاداته، وهو صلاح الدين الأيوبي، الذي استحوذ على السلطة، فضرب باسم الملك العادل نور الدين السكة^٣، وجعل له الخطبة في البلاد كلها، وواصل جهاده باسم نور الدين الذي صار معقد آمال المسلمين في بلاد الشام ومصر والجزيرة العربية، حتى توفي سنة تسع وستين وخمسمائة بقلعة دمشق وقيل له «الشهيد» لأنه كان يتمنى أن يموت شهيدا، وقبره في المدرسة «النورية» التي بناها للاحناف بدمشق.

قال ابن الجوزي: استرجع نور الدين من أيدي الكفار نيفا وخمسين مدينة، وكان قد عزم على فتح القدس فوافته المنية، وخطب له بالحرمين الشريفين: مكة والمدينة، وبلاد الشام ومصر، وأظهر السنة بمدينة حلب، وأزال البدعة التي للروافض في الأذان «حي على خير العمل» وقع بها الروافض، وبنى بها المدارس والمساجد، وأصلح طرقها، ووسع أسواقها، وأسقط جميع المكوس، وعاقب على الخمر.

٢ - انظر ابن خلكان، والسيرة النورية ص ١٣٠

١ - هو أسد الدين شيركوه

٣ - السكة بالكسر: حديدة منقوشة يضرب عليها الدراهم.

ووقف أوقافاً على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المدارس بدمشق، ووقف على سكان الحرمين الشريفين، وحصن قلاع الشام، وبنى الأسوار على مدنها، وأقام الجسور، وبنى الخوانق والربط لطلبة العلم، والخانات في الطرق للمسافرين، والقناطر، وبنى الجوامع في أنحاء البلاد، وجامعة في الموصل غاية في الحسن والاتقان. كما بنى دوراً لليتامى وأجرى عليهم وعلى معلمهم الخيرات الوافرة، وله أوقاف دارة على جميع أبواب الخير.

وكان رحمه الله كثير المطالعة للكتب الدينية، متتبعا للآثار النبوية، مواظبا على الصلوات في الجماعات، عاكفا على تلاوة القرآن، حريصا على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصدا في الانفاق، متحريرا في المطعم والمشرب والملبس. عدله وفضله :- العدل قوام السلطان والملك، وفي ظله ينعم الناس بالأمن، ويشعرون بالطمأنينة، ويستمتعون بالحياة، وفي كنف الحكم العادل تشيع روح المودة، ويستقيم أمر الناس، وتجتمع كلمتهم على قلب رجل واحد، ونور الدين كان مثلا من الأمثلة الحية التي سجل فيها التاريخ الاسلامي أروع صور العدالة، فلقب بالملك العادل.

قاضاه شخص على ملك له، فسار معه الى القاضي، وهو حينئذ « كمال الدين الشهرزوري » فقال للقاضي: إني قد جئت محاكماً، فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فساوى بينه وبين خصمه، وتحاكما، فلم يثبت عليه حق، وثبت الملك لنور الدين، فقال نور الدين للقاضي ولمن حضر: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا، فقال: اشهدوا على أي قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه، وقد كنت اعلم أنه لا حق له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له.

قال ابن الاثير: «ومن عدله أنه لم يكن يعاقب على المظنة والتهمة، بل يطلب

١ - انظر السيرة النورية ص ٢٠

الشهود على المتهم، فإن قامت عليه بينة شرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد. فدفع الله تعالى بهذا عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته من شدة السياسة، والمبالغة في العقوبة، والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشريعة المطهرة».

وكان نور الدين متواضعا مهيبا، يكرم العلماء، وينهض للقائهم ويؤنسهم ولا يرد لهم قولا، عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وله معرفة بعلوم الحديث، وكان يجلس في كل اسبوع أربعة أيام يحضر الفقهاء عنده، ويأمر بإزالة الحجاب حتى يصل إليه من يشاء، ويسأل الفقهاء عما يشكل عليه.

شجاعته وحزمه :- كان نور الدين شجاعا مقداما، بطلا محاربا، يقتحم المخاطر جهادا في سبيل الله، وكان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمي، مسدد الاصابة، يتقدم أصحابه في المعركة، ويتعرض للشهادة، ويسأل الله تعالى أن يموت شهيدا، وكان يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة فلم أدركها، ولو كان في خير ولي عند الله قيمة لرزقتها، والاعمال بالنيات.

قال له يوما قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي: يا مولانا السلطان: لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين، فإنك عمادهم، فلو أصبت في معركة أعملت السيوف في رقاب الناس وأخذت البلاد. فقال: يا قطب الدين: اسكت، فان قولك هذا اساءة أدب على الله، ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد، ذلك الله الذي لا اله إلا هو، فبكى من كان حاضرا.

ومع ما كان عليه من تواضع فإنه كان حازما في مواطن الجد شديدا من غير عنف، رفيقا من غير ضعف، يهابه أجناده وأصحابه وامراؤه، ويحاسبهم على القيام بأعمالهم حساب الناقد البصير، ويجد الناس في مجلسه هيبة من غير خوف، ووقارا من غير استعلاء، قال الحافظ بن عساكر: «كنا نحضر مجلس نور الدين كأنما على رؤسنا الطير، تعلقنا الهيبة والوقار، فاذا تكلم أنصتنا، واذا تكلمنا أنصت لنا».

زهدہ وورعہ وعبادتہ :- إذا اجتمع في السلطان قوة الملك وتقوى الله وورع
النفس فقد اكتملت له خصائص الحكم الصالح، وهكذا كان نور الدين، فانه مع
سعة ملكه وشدة بأسه كان عابداً متنسكاً، يقوم ليله، ويقراً حزبه. ويصوم كثيراً من
الأيام، ويحافظ على صلاة الجماعة، ويشهد صلاة الفجر.

وعاش نور الدين عيشة كفاف، وتورع عن أخذ شيء من بيت المال لا يحل له
أخذه، قال ابن الأثير: «وكان نور الدين رحمه الله تعالى - مع سعة ملكه -، وذخائر
بلاده - لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك اشتراه من سهمه من
الغنائم، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال المرصدة
لمصالح المسلمين، فيأخذ ما يفتونه بحله، ولا يتعداه إلى غيره البتة»
ووصفت حاله زوجته الخانوت بنت معين الدين - وكانت من الصالحات
الخيرات - فذكرت عنه، أنه كان يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في الليل والنهار،
فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم استيقظ نصف الليل، فيتوضأ ويصلي إلى
الفجر، ثم يصلي الصبح، ثم يظهر للاشتغال بمهمات الدولة».

وقال ابن خلكان فيه: «كان نور الدين ملكاً عادلاً زاهداً عابداً ورعاً متمسكاً
بالشريعة، مائلاً إلى أهل الخير، مجاهداً في سبيل الله تعالى، كثير الصدقات».
وقال ابن الأثير: «قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام، ومنه إلى
يومنا هذا، فلم أر فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن
سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريماً للعدل والانصاف منه، قد قصر
ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها،
وإحسان يوليه، وإنعام يسديه، فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف ببيت واحد».
وتلك أولاً وأخيراً صورة معبرة عن بطل من أبطال الإسلام.

سابعاً: موضوعات عامة

أ - القرآن الكريم عظمته وإعجازه

هذا الكون الفسيح الزاخر بمخلوقات الله تضاءلت جباله الشامخة، وبحاره الواسعة، واديته الممتدة، امام مخلوق ضعيف هو الانسان. ذلك لما جمع الله فيه من خصائص، وما منحه من قوة التفكير التي تشع في الارحاء لتسخر عناصر القوى الكونية، وتجعلها في خدمة الانسانية.

وما كان الله ليذر هذا الانسان دون ان يمده بقبس من الوحي بين فترة واخرى. يقوده الى معالم الهدى، ليسلك دروب الحياة على بينة وبصيرة، ولكن غلواء الفطري يأبى عليه الخضوع لقرينه من بني الانسان ما لم يأت له بما لا يستطيع حتى يعترف ويخضع ويؤمن بقدرة عليا فوق قدرته، فكان رسل الله الذين ينزل عليهم الوحي ويؤيدهم الله بخوارق العادات التي تقيم الحججة على الناس فيعترفون امامها بالعجز، ويدينون لها بالولاء والطاعة.

ولقد كان العقل البشري في اطوار نموه الاولى لا يرى شيئاً يأخذ بلبه اقوى من المعجزات الكونية الحسية، حيث لا يرقى عقله الى السمو في المعرفة والتفكير، فناسب هذا ان يبعث كل رسول الى قومه خاصة، وان تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه ليتحقق بعجزهم عنها ايمانهم بانها من قوى السماء، فلما اكتمل العقل البشري اذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة الى الناس كافة وكانت معجزتها معجزة العقل البشري في ارقى تطورات نضجه.

فاذا كان تأييد الله لرسله السابقين بآيات كونية تبهر الابصار ولا سبيل للعقل في معارضتها، كمعجزة اليد والعصا لموسى، وبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى

١ - انظر كتابنا «مباحث في علوم القرآن ص ٢٥٧» ط بيروت.

أرسل بعزاه عنما كلف بعد لحقلى

ياذن الله لعيسى، فإن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم في عصر مشرف على العلم كانت معجزة عقلية تحتاج العقل البشري وتتحداه الى الأبد. إنها معجزة القرآن بعلومه ومعارفه، واخباره الماضية والمستقبله، فالعقل الانساني على تقدمه لا يعجز عن معارضته لانه آية كونية لا قبل له بها، ولكن عجزه لقصوره الذاتي، فيكون هذا اعترافا منه بأنه وحي الله الى رسوله، وأن حاجته الى الاهتداء به ماسة ليستقيم عوجه، وترقى مواهبه. وهذا المعنى هو ما يشير اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «ما من الأنبياء نبي الا اعطي ما مثله آمن عليه البشر، وانما كان الذي اوتيته وحيا اوحاه الله الي. فأرجو ان اكون اكثرهم تابعا»^١. وهكذا كتب الله لمعجزة الاسلام الخلود، فضعفت القدرة الانسانية مع تراخي الزمن وتقدم العلم عن معارضتها.

وأيا كان وجه الاعجاز فإن الباحث المنصف الذي يطلب الحق إذا نظر في القرآن من اي النواحي احب: من ناحية اسلوبه، او من ناحية علومه، او من ناحية الاثر الذي احدثه في العالم وغير به وجه التاريخ، او من تلك النواحي مجتمعة، وجد الاعجاز واضحا جليا.

الإعجاز اللغوي: لقد مارس اهل العربية فنونها منذ نشأت لغتهم حتى شبت وترعرعت، واصبحت في عنفوان شبابها عملاقا معطاء، واستظهروا شعرها ونثرها، وحكمها وامثالها، وطاوعهم البيان في اساليب ساحرة، حقيقة ومجازا، ايجازا واطنابا، حديثا ومقالا، وكلما ارتفعت اللغة وتسامت وقفت على اعتاب لغة القرآن في اعجازه اللغوي كسيرة صاغرة، تنحني امام اسلوبه اجلالا وخشية، وما عهد تاريخ العربية حقبة من أحقاب التاريخ ازدهرت فيها اللغة الا وتطامن أعلامها وأساتذتها أمام البيان القرآني، اعترافا لسموه، وادراكا لاسراره، ولا عجب «فتلك سنة الله في آياته، لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها الا اذعانا لعظمتها، وثقة بالعجز عنها»^٢.

١ - رواه البخاري

٢ - انظر النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز ص ٨١

والذين تملكهم الغرور، واصابتهم لومة الاعجاب بالنفس وحاولوا التناول على اسلوب القرآن، حاكوه بكلام فارغ، اشبه بالسخف والتفاهة والهذيان والعبث، وارتدوا على اعقابهم خاسرين كالمثبئين واشباه المثبئين، من الدجالين والمغرورين. وقد شهد التاريخ فرسانا للعربية خاضوا غمارها واحرزوا قصب السبق فيها، فما استطاع احد منهم ان تحدثه نفسه بمعارضة القرآن، إلا بآء بالخزي والهوان، بل إن التاريخ سجل هذا العجز على اللغة في ازهى عصورها، وارقى ادوارها حين نزل هذا القرآن، وقد بلغت العربية اشدها، وتوافرت لها عناصر الكمال والتهذيب في المجامع العربية واسواقها، ووقف القرآن من اصحاب هذه اللغة موقف التحدي في صور شتى، منزلا معهم الى الاخف من عشر سور الى سورة الى حديث مثله، فما استطاع احد ان يباريه او يجاريه منهم، وهم اهل الانفة والعزة والاباء، ولو وجدوا قدرة على محاكاة شيء منه، او وجدوا ثغرة فيه، لما ركبوا المركب الصعب امام هذا التحدي، باشهار السيوف، بعد ان عجز البيان وتحطمت الاقلام.

وتتابعت القرون لدى اهل العربية، وظل الاعجاز القرآني اللغوي راسخا كالطود الشامخ، تذل امامه الاعناق خاضعة، لا تفكر في ان تدانيه، فضلا عن ان تساميه، لانها اشد عجزا واقل طمعا في هذا المطلب العزيز، وسيظل الامر كذلك الى يوم الدين.

وحيثما قلب الانسان نظره في القرآن الكريم وجد اسراراً من الإعجاز اللغوي. يجد ذلك في نظامه الصوتي البديع، بجرس حروفه حين يسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغنائها، وفواصلها ومقاطعها. فلا تمل اذنه السماع، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

ويجد ذلك في الفاظه التي تنى بحق كل معنى في موضعه، لا ينبو منها لفظ يقال إنه زائد لا معنى له، ولا يعثر الباحث على موضع يقول: إنه يحتاج الى إثبات لفظ ناقص.

ويجد ذلك في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها اصناف الناس في الفهم بما
تطبيقه عقولهم، فيراها كل واحد منهم مقدرة على مقياس عقله ووفق حاجته، من
العامة والخاصة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٧) .

ويجد ذلك في اقناع العقل وامتناع العاطفة، بما يفي بحاجة النفس البشرية تفكيراً
ووجداناً في تكافؤ واتزان، فلا تطفى قوة التفكير على قوة الوجدان، ولا قوة
الوجدان على قوة التفكير.

وهكذا حيثما قلب النظر قامت امامه حجة القرآن في التحدي والاعجاز.
الاعجاز العلمي: يخطيء كثير من الناس حين يحرصون على ان يتضمن
القرآن الكريم كل نظرية علمية، وكلما ظهرت نظرية جديدة التمسوا لها محملاً في آية
يتأولونها، بما يوافق هذه النظرية.

ومنشأ الخطأ في هذا أن العلوم تتجدد نظرياتها مع الزمن تبعا لسنة التقدم، فلا
تزال في نقص دائم يكتنفه الغموض احيانا، والخطأ أحيانا اخرى، وتستمر هكذا
حتى تقرب من الصواب، وتصل الى درجة اليقين، واي نظرية منها تبدأ بالحدس
والتخمين وتخضع للتجربة حتى يثبت يقينها، او يتضح زيفها وخطؤها، ولهذا كانت
عرضة للتبديل، وكثير من القواعد العلمية التي ظن الناس انها اصبحت من
المسلّمات تتزعزع بعد ثبوت، وتتقوض بعد رسوخ، ثم يستأنف الباحثون تجاربهم
فيها مرة اخرى.

والذين يفسرون القرآن الكريم بما يطابق مسائل العلم ويحرصون على ان
يستخرجوا منه كل مسألة تظهر في افق الحياة العلمية، يسيئون الى القرآن من حيث
يظنون انهم يحسنون صنعا، لان هذه المسائل التي تخضع لسنة التقدم تتبدل، وقد
تقوض من اساسها وتبطل، فإذا فسرنا القرآن بها تعرضنا في تفسيره للنقائص كلما
تبدلت القواعد العلمية، او تابعت الكشوف بجديد ينقض القديم، او يقين يبطل
التخمين.

والقرآن الكريم كتاب عقيدة وهداية، يخاطب الضمير فيحيي فيه عوامل النمو والارتقاء. وبواعث الخير والفضيلة.

واعجازه العلمي ليس في اشماله على النظريات العلمية التي تتجدد وتتبدل وتكون ثمرة للجهد البشري في البحث والنظر، وانما في حثه على التفكير، فهو يحث الانسان على النظر في الكون وتدبره، ولا يشل حركة العقل في تفكيره، او يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع الى ذلك سبيلا، وليس ثمة كتاب من كتب الاديان السابقة يكفل هذا بمثل ما يكفله القرآن.

فأي مسألة من مسائل العلم، او قاعدة من قواعده، يثبت رسوخها، ويتبين يقينها، تكون محققة لما حث عليه القرآن من تفكير سليم، ولا تتعارض معه بحال من الاحوال، وقد تقدمت العلوم وكثرت مسائلها، ولم يتعارض شيء ثابت منها مع آية من آيات القرآن، وهذا وحده إعجاز.

والقرآن الكريم يجعل التفكير السديد والنظر الصائب في الكون وما فيه اعظم وسيلة من وسائل الايمان بالله. ويشير في الانسان الحس العلمي للتفكير والفهم والتعقل، وذلك في آيات قرآنية كثيرة.

وهكذا فإن اعجاز القرآن العلمي في أنه يحث المسلمين على التفكير، ويفتح لهم ابواب المعرفة، ويدعوهم الى ولوجها. والتقدم فيها. وقبول كل جديد راسخ من العلوم. وما تضمنه من اشارات علمية جاء في سياق الهداية الإلهية، وللعقل البشري ان يبحث فيها ويتدبر.

الإعجاز التشريعي: - اودع الله في الانسان كثيرا من الغرائز التي تعتمل في النفس وتؤثر عليها في اتجاهات الحياة، ولئن كان العقل الرشيد يعصم صاحبه من الزلل فإن النزعات النفسية المنحرفة تطفئ على سلطان العقل، ولا يستطيع العقل ان يكبح جماحها في كل حال، لهذا كان لا بد لاستقامة الانسان من تربية خاصة لغرائزه، تهذيبها وتنميتها، وتقودها الى الخير والفلاح.

والإنسان مدني بالطبع، فهو في حاجة الى غيره، وغيره في حاجة اليه، وتعاون الانسان مع اخيه الانسان ضرورة اجتماعية يفرضها العمران البشري، وكثيرا ما يظلم الانسان اخاه بدافع الأثرة وحب السيطرة، فلو ترك امر الناس دون ضابط يحدد علاقاتهم، وينظم احوال معاشهم، ويصون حقوقهم، ويحفظ حرمتهم، لصار امرهم فوضى، ولذا كان لابد لأي مجتمع بشري من نظام يحكم زمامه، ويحقق العدل بين افراده.

وبين تربية الفرد وصلاح الجماعة وشائج قوية لا تنفصم عراها، فإن هذا يقوم على تلك، فصلاح الفرد من صلاح الجماعة، وصلاح الجماعة بصلاح الفرد. وقد عرفت البشرية في عصور التاريخ الوانا مختلفة من المذاهب والنظريات والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل. ولكن واحدا منها لم يبلغ من الروعة والإجلال مبلغ القرآن الكريم في اعجازه التشريعي. إن القرآن يبدأ بتربية الفرد، لأنه لبنة المجتمع، ويقيم تربيته على تحرير وجدانه، وتحمله التبعة.

يحرر القرآن وجدان المسلم بعقيدة التوحيد التي تخلصه من سلطان الخرافة والوهم. وتفك اسره من عبودية الأهواء والشهوات. حتى يكون عبدا خالصا لله، يتجرد للإله الخالق المعبود، ويستعلي بنفسه عما سواه، فلا حاجة للمخلوق الا لدى خالقه، الذي له الكمال المطلق، ومنه يمنح الخير للخلائق كلها، إنه خالق واحد، وإله واحد، لا أول له ولا آخر، قدير على كل شيء، عليم بكل شيء، محيط بكل شيء، وليس كمثلته شيء.

عالم مخلوق خلقه الله، ويرجع الى الله، ويفنى كما يوجد بمشيئة الله. وهذه اكمل عقيدة في العقل، واكمل عقيدة في الدين.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^١

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾^٢

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^٣

وإذا صحت عقيدة المسلم كان عليه أن يأخذ بشرائع القرآن في الفرائض والعبادات، وكل عبادة مفروضة يراد بها صلاح الفرد، ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والجماعة واجبة على الرأي الراجح إلا لعذر، وهي شرط في الجمعة والعيدين. والذي يصلي منفردا لا يغيب عن شعوره أصرة القربى بينه وبين الجماعة الإسلامية في اقطار الارض. من شمال الى جنوب، ومن مشرق الى مغرب، لأنه يعلم في تلك اللحظة انه يتجه وجهة واحدة مع كل مسلم على ظهر الارض. يؤدي فريضة الصلاة، ويستقبل معه قبلة واحدة، ويدعو بدعاء واحد، وإن تباعدت بينهم الديار.

وحسب المسلم في تربيته ان يقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم الواحد لتمتدح حياته بشرع الله ويتمثل الوازع الاعلى نصب عينيه ما بين كل صلاة وصلاة

﴿ إِذَا الصَّلَاةُ سَأَتْكَ عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^٤

والزكاة تقتلع من النفس جذور الشح، وعبادة المال، والحرص على الدنيا، وهي مصلحة للجماعة، فتقيم دعائم التعاون بين المجدودين^٥، والمحرومين، وتشعر النفس بتكافل الجماعة شعورا يخرجها من ضيق الأثرة والانفراد.

والحج سياحة تروض النفس على المشقة، وتفتح بصيرتها على اسرار الله في خلقه، وهو مؤتمر عالمي يجتمع فيه المسلمون على صعيد واحد فيتعارفون ويتشاورون.

٢ - الآية (١٠٢) من سورة الانعام

٤ - الآية (٤٥) من سورة العنكبوت

١ - الآية (٣) من سورة الحديد

٣ - الآية (٢٢) من سورة الانبياء

٥ - المجدودون: الأغنياء، والجدة: الغنى

والصيام ضبط للنفس، وشحذ لعزيمتها، وتقوية للإرادة، وحبس للشهوات، وهو مظهر اجتماعي يعيش فيه المسلمون شهرا كاملا على نظام واحد في طعامهم، كما تعيش الاسرة في البيت الواحد.

والقيام بهذه العبادات المفروضة يربي المسلم على الشعور بالتبعية الفردية. التي يقررها القرآن وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين وكل فضيلة من فضائل الاخلاق.

وحض القرآن على الفضائل المثلى التي تروض النفس على الوازع الديني، كالصبر والصدق والعدل والإحسان والحلم والعفو والتواضع.

ومن تربية الفرد ينتقل القرآن إلى بناء الاسرة، لانها نواة المجتمع، فشرع القرآن الزواج استجابة لغريزة الجنس، وإبقاء على النوع الإنساني في تناسل طاهر نظيف. ويقوم رباط الأسرة في الزواج على الود والرحمة والسكن النفسي والعشرة بالمعروف، ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة، والوظيفة الملائمة لكل منهما.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۗ ﴾^١
﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ ﴾^٢

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۗ ﴾^٣

ثم يأتي نظام الحكم الذي يسود المجتمع المسلم، وقد قرر القرآن قواعد الحكومة الإسلامية في اصلح أوضاعها.

فهي حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية.

﴿ وَسَأَوْزُهُمْ فِي الْأَمْرِ ۗ ﴾^٤

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ۗ ﴾^٥

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ۗ ﴾^٦

١ - الآية (٢١) من سورة الروم

٢ - الآية (٣٣) من سورة النساء

٣ - الآية (٣٨) من سورة الشورى

٤ - الآية (١٩) من سورة النساء

٥ - الآية (١٥٩) من سورة آل عمران

٦ - الآية (١٠) من سورة الحجرات

وهي حكومة تقوم على العدل، والتشريع في الحكومة الإسلامية ليس متروكا للناس، بل قرره القرآن، والخروج عنه كفر وظلم وفسق.

وقرر القرآن صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية: الدين، والنفس، والعرض، والمال، والعقل، ورتب عليها العقوبات المنصوصة التي تعرف في الفقه الإسلامي بالجنايات والحدود.

وقرر القرآن العلاقات الدولية في الحرب والسلام بين المسلمين وجيرانهم او معاهديهم، وهي ارفع معاملة عرفت في عصور الحضارة الإنسانية.

وخلاصة القول: ان القرآن دستور تشريعي كامل، يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال، وسيظل إعجازه التشريعي قرينا لإعجازه العلمي وإعجازه اللغوي إلى الأبد. ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث في العالم أثرا غير وجه التاريخ.

ب - السُّنَّة النبوية وموقف المسلمين منها..

السُّنَّة في اللغة : الطريقة والسيرة ، وفي اصطلاح المحدثين : ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول ، او فعل ، أو تقرير ، أو صفة
فلقد كان صلى الله عليه وسلم يتحدث إلى صحابته في كل شأن من شئون حياتهم الدينية . في العقيدة ، والعبادة ، والمعاملة ، كقوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى »^٢ .
ونقل الصحابة رضي الله عنهم كثيرا من تصرفات رسول الله ، في التشريع ، والسلوك ، والعمل ، صلى أمامهم وقال : « صلوا كما رأيتموني أصلي »^٣ . وأدى معهم مناسك الحج وكان يقول لهم : « خذوا عني مناسككم »^٤ . فنقلوا عنه كيفية صلاته ، وكيفية حجه .

وأقر أصحابه على أمور شاهدها أو علم بها من قول أو فعل ، ولو لم يكن ما شاهده أو علمه مشروعاً لما أقره ، « بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ (قل هو الله أحد) فلما رجعوا ذكروا ذلك له عليه الصلاة والسلام ، فقال : سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أخبروه أن الله يحبها »^٥ .
وذكرت عائشة رضي الله عنها من صفاته الخُلُقِيَّة أنه « ما خَيْر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً »^٦ . وروي عن علي رضي الله عنه في صفات رسول الله الخُلُقِيَّة قوله : « لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بالطويل ولا بالقصير »
وقد اعتنت الأمة الإسلامية بالسُّنَّة النبوية عناية فائقة ، فحفظوها وكتبوها ،

١ - راجع كتاب « السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي » للدكتور مصطفى السباعي

٢ - أخرجه الشيخان

٣ - أخرجه الامام احمد وابن ماجه

٥ - رواه البخاري ومسلم

٤ - أخرجه احمد ومسلم والنسائي

٦ - رواه الترمذي في الشمائل المحمدية

الذخيرة كثره - تدرك على وجه
 رضى على ذلك

ورواها كل عن الآخر، حتى جاء بعضها متواتراً باللفظ والمعنى، أو بالمعنى فقط، متصلاً ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا من خصائص الأمة الإسلامية وحدها، قال ابن حزم: «نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل»

والسنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وتلي مرتبتها كتاب الله تعالى، فقد أخبر الله عن نبيه بقوله ﴿ وَمَا يَنْطُوعِنَ الْهَوَىٰ ۗ (٣) اِنْ هُوَ اِلَّا وْحَىٰ ۗ (٤) ﴾^٢ . وأمر باتباعه وطاعته، والأخذ بما جاء به، والانتهاه عما نهى عنه ﴿ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ﴾^٣ . ﴿ وَمَا اتَّكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾^٤ .

وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»^٥ . وأوجب الله النزول على حكمه فيما يكون من خلاف ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾^٦ . وأخبر انه أوتي القرآن والحكمة ليعلم الناس أحكام دينهم ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾^٧ . وذهب جمهور العلماء والمحققين إلى أن الحكمة هي السنة .

وهذه النصوص تقطع دابر الشك في وجوب الأخذ بالسنة في الأدلة الشرعية، واعتبارها في المقام الثاني من القرآن، وترد شبه المفرضين الهاوية .
 والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها:

أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم

١ - المتواتر: ما رواه عدد كثير يحيل العقل تواطؤهم على الكذب من أول السند إلى منتهاه واستندوا إلى امر محسوس
 ٢ - الآياتان (٣، ٤) من سورة النجم
 ٣ - الآية (١٣٢) من سورة آل عمران
 ٤ - الآية (٧) من سورة الحشر
 ٥ - أخرجه ابو داود والترمذي
 ٦ - الآية (٦٥) من سورة النساء
 ٧ - الآية (١٦٤) من سورة آل عمران

الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها كالأمر باقامة الصلاة، وايتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، والنهي عن الشرك بالله، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، وقتل النفس بغير حق، وغير ذلك من الأوامر والنواهي التي جاءت في القرآن الكريم وأيدتها السنة.

الثاني:

أن تكون بيانا لما جاء مجملا في القرآن وتفسيرا له، كتفصيل مواقيت الصلاة، وعدد ركعاتها، وسائر احكامها، وبيان مقادير الزكاة، واوقاتها، والأموال التي تزكى، وبيان أحكام الصوم، ومناسك الحج، والذبائح والصيد، وما يؤكل وما لا يؤكل، وتفصيل الأنكحة والبيوع والجنایات، وهو الذي تشمله الآية الكريمة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

الثالث:

أن تكون مثبتة لحكم سكت عنه القرآن، كتحریم الجمع بين المرأة وعمتها او خالتها وتحریم كل ناب من السباع ومخلب من الطير، وغير ذلك من الأحكام التي شرعت بالسنة وحدها.

ولقد كانت حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صحابته تمثل «الديمقراطية» الحققة، التي ينشدها الناس وتداعب احلامهم في هذا العصر، فلم يكن بينه وبين أصحابه حجاب يمنعهم، أو يمنعهم عنه، فهو يخالطهم في المسجد والسوق والمنزل، والسفر والحضر، وهم حريصون على لقائه وصحبته وملازمته للاقتباس منه، والاهتداء بهديه، والتأسي بسيرته.

وحيثما حدث لأحدهم من الأمر ما لا يعرف أسرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستفتاه.

وفيما يتعلق بالأمور المتصلة بالجنس، والمختصة بالمرأة، كان الرجال يسألون

١ - الآية (٤٤) من سورة النحل

تارة رسول الله، وتارة يرسل احدهم امرأته لتسأل زوجاته لعلمهن باحوال رسول الله العائلية.

وقد تسأل النساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يَشَأَنُ السُّؤَالِ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِنَّ، فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ مَا يَمْنَعُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ التَّصْرِيحِ لِلْمَرْأَةِ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ أَمْرًا إِحْدَى زَوْجَاتِهِ أَنْ تَفْهَمَهَا إِيَّاهُ، جَاءَتْ امْرَأَةٌ فَسَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ تَتَطَهَّرُ مِنَ الْحَيْضِ؟» فَقَالَ لَهَا: «خُذِي فُرْصَةً مُمْسِكَةً فَتَوَضَّئِي بِهَا» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: كَيْفَ أَتَوَضَّأُ بِهَا؟ فَأَعَادَ كَلَامَهُ السَّابِقَ، فَلَمْ تَفْهَمْ، فَأَشَارَ إِلَى عَائِشَةَ أَنْ تَفْهَمَهَا مَا يَرِيدُ، فَأَفْهَمَتْهَا الْمُرَادَ، وَهُوَ أَنْ تَأْخُذَ قِطْعَةً قَطْنٍ نَظِيفَةً، فَتَضَعُهَا فِي مَكَانِ الدَّمِ، فَإِنْ خَرَجَتْ بِيضَاءً كَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً طَهَرَهَا^١.
وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته بتبليغ سنته إلى من وراءهم، وحثهم على التثبت فيما يروون «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا، وَرَوَاهَا كَمَا سَمِعَهَا، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»^٢.

وامتثل الصحابة هذا وبلغوا أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمته، وتفرقوا في الأمصار، وأصبحوا فيها معلمين، وتعلمذ عليهم التابعون، ورحل إليهم من رحل على بعد الشقة وعناء السفر للأخذ عنهم.
وبذل العلماء منذ عصر الصحابة إلى أن تم تدوين السنة كثيرا من الجهود لتمييز صحيح الأحاديث، وسلكوا أقوم الطرق العلمية للنقد والتمحيص، يحق لأمتنا أن تفاخر به الأمم جميعا.

ودونت السنة النبوية، وأدت الأمة أمانة الله عليها في حملها والحفاظ عليها، وعُني العلماء بتبويبها وشرحها، واستنباط الأحكام منها، وأصبح الأطلاع عليها ميسورا للباحثين والمثقفين.

١ - رواه البخاري ومسلم والنسائي عن عائشة

٢ - أخرجه أبو داود والترمذي من رواية زيد بن ثابت

جـ- الشخصية المتميزة للمسلم

تعني الشخصية في مفهومها العام ملامح الإنسان وصفاته التي تميزه عن غيره، ولا يقتصر هذا المفهوم على الصفات البدنية، إنما يتعداها إلى الصفات النفسية والاجتماعية والعقلية، وقد صارت الشخصية علما على السمات الخاصة التي يتميز بها كل انسان عن الآخر في عقيدته وعواطفه ومشاعره وسلوكه وعلاقاته الاجتماعية وطرائق تفكيره وسائر تصرفاته الإرادية، لأن هذه هي المقومات الشخصية للإنسان، ومحار الحكم على مميزاته^١.

إن تفاوت الناس في صفاتهم البدنية يرجع إلى عوامل الوراثة والبيئة، وهو تفاوت محدود لا يغير شيئا من خصائص الإنسان الجسمية، ووظائفه العضوية، وقلما يكون له تأثير في الصفات النفسية إلا لدى أصحاب العاهات من الشواذ، والنادر لا يقاس عليه.

والحياة الإنسانية لا تقوم بالمقاييس الحسية الظاهرة، إنما تقوم بمقياس العقيدة، والقيم الأخلاقية، والمستوى الفكري، لأن هذه هي خصائص الإنسان العاقل المكلف الرشيد.

وبهذا المفهوم الخاص تتميز شخصية المسلم عن غيره.

فهي شخصية مؤمنة مهتدية، تتجه بمشاعرها واحاسيسها لله تعالى، تستلهم منه الرشد والسداد، وتهتدي بنور الايمان في سلوكها، وتتخذ الشريعة الإسلامية نبراسا لها في تصرفاتها، وتحتكم إليها في كل شأن من شئون حياتها.

وهي شخصية متميزة بالعقيدة الإسلامية التي تؤمن بها. وتخالط شغاف قلبها، وتمتزج بأحاسيسها، فتعيش من أجلها، وتجعل حياتها وقفا عليها، إذ لا قيمة للحياة بدون عقيدة.

١ - محار الحكم: مناطه ومداره، والمخارتان: رأسا الورك المستديران اللذان تدور فيها رؤوس الفخذين

والعقيدة لدى المسلم هي المعيار الأساسي للعمل . فأي عمل لا ينبعث من العقيدة لا قيمة له في ميزان الاسلام مهما كان جليلا نافعا يعود على البشرية بالخير ﴿ مَا كَانَ لِلشُّرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾

وهي شخصية متميزة بسلوكها الإسلامي ، تقف عند حدود الإسلام وشرائعه ، عبادة ومعاملة واخلاقا ، لا تجامل على حساب دينها ، ولا تداري ولا تماري ، ولا تدع لأي ضغط اجتماعي فرصة للتأثير عليها . حتى تتهاون في شيء من قيمها . وهي شخصية تعز بمقوماتها من غير كبرياء ، وتشعر بقوة الحق الذي تدين به ، فلا تلين ولا تضعف ، ولا تذوب في اي بيئة تعيش فيها ، او مجتمع يضمها ، بل تجد من ايمانها القوي ما يحملها على مقاومة التيارات الفكرية ، والانحلال الخلقي ، والفساد الاجتماعي . انها شخصية تؤثر في غيرها ، ولا يؤثر غيرها فيها . وإن استفادت بكل خير ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها .

فالشخص الذي يخضع للعادات والتقاليد الفاسدة التي تفرض وجودها بالانتشار في بعض المجتمعات ، فيجاري أحوال الناس في فسادهم ، أو يعيش في مجتمعات غير اسلامية لمقاصد سليمة فلا يلبث طويلا حتى ينخرط في سلكها ، ويتقبل اوضاع حياتها التي تتنافى مع عقيدته أو دينه - هذا الشخص أو ذاك لا شخصية له - لأنه تهاون في مقومات الشخصية الإسلامية واهدر مثلها .

وجماع ما تتميز به شخصية المسلم ان يكون رجل عقيدة ، ترى حياته صورة صادقة لها ، يقرأ الناس فيها كتاب الإسلام مسطورا في آرائه وافكاره واخلاقه واحكامه وسلوكه ، حيث تكون نظرتة إلى الكون والإنسان والحياة نظرة إسلامية ، وتكون المثل التي يحتذيها والفضائل التي يتحلى بها أخلاقا قرآنية ، ويستقي أحكامه

١ - الأيتان (١٧ ، ١٨) من سورة التوبة

على الأمور كلها من هدي الإسلام وشريعته . يأخذ نفسه بعد هذا بما يدين به لله في أعماله وشئون حياته ، يفتدي عقيدته بنفسه وماله ، ويفي بالبيعة وفاء المؤمنين الصادقين ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَبِئُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ .

د- التكافل الاجتماعي في الإسلام

يتبادر إلى الأذهان عندما يذكر التكافل الاجتماعي أنه مساعدات مالية تعطي للأفراد والمحتاجين على وجه الإحسان والصدقة والبر، ومفهوم التكافل الاجتماعي في الإسلام يعني مدلولات أوسع من هذا المدلول المحدود في المساعدات المالية التي يعبر عنها في الاصطلاح الحديث بالضمان الاجتماعي، أو التأمين الاجتماعي.

التكافل في التربية الفردية:-

لقد عني الإسلام في نظامه الاجتماعي بتربية روح الفرد وشخصيته وسلوكه، فإن الفرد قوام المجتمع، وإذا عني الإسلام بتربية الفرد فإن هذه التربية تؤدي في نهايتها إلى سلوك اجتماعي رشيد، يبعث على الحب والتعاون والإيثار.

والمسلم مسئول عن نفسه أمام الله فيما طولب به من تزكيتها وكفها عن شهواتها، والوقوف في طريق غوايتها، والحيلولة بينها وبين الفجور، حتى تصير نفساً سالحة تقية ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

ويقرر الإسلام هذه المسئولية الفردية في إصلاح النفس بتحملها تبعة ما تكسبه من خير أو شر ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٢﴾ .

ولا شك أن نمو الشخصية الفردية في جو تربي فيه على تهذيب النفس، وحب الخير، وتحمل التبعة، هو نقطة البدء في إصلاح المجتمع، وبناء كيانه على دعائم وطيدة، وأسس راسخة.

والعبادات في الإسلام تمثل هذا الجانب في التربية الفردية، وما من عبادة فيها إلا وتحمل في طياتها معنى يهدف إلى إشاعة الروح الاجتماعية، والسعي نحو ترابط محكم بين أبناء المجتمع المسلم، وتكافل إنساني رصين.

١ - الآيات (٧-١٠) من سورة الشمس ٢ - الآية (٣٨) المدثر

فالمسلم يؤم المسجد للصلاة في اليوم الواحد خمس مرات، ليقف بين يدي ربه خاشعاً ذاكراً بإزاء أخيه في صف واحد متراص، تحت إمرة إمام يأتّم به في قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه، وهو يرى في انتظام الصف معنى المساواة الحقة التي أقرها الإسلام، فإذا نسي الإمام استفتح عليه ونبهه، الرجل يسبح، والمرأة تصفق.

ويتجه صف المسلمين في الصلاة في أي مسجد نحو قبلة واحدة في مشارق الأرض ومغاربها، ويتحول هذا الصف إلى دائرة حول الكعبة يشهدها الناس في بيت الله الحرام، صلاة وطوافاً، كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها؟ رمزا لوحدة أمة الإسلام.

وفي الحج تتضح الصورة العملية لمجتمع الفكرة والعقيدة، حيث يفد إليه المسلمون استجابة لربهم من كل قطر على اختلاف اللغة والجنس واللون والوطن، وهكذا الشأن في سائر العبادات.

التكافل في الأسرة :-

وينتقل الإسلام من تربية الفرد إلى تكوين الأسرة، لأنها نواة المجتمع، واللبنة الأولى في بنائه، وبعبارة أخرى هي المجتمع الصغير، الذي تنمو في ظله العلاقات الاجتماعية الأولى التي تساعد على القيام بالأعباء الاجتماعية في المجتمع الكبير.

والتنكر لقيمة الأسرة في بناء المجتمع منطوق معكوس لا يؤبه له. فقد أثبتت محاولات النظم الماركية التي تهون من شأن الأسرة باعتبار أنها تنمي أحاسيس الأثرة وحب التملك كالنظام الشيوعي - أثبتت هذه المحاولات فشلها - فإن الأسرة هي المحض الطبيعي لتنمية الصفات الاجتماعية.

ووجود الميل الجنسي يشعر بضرورة التقاء الجنسين، ولكن وجود هذا الالتقاء على نهج تنظيمي هو الذي ينمي مشاعر الود والرحمة والتعاون، ولذا كان تخصيص امرأة لرجل واحد هو السبيل الأقوم لتهيئة مهد صالح للطفولة، تنمو فيه شخصية الطفل في كنف عواطف الأبوة والأمومة، ويشاهد التكافل الاجتماعي في حياة الأسرة

ويشارك فيه، حتى يؤهل نفسه نفسيا وعمليا لتكافل أتم في بناء مجتمعه.
 وكيان الأسرة يرعى المبادئ الأصلية للمجتمع الإسلامي، فاختيار المرأة قائم
 على العقيدة «فاظفر بذات الدين تربت يداك»^١. والعلاقة التي بين الزوجين هي
 المسكن الاجتماعي والنفسي لتنمية عواطف الود والرحمة ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾^٢. وليست هناك فوارق طبقية تحول دون
 زواج شاب مسلم بفتاة مسلمة ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَتَذَكَّرُونَ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ آيَاتٍ أَنْ لَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ
 يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾^٣.

والأسرة مجتمع صغير يحتاج إلى قوامة تحكم أمره، وتنظم شئونه، حتى تصونه
 من الاضطراب والفوضى شأن كل مجتمع، فإذا قارنا بين خصائص المرأة وخصائص
 الرجل وعرفنا أن الإسلام أوجب نفقة المرأة على زوجها لم يكن هناك مشاحة في
 أن نعطي هذا الزوج درجة الرئاسة، لما تميز به من خصائص، وما يقوم به من نفقة،
 وهذه هي المساواة في شريعة الإسلام بين الرجل والمرأة، فإن المساواة لا تعني تساوي
 اثنين في جنس عمل واحد فحسب، ولكنها تعني كذلك أن تتساوى الحقوق مع
 الواجبات في العمل المتفاوت، وهذا هو ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ
 بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^٤. وبين القرآن الكريم هذه الدرجة في آية
 أخرى، وهي القوامة ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾^٥.

وكيان الأسرة في الإسلام يتسع ويمتد لتحقيق مزيد من الترابط والوثام بين أفراد
 المجتمع.

فالإسلام يحرم الزواج من المحارم، ومن أهداف التحريم وقاية الأسرة من

- | | |
|--------------------------------------|--------------------------------|
| ١ - من حديث رواه الجماعة إلا الترمذي | ٢ - الآية (٢١) من سورة الروم |
| ٣ - الآية (٣٢) من سورة النور | ٤ - الآية (٢٢٨) من سورة البقرة |
| ٥ - الآية (٣٣) من سورة النساء | |

المشاجرة والخصومة والبغضاء، وأن تتسع دائرة الأسرة فيتحقق بالزواج من أسباب المودة والنسب ما لم يتحقق بالقرابة، فالقرابة الحميمة لا حاجة إلى توثيقها بالنسب والمصاهرة، وإنما تمس الحاجة إلى إضافة أعضاء جدد إلى هذه القرابة بالزواج من غيرها ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾^١.

ويأتي نظام الميراث ليجعل كيان الأسرة ممتدا في عمر الزمن، بعد انقضاء أعمال أعضائها، فإن الأسرة دعامة من أكبر دعائم الاجتماع، لا تنعقد ثم تنفطر مرة في كل جيل، بل هي وحدة تناط بالدوام، وهذا من شأنه أن يحفز الفرد في المجتمع الإسلامي إلى بذل ما في وسعه للإنتاج، فلا يضمن بقريحته وجهده وكفايته، فإن ثمة ذلك لفلذات كبده من بعده، وفي هذا كسب لمجتمعه، بل للحياة الإنسانية كلها. ويتم الوثام بين أفراد الأسرة بما فرضه الإسلام من حقوق لكل فرد من أفرادها. فلا حق لإنسان على إنسان أعظم من حق الآباء والأمهات في الإسلام على الأبناء والذرية.

التكافل في القرابة والرحم والجيرة :-

وينتقل الإسلام في تكافله من دائرة الأسرة الضيقة إلى دائرة أوسع قليلا، هي دائرة القرابة والرحم والجيرة.

ليس الناس على درجة سواء في القدرة على الكسب، وقد يعرض لأحدهم ما يقعه عن العمل، فلا يجد ما ينفقه، أو يجد مالا يكفي، والإسلام لا يترك أمثال هؤلاء بدون عائل، بل يوجب نفقتهم على من يمت إليهم بصلة من أواصر الأبوة أو الأخوة أو المصاهرة تحقيقا للتكافل الاجتماعي، ويشمل هذا التكافل عموم الورثة في المذهب الأصح، فكل من يرث الفقير العاجز عن الكسب إذا مات غنيا تجب عليه نفقته في حال عجزه مهما كانت درجة القرابة ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾^٢.

ويذهب بعض الفقهاء إلى وجوب هذه النفقة على اختلاف الدين للأصول على

١ - الآية (٥٤) من سورة الفرقان

٢ - الآية (٢٣٣) من سورة البقرة

فروعهم، والفروع على أصولهم. مما يدل على إنسانية الإسلام وتسامح شريعته.
وإذا لم يكن للفقر العاجز قريب غني ينفق عليه فإن نفقته تجب من بيت مال
المسلمين.

ويشمل هذا التكافل بين الأقرباء رعاية الضعفاء الأغنياء الذين يتولى الله
باليتم أو السفه، فيوجب الإسلام أن يقوم على اليتيم وليه، تربية له، وصيانة
لماله، وتنمية لشرائه ﴿ وَبَسَلُونَا مِنَ الْيَتَامَى قُلْ أَصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ مِنْ نَخَالِطِهِمْ فَأَخْوَانَكُمْ ﴾ حتى يبلغ
رُشدًا فيتولى أمره بنفسه ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ
وكذلك الشأن في ولاية مال السفه الذي لا يحسن التصرف في ماله لجنون أو عته
أو تبذير وان كان كبيراً. لما في أموال الأفراد من مصلحة جماعية للأمة ﴿ وَلَا تَوَدُّوا
السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾^٢.

وأقرب أسرة بعد أسرة القرابة هي أسرة الجوار ولذا كان الجيران أحق
بالاحسان والبر والعطف من غيرهم. ويعتبر حقهم من مقتضيات الإيمان « ما زال
جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »^٤. « ليس المؤمن الذي يشبع وجاره
جائع »^٥.

التكافل العام بين افراد المجتمع :-

ثم يأتي دور التعاون المشترك في المصلحة الجماعية عندما ينتقل الفرد من محيط
الأسرة إلى محيط القرابة، ومن محيط القرابة إلى محيط الجماعة، وهنا نجد العلاقات
الاجتماعية قائمة بين أفراد المجتمع المسلم على قدم وساق بالعدل الكامل في الحقوق
والواجبات، فإن كل فرد من المجتمع الإسلامي على ثغرة من ثغور الإسلام، يقوم
على حمايته، يبذل الطاقات المختلفة لصالح الأمة.

٢ - الآية (٦) من سورة النساء

٤ - متفق عليه

١ - الآية (٢٢٠) من سورة البقرة

٣ - الآية (٥) من سورة النساء

٥ - رواه البخاري في الأدب المفرد، وغيره

والملكية الفردية التي أباحها الإسلام بوسائل الكسب المشروعة مقرونة
بالنظرة الجماعية، فالإسلام يقرر إزاء هذه الملكية أن المال مال الله، فهو مالكة
الحقيقي، وإنما استخلف الناس عليه لتنميته وحفظه والانتفاع به على وجه تتحقق فيه
مصلحة الأفراد ومصلحة الجماعة من غير إضرار بالآخرين ﴿ اٰمَنُوۡا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِۦ وَاٰنْفِقُوۡا
مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلَفِيْنَ فِيْهِ ۗ ﴾^١. ولذا حرم الإسلام الربا والاحتكار والغش وكل بيع
فيه غرر.

ويفرض الإسلام في هذا المال الزكاة، ويجعلها حقا معلوما لذوي الفاقة
والعوز، لا منة فيه لغني على فقير، يأخذها المحتاج باستحقاق عن عزة نفس
﴿ وَفِيۡۤ اٰمَوٰلِهِمْ حَوٰلٌ لِّلرِّسَالِ وَالْمَحْرُوْمِ ۗ ﴾^٢.

وهي واجبة في انفس الأموال، وأكثرها تداولاً، وأعظمها نفعاً، فتجب:
أ - فيما يخرج من الأرض من الزرع والثمار.
ب - وفي بهيمة الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم.
ج - وفي النقدين: الذهب، والفضة.
د - وفي عروض التجارة.

ويتراوح ما يجب في هذه الأموال بين العشر وربع العشر، وهذا يعني أن الفقراء
والمساكين وذوي الحاجة يشاركون اصحاب رءوس الأموال بنسبة تعدل نصف
الأرباح السنوية المحتملة غالباً.

ثم تأتي الصدقات ووجوه البر التي تفيض فيها المشاعر الإنسانية بعواطف
الرحمة، فتظل المجتمع الإسلامي بأكرم المعاني، توثيقاً لروابط الحب، وتقوية لأواصر
الإخاء.

وليست الصدقات في الإسلام تفضيل إنسان على إنسان، ولكنها قرض رابح
يقرض فيه المتصدق ربه المنعم، ليحظى بعظيم الثواب ومضاعفة الأجر.

١ - الآية (٧) من سورة الحديد

٢ - الآية (١٩) من سورة الذاريات

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (١١) ﴿١﴾

فالأمة الإسلامية مسئولة عن فقرائها ومعوزها وذوي العاهات والمصابين فيها، وإذا لم تف الزكاة فقد وجب على القادرين ما يسد عوز المحتاجين، مطعمها ومشربها وملبسها ومسكنها. قال ابن حزم: «فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم، فالمسلم أخو المسلم، ومن لا يرحم الناس لا يرحمه الله. ومن الحديث «أيا أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله»^٢.

والدولة متكافلة مع أبنائها في ذلك. عليها ان تعول المرضى، والزمنى، والمحتاجين، وأن تسد ديون من لا مال له، وان تتحمل تبعات الديات عمن ارتكب الجناية خطأ وليس له عصابة يعقلون عنه، وهي مسئولة عن تلبية حاجات الأمة ورعايتها، وتوفير المرافق العامة لها، كالتعليم والصحة، ومن واجبها القيام على شريعة الله، وصيانة الحقوق، وحماية الأخلاق، وتحقيق الأمن، وحراسة المجتمع «الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته. فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»^٣.

التكافل في حماية الأخلاق والعقيدة :-

وإذا كان المجتمع الإسلامي مجتمع العقيدة فإن تكافله الاجتماعي يتجاوز حدود المال وتأمين العيش، إلى حماية المجتمع من الرذيلة والفساد، يسهم في هذا جميع الأفراد على اختلاف قدراتهم ما استطاعوا «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^٤.

قد تحسن تربية ولدك في البيت تربية إسلامية صحيحة على مفاهيم الإسلام

١ - الآية (١١) من سورة الحديد

٢ - رواه احمد وانظر المحلى ص ٤٥٢ ج ٦

٤ - رواه مسلم واحمد

٣ - متفق عليه

وسلوكه، ولكن هذا الولد لن يعيش في عزلة عن واقع حياة مجتمعه، وإذا كان المجتمع موبوءا بسوء الخلق وفساد الضمير واضطراب الأحوال، فإن هذا الوباء سينفث سمومه ليحبط هذه التربية، وقد صحح أبو بكر رضي الله عنه هذا الفهم الخاطيء في ترك الرذيلة وإغفال شأنها في قوله: «يأيها الناس. إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه».

هذا النوع من التكافل من خصائص الإسلام، ويصور الرسول صلى الله عليه وسلم تعاون الأمة فيه حماية لدينها بقوله «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فاصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا. وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا»^١. والله تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^٢.

وبهذه النظرة الواسعة إلى مفهوم التكافل الاجتماعي في الإسلام يكون المجتمع الإسلامي مسئولاً مسئولاً مشتركة عن أي فرد من أفرادها، يقعه العجز عن الكسب، أو يعضه الدهر بناه، أو تنتابه كارثة، أو ينحرف سلوكه. سلوكه، فالجماعة المسلمة أسرة كبيرة متكافلة في شئون الحياة كلها، والصورة الحقة لها في المثل الرائع الذي ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^٤.

٢ - رواه البخاري

١ - رواه أبو داود والترمذي والنسائي

٤ - متفق عليه

٣ - الآية (٧١) من سورة التوبة

هـ- الحق والواجب

يأتي الحق بمعان كثيرة، ونعني به في بحثنا هذا ما يكون لازماً في الذمة. كما يطلق الواجب على معان كثيرة كذلك، نعني به هنا ما يلزم الانسان القيام به، إبراء لذمته، وأداء لما في عهده.

وحياة المسلم قائمة على الشعور بالمسئولية، التي تقتضي أداء واجباتها، وما من حق الا ويقابله واجب إزاءه، وتتكافأ الحقوق والواجبات في الإسلام. وفي مقدمة هذه الحقوق حق الله على عباده، في وجوب توحيده، والاخلاص له، وعبادته وحده، والبراءة من الشرك بضروبه، والانقياد لشريعته، وامثال أمره، واجتناب نهيه، واتباع رسوله. وسائر ما فيه تحقيق معنى العبودية لله. وقد اخذ الله على عباده - فضلاً منه وكرماً- ان فعل عباده ذلك، أن يحسن جزاءهم، ويقيهم عذابه.

ولكل مسلم حقه نحو أخيه، وواجبه تجاهه، وعلى رأسها جميعاً حقوق الحرمات الكبرى، في النفس والمال والعرض، حيث أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمتها بجرمة الزمان والمكان يوم النحر فقال: «إن دماءكم وأموالكم واعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا»^١.

ومن حقوق المسلم على المسلم: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، واجابة الدعوة. وتشميت العاطس، ونصرة المظلوم^٢.

وللمرأة البالغة حقها في اختيار زوجها، بكرًا كانت أو ثيبًا «الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر تُستأذن في نفسها، وإذنها صماتها»^٣.

١ - متفق عليه

٢ - راجع ص ١٢٨ وما بعدها من هذا الكتاب «حق المسلم»

٣ - رواه الجماعة الا البخاري

ولها حق المهر تحوزه وتتصرف فيه، وحق النفقة بالمعروف، مطعما ومشربا وملبسا ومسكنا، وحق العشرة الحسنة، حبا ومودة، وتعاطفا وتراحما. ومن حقها أن تطلب التفريق بينها وبين زوجها في حالات خاصة. كالعيوب الخلقية المانعة من أداء الوظيفة الزوجية في حفظ النوع البشري بالتناسل، والعيوب المستعصية التي تؤدي الى النفرة الشديدة وتستوجب البعد عنها لأنها تتعدى الزوج الى الزوجة والنسل، وكالاعسار بالنفقة والعجز عن القيام بمؤنتها. وللرجل حقه على امرأته، فهو القوام عليها، بما خصه الله من ميزات فطرية تؤهله للقيادة قدرة وإرادة وحزما، وبما أوجب الله عليه من تبعات النفقة والتزاماتها. ومن واجب المرأة أن تسمع له وتطيع^١، وان تقوم على تدبير شئون البيت، وتحافظ على ما فيه، وتتولى تربية الطفولة، أداء لحقوقه الزوجية، وواجب الأمومة، ومراعاة لخصائص الأنوثة، فإن البيت مملكة المرأة.

وللأقارب حقهم من النفقة والبر والإحسان والصلة والعون^٢. وللرحم حقها في التواد والتناصح والتزاور والمعونة، وايصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر، ومن وصل رحما وصله الله، ومن قطعها قطعه الله. وللجار حقوقه، وتتاكد هذه الحقوق إذا كان جارا مسلما له رحم، فمن حقوقه إيصال ضروب الإحسان إليه، كالهديّة، والسلام، وطلاقة الوجه عند لقائه، وتفقد حاله، ومعاونته فيما يحتاج إليه، وكف أسباب الأذى عنه، وترك الإضرار به، وإرادة الخير له، وموعظته بالحسنى «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^٣.

ولليتيم حقه في صيانته ماله، وتنمية ثروته، وحسن رعايته، ودفع الشر عنه، والقيام على تعليمه وتوجيهه وتربيته، والعناية بأموره، والعطف عليه بما يعوضه عن

١ - حيثما ذكرنا الطاعة فالمراد بها الطاعة في المعروف

٢ - راجع حق الوالدين والأقارب ص ١٢٣ من هذا الكتاب

٣ - متفق عليه

عطف والده «أنا وكافل اليتيم من الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما».

وللطريق حقها إذا لم يكن بد من الجلوس فيها، وذلك بغض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحسن الكلام، وهداية الضال، وإغاثة الملهوف، ولو كان الجلوس على باب متجر أو مصنع، أو في شرفة منزل، حيث يرى الجالس السابلة، ويرى سكان المساكن التي تقع تجاهه. ومن واجب المسلم النصيحة لأئمة المسلمين، لإعانتهم على الحق، وتقويم أمرهم، وتذكيرهم بحوائج الناس، وإرشادهم إلى ما قد يغفلون عنه. ومن واجبه النصيحة لعامة المسلمين بإرشادهم إلى مصالحهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وحفظ حرمتهم.

وكل إنسان وُكِّلَ إليه أمر يرعاه، فهو مسئول عنه، إن أحسن في القيام به، وأدى الواجب عليه، وأخلص النية فيه، كان له الأجر، وعاد ذلك على أمته بالخير. فالإمام - من ملك أو حاكم - له حقوقه الواجبة على رعيته، في طاعته، ومساندته، وشد أزره، والنصح له.

وعليه واجباته، في إقامة العدل بين أبناء أمته، والاستماع لنصائحهم، والذود عن كرامتهم، والحرص على مصالحهم، واحترام حرياتهم، وتيسير سبل المعيشة لهم، وتحقيق الأمن في بلادهم، والقيام بواجب الدعوة، والدفاع عن حماها. ولرب الأسرة حقوقه في الاحترام والتقدير، والبر، والطاعة. وعليه واجباته، في الكسب والنفقة. والتربية والتهديب والتعليم وكرم الرعاية، وحسن الولاية، والعشرة بالمعروف.

ولللخادم حقوقه في الأجر المجزى العادل، والنفقة المشروعة، والتأديب الحسن، وعليه واجباته في حفظ ما عهد إليه به من مال والعمل على تنميته، ورعاية مصالح مخدمه.

وللمعلم حقوقه، في تقدير منزلته، وحفظ كرامته، والإنصات لدرسه، والاستماع
لنصائحه، وأداء الواجبات التي يكلف بها طلابه.
وعليه واجباته في الاعداد لدرسه والحفاظ على وقته، والأمانة في علمه،
والإخلاص في عمله، والتوجيه السديد لطلابه، والحرص على إفادتهم، والرد على
أسئلتهم في غير تعنت.

وللطالب حقوقه، وعليه واجباته بالمثل.

ومدير المدرسة، أو مدير التعليم، أو عميد الكلية، أو مدير الجامعة، أو رئيس
المصلحة.. أو الوزير، أو الأمير، أو الصانع، أو التاجر، هؤلاء جميعا ونظائرهم
لهم حقوقهم، وعليهم واجباتهم، فكل فرد في الأمة مسئول عما وُكِّلَ إليه القيام به
من أعمال ومصالح وأموال، وفي رعاية القيام بالواجبات والحقوق يقول صلى الله
عليه وسلم: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. الإمام راع ومسئول عن
رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت
زوجها ومسئولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته،
فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

و قد وردت الطاعة لكل من الله ورسوله وجاهه
أما طاعة أدي لا أمر ليست مطلقة، و هي من
أمره يستلزم
الانقياد إلى أدي أمر و - الانقياد والطاعة في المعروف
ملازم ذلك على ذلك

لا يستقيم أمر جماعة من الجماعات حتى يتولى شئونها من يقيم العدل بين أفرادها، ويرعى أحوالهم، ويقوم معوجهم، ويسهر على مصالحهم، وهؤلاء الذين يعهد إليهم بالشئون العامة هم أولو الأمر الذين يتولون أمور المسلمين، من ملك ووزير، ورئيس وأمير، وقاض ومدير، وسائر من يعهد إليه بولاية من الولايات. وقد أوجب الإسلام الانقياد إلى أولي الأمر، وطاعتهم في المعروف، حفاظا على وحدة الجماعة، ووفاء بالبيعة، واستقامة لأمر الأمة، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

ودلت الآية على وجوب طاعة كل من الله ورسوله استقلالا طاعة مطلقة، حيث ذكر الأمر بالطاعة مع كل منهما، فإن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم في التشريع بإجماع الأمة، ولم يكرر الأمر بالطاعة مع أولي الأمر، فدل هذا على أن طاعتهم ليست مطلقة، إذ لا عصمة لهم، وإنما تجب طاعتهم ما لم يأمرُوا بمعصية. وما أكثر ما يتولاه أولو الأمر من مصالح، وما يصدر من أوامر، في مرافق الحياة المختلفة! في شئون التعليم، والامن، والصحة، والتجارة، والزراعة، والجهاد، وغير ذلك من شئون الأمة العامة، فهذه الشئون المتعددة يجب طاعة أولي الأمر فيها، والانقياد لما يأمرون به، سواء وافقت أوامرهم رغباتنا أم لم توافقها، شق ذلك علينا أم سهل! ما دام يحقق مصلحة عامة من مصالح الأمة في دائرة ما يباح شرعا.

يضع ولي الأمر نظاما للسير والمرور في الطرقات كالاتجاه إلى اليمين، والوقوف عند تقاطع الطرق، ومراعاة اشارات خاصة للسير والوقوف، فيجب علينا الانقياد لهذا لأنه يحقق مصلحة عامة من مقاصد الشريعة، هي الحفاظ على أرواح الناس،

١ - الآية (٥٩) من سورة النساء

وسلامة أبدانهم.

ويضع ولي الأمر نظاما للتعليم في مراحلہ ومناهجہ، ومقاييس التعرف على المستوى العلمي لتقدير النجاح والرسوب، والانظمة المتعلقة بذلك، فهذا يجب اتباعه والانقياد له،، لانه من الأمور المباحة التي تحقق مصلحة للجماعة. فاذا أمرنا أولو الأمر بمعصية فانه لا يجوز طاعتهم فيها، اذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^١

وحفاظا على جمع الكلمة، وصيانة لحرمت الأمة، فان الاسلام يأمر بالصبر على جورهم، وتحمل أذاهم، والدعاء لهم بالتوفيق والسداد، فيحرم الخروج عليهم ما لم يأتوا كفرا بواحا، ليس لهم عليه من الله سلطان، لما في الخروج عليهم من الفساد اضعاف ما يترتب على جورهم وظلمهم، ومن قواعد الشريعة الاسلامية. أنه إذا تعارضت مفسدتان ارتكب اخفهما اتقاء لاشدهما.

عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: الا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان»^٢

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت الا مات ميتة الجاهلية»^٣

١ - اخرجہ البخاري ومسلم

٢ - اخرجہ البخاري ومسلم

٣ - رواه مسلم

فلا يجوز الخروج على أولى الأمر حتى يخرجوا عن دين الله خروجا لا تأويل فيه، كما لا تجوز مخالفتهم الا فيما فيه معصية لله ورسوله. «اسمعوا واطيعوا وان أمراً عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»

والاسلام بهذا النهج السيد يحرص على وحدة الأمة، وسلامة الجماعة، ما دامت قائمة على الحق، ومع السمع والطاعة لأولي الامر فان طاعتهم في المعروف، فاذا أمروا بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

الاسلام دين - لساواد -
كيف نحق هذا المبدأ؟

ز - المبادئ الإنسانية التي كفلها الإسلام بصورة فاضلة

قاست الإنسانية في عصور التاريخ المتعاقبة ألواناً من العسف، اهدرت فيها كرامة الإنسان عصراً بعد عصر، وشهد الناس المدنية الغربية الحديثة وما ارتكبه باسم الحضارة، من استعباد الشعوب واذلال الأمم في صور مختلفة تحت شعار الحماية والوصاية، تارة بالاحتلال العسكري، وأخرى بالنفوذ الاقتصادي، واصطلى العالم بظلم الأحداث الجسيمة التي ارتكبتها الدول الكبرى في التمييز العنصري، وامتصاص خيرات الشعوب الكادحة الضعيفة، وحين أرادت هذه الدول الكبرى التي تأخذ بناصية السياسة العالمية أن تمن على الشعوب، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بقرارها ذي الرقم (٢١٧) والتاريخ (١٠ من ديسمبر سنة ١٩٤٨م) وذلك في دورة انعقادها العادية الثالثة، وقد تضمن هذا الإعلان العالمي مبادئ إنسانية للحفاظ على كرامة الإنسان وحقه المشروع في الحياة، ولكن هذه المبادئ ظلت حبراً على ورق، ولا تزال الدول التي وقعت عليه تمارس في بلادها وفي البلاد الخاضعة لنفوذها التمييز العنصري، والاجحاف بأدنى مستوى يليق بكرامة الإنسان.

والإسلام الذي انبثق فجره منذ أربعة عشر قرناً قد كفل المبادئ الإنسانية في صورة يعزها نظير في الحرية، والعدالة، والمساواة، والأخوة.

١ - الحرية :-

كفل الإسلام لبني الإنسان الحرية الحقة، وهي الحرية المتزنة التي لا تخل بالآداب العامة، ولا تتحول إلى فوضى وإباحية، ولا تعتدي على حرية الآخرين، فللشخص أن يتصرف في شئون نفسه آمناً من الاعتداء عليه، وهو في هذا يتمتع بحريات عدة.

أ - حرية التملك :- للإنسان أن يملك بالوسائل المشروعة حسب جهده، وله حرية

« يوزع مجاناً ولا يباع »

التصرف في ماله بالوجه الشرعي، وأن يطرق أبواب الكسب ويلج وسائل الاستثمار قدر استطاعته، وليس لأحد أن يعتدي على مال غيره.

وطرائق التملك في الاسلام مشروطة بشروطها التي تحقق العدالة بين الناس فيما يكون من مفاوضات، فلإنسان إرادة في تصرفاته، وعليه أن يرعى حقوق الآخرين فلا يضر بهم، وان أخل بشيء من ذلك كان مسئولاً عن فعله ملزماً بالتعويض، وقاعدة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾^١ وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا ضرر ولا ضرار»^٢ وصيانة لحرمة التملك المشروع شرع الاسلام حد السرقة، وحرم الغصب والنهب.

ب - حرية الرأي: - الراي: - وكفل الاسلام حرية الرأي، فللمسلم أن يبدي رأيه في شئون الامة الدنيوية في مجال تخصصه، وله أن يجتهد اذا بلغ درجة الاجتهاد في الامور الدينية، بشروط الاجتهاد التي حققها العلماء، عند عدم النص في حدود اصول الدين وقواعده الكلية، والقياس الصحيح من مصادر التشريع. وهو مأجور أصاب أو أخطأ «اذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، واذا حكم فاجتهد فإخطأ فله أجر واحد»^٣ وما ورد من ذم الرأي فالمراد به الرأي الذي ينساق فيه صاحبه عن هوى وجهل، دون الرأي المستند الى اصول عامة في الكتاب والسنة.

ج - حرية المأوى: - وكفل الاسلام حرية المأوى، فللبيت المسكونة حرمتها، حماية لذويها وصيانة لعوراتهم، وما يجب المرء أن يتحفظ به من الناس، فلا يجوز دخولها الا باذن ورضا من أصحابها. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾^٤

ومن حق صاحب البيت، أن يرفض مقابلة أي انسان أو يعتذر اليه أن كان لديه ما يشغله عن مقابله، فلا ينبغي أن يلح الانسان في الاستئذان «اذا استاذن

١ - الآية (١٨٨) من سورة البقرة

٢ - رواه احمد وابن ماجه

٣ - رواه احمد وابو داود والنسائي وابن ماجه

٤ - الآية (٢٧) من سورة النور

أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع»^١

الفردية :- وكفل الاسلام الحرية الفردية، فلا يصح لاحد أن يعتدي على آخر في ذاته أي اعتداء من شتم أو ضرب، أو اتلاف عضو أو قتل... وقد نص الشارع على عقوبات بعض ذلك، وترك بعضها الآخر لولي الأمر تعزيراً

﴿فَمَنْ عَتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعِدْهُ وَاَعْلَنِيهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾^٢

٢ - العدالة :-

كفل الاسلام العدالة التي تحقق للانسان حياة آمنة يتمتع في ظلها بالطمأنينة والسعادة، حيث يرس الاسلام دعائم العدل في ارقى صورة يطمئن الناس فيها على حقوقهم، ويأمر الله تعالى به في مطلع المبادئ التي ترتكز عليها دعائم الحياة الكريمة

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^٣

أ - عدالة الانسان مع نفسه :-

تنبع جداول العدل في الاسلام من العدل الالهي، وبداية ذلك في عقيدة التوحيد التي يقوم مضمونها على العدل. فالله الخالق الرزاق ذو القوة المتين الذي اسبغ نعمه على عباده ظاهراً وباطناً هو الذي يستحق ان يدين الناس له وحده بالخضوع والطاعة. فهو المعبود بحق دون سواه، ومن الظلم الفاحش ان يمنح العبد شيئاً من الولاء الا لمولاه الذي خلقه فسواه، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً، وأحاطه بالآلاء التي لا تحصى، وغمره بالفضل والاحسان، ثم يكون ولاؤه للناس في الله بعد ذلك. ولذا كان الشرك أعظم الظلم، قال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن عدالة الانسان مع نفسه أن يستقيم على شرع الله، وان يكون سلوكه في الحياة منسقا مع عقيدة العدل التي يدين بها، يرعى حدود الله في السر والعلن، فاذا

٢ - الآية (١٩٤) من سورة البقرة

١ - رواه البخاري ومسلم وأبو داود

٤ - الآية (١٣) من سورة لقمان

٣ - الآية (٩٠) من سورة النحل

تجاوز ذلك كان ظلما لنفسه ﴿وتلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾

ب - العدل في بناء الاسرة :- الاسرة لبنة المجتمع ، وفي كنفها يتربى أبناء الامة في أطوار حياتهم الاولى التي تعتمد على المحاكاة والتقليد . واذا كان الغرس في أي تربة ارضية يستمد غذاءه وعناصر حياته ومقومات خصائصه من التربة التي غرس فيها ، فان نابتة الامة تستقي كثيرا من خصائصها النفسية والعقلية والأخلاقية من معين الاسرة بين أحضان الوالدين ، ولذا راعى الاسلام أن تكون تربة النشء في التناسل البشري تربة خصبة ، تنمو فيها خصائص الانسانية الفاضلة وتزهر ، لتؤتي ثمارها الطيبة في كيان المجتمع المسلم ، وأخص ما تتميز به هذه التربة في بناء الاسرة انها تقوم على العدل في الحياة الزوجية ، فقد اباح الله الزواج بواحدة إلى اربع ، ولكن الزواج بأكثر من واحدة جاء مشروطا بالعدل بين الزوجات ، بل ان الخوف من الظلم يكون مانعا من إباحة التعدد ، موجبا للاقتصار على واحدة دفعا لمفسدة الجور ، حتى يتربى الاطفال في بيئة يتحقق فيها العدل ليكونوا دعامة له في بناء امتهم . ﴿فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنِي وَثُلَّةَ وَرُبَاعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوِلُوا﴾^٢

والحقوق والواجبات بين الزوجين ، وبينها وبين الذرية تقوم على العدل ، في مراعاة الخصائص النفسية ، والقدرات الشخصية ، والواجبات الفردية ، وتبعات النفقة ، واداء الجميل لمستحقه .

ج - العدل في القضاء والحكم :- وأمر الاسلام بالعدل في القضاء والحكم . فالمفاوضات المالية توثق عقودها بالكتابة والاشهاد ، حفظا للحقوق وحماية لها من المجحود ، حتى اذا تجاحد الناس كانت الوثيقة حجة فاصلة تقطع دابر الخصومة ،

١ - الآية (١) من سورة الطلاق

٢ - الآية (٣) من سورة النساء

والاسلام يفرض ان تكون كتابة الوثائق بالعدل ، ﴿ وَلِيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾^١
 كما يوجب عدالة الشهود في العقود كلها ﴿ وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾^٢
 واذا كانت بعض النفوس تميل الى الظلم الذي يحملها على الملاحاة واللجاج في
 الخصومة ، فان الأمر ينتهي الى القضاء للفصل بالحق ، والاسلام يوجب أن يكون
 الحكم بين المتنازعين قائما على تحقيق العدل بينهما ، يتوخى فيه الحاكم احقاق
 الحق ، لان ذلك من أمانات الله في الارض ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ لَآتِيٌّ وَالْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذْ حَكَمْتَهُ
 بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾^٣ .

د - سمو عدالة الاسلام المطلقة ومع أهل الاديان الاخرى :- والعدل الذي امرت
 الامة الاسلامية بالقيام به في شئون الحياة كلها عدل يصل بالانسانية الى المستوى
 الرفيع الذي تستعلي به على الاعتبارات كلها سموا وعظمة . انه عدل مطلق ،
 يستأصل النزعات النفسية التي تباعد عنه ، ويقف في وجه كل القوى التي يحتمل ان
 تؤثر عليه ، يقف في وجه النفس ذاتها ، وفي وجه عواطفها تجاه الوالدين والأقربين ،
 وفي وجه المشاعر الفطرية في الشهادة للاغنياء رغبة في نفعهم ومجاملة لهم ، أو خوفا
 منهم ورهبة من سلطانهم او الشهادة للفقراء شفقة بهم ، وفي وجه المقتضيات
 الاجتماعية في الشهادة على الاغنياء نقمة عليهم ، أو على الفقراء احتقارا لشأنهم
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ
 أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾^٤ .

ويصل الاسلام الى القمة في ضبط النفس حين يفرض على امته القوامة على
 البشرية ان لا يحملها الشنآن على أن تميل عن العدل ، لانها تجرد نفسها لله ،
 وتستشعر تقواه ، وليس هناك من نظام بشري ، أو حكم قضائي ، يكفل العدل المطلق
 للاعداء المبعوضين كما يكفله الاسلام ، لانه دين الله الى البشرية كافة ، وفي ظله

١ - الآية (٢٨٢) من سورة البقرة

٢ - الآية (٢) من سورة الطلاق

٣ - الآية (٥٨) من سورة النساء

٤ - الآية (١٣٥) من سورة النساء

يتمتع الناس جميعا بالعدل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ويقول صلى الله عليه وسلم: «من آذى ذمياً فإنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»^١ ويقول: «الا من ظلم معاهدا، أو تنقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فأنا خصمه يوم القيامة».

وقد حفظ التاريخ الاسلامي امثلة من عدل حكامنا مع أهل الذمة كانت سبيلا للهداية، وباعثا على الدخول في الاسلام، وبمثل هذا كان العدل الاسلامي بمنهجه العملي مثلا حيا لما تنشده الانسانية من سعادة ورفق وتقدم، فأين هذا مما عليه العالم المتحضر اليوم من تعسف وجبروت؟

٣ - المساواة:

ان نظرة الاسلام في بناء مجتمعه بعيدة المدى، تتسع آفاقها أقطار الأرض، وتضم تحت لوائها أجناس البشرية، فان البشر جميعا وان اختلفوا وطنا ولغة ينحدرون من سلالة واحدة، تتصل هذه السلالة بنفس واحدة، خلق الله منها زوجها، ثم بث منها أبناء البشرية الذين يعمرن الارض اليوم في مختلف أرجائها، وقد انتشرت ذرية هذين الزوجين وتكاثر عددها، وأصبحت قبائل وشعوبا وامما منبثة على ظهر المعمورة، وأدى هذا الانتشار لعوامل طبيعية واجتماعية الى فوارق فطرية في اللون واللغة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^٢ وتلك حقيقة يعترف بها الاسلام ليرفض بشدة ان تكون هذه الفوارق أساسا لتقسيم الناس، تثير النزعات القومية أو الوطنية، أو عصبية السلالة واللون واللغة «ليس منا من دعا الى عصبية، وليس منا من قاتل على

١ - الآية (٨) المائدة - ولا يجرم منكم شنان قوم: أي لا يحملنكم بفضهم

٢ - خرجه الخطيب وقال السيوطي: إنه حديث حسن

٣ - الآية (١) من سورة النساء

عصبية، وليس منا من مات على عصبية^١ وكسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار، فقال الانصاري يا للانصار. وقال المهاجري يا للمهاجرين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوها فانها منتنة»^٢.

فأي فرق بين انسان وآخر ينشأ من اختلاف النسب والبيئة ويدعو الى التعاضم والتفاخر فهو في نظر الاسلام من آثار الجاهلية وضلالاتها. لان صوت الوحي يدوي في أذن الدنيا ان افراد البشر جميعا في اي صقع من اصقاع الارض امة واحدة، يرتبط كل فرد منهم مع الآخر برباط النسب الوثيق الممتد في تاريخه الى نواة البشرية الاولى من ذكر وانثى.

حقيقة التفاوت: ويقر الاسلام واقع التفاوت بين الناس في مواهبهم وقدراتهم، وما يترتب على ذلك من تفاوتهم جهادا وبذلا وعلما وخلقا، وقدرة على أسباب المعيشة

﴿أَمْ نَقِمْونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسِمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾^٣

ولكن الاسلام لا يرجع هذا التفاوت الى عصبية في الجنس، أو شرف في الاسرة، أو وراثة للسيادة، إذ لا فرق في ذلك بين انسان وانسان أو قبيلة وقبيلة.

فالتفاوت موجود لتفاوت الناس في المزايا ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٤ والحياة مفتقرة الى هذا التفاوت لتظل متجددة تستزيد بالملكات المتعددة.

ولكن التفاوت الذي اقره الاسلام لا يسمح بوجود نظام طبقي من سادة وعبيد، وأشرف وخدم، وهو يرد على هؤلاء الهدامين الذين يسمون انفسهم بالماركسيين حين يتصورون في خيالهم مجتمعا يزعمون ان الناس فيه لا يتفاوتون في الحظوظ والارزاق، فيصطدمون مع الفطرة والواقع، وقد انكشفت لعبتهم لدى كل ناقد بصير، فيما أصاب مذهبهم من تغيير وتبديل، وظهر هذا التفاوت جليا، رغم ما يدعون من عدل اجتماعي في مجتمع متكامل.

٢ - من حديث مخرج في الصحيحين

١ - رواه ابو داود

٤ - الآية (٩) من سورة الزمر

٣ - الآية (٣٢) من سورة الزخرف

فمن الجور ان نفرض ان الناس جميعا سواء فنقضي على القادرين المستعدين
 للصعود، أو نسوي بهم العاجزين الحاقدين، وليس مقبولا لدى العقول السليمة ان
 نسوي بين الطالب الذكي والطالب الغبي، وبين الطالب المجد والطالب المهمل.
 والعدل الحق فيما جاء بشريعة القرآن. في أن يكون لكل واحد من الحقوق بقدر
 ما عليه من واجبات. وفيما عدا ذلك فإنهم جميعاً سواء، فالتفاوت إنما يكون بالفضل
 وفعل المعروف وتقوى الله ﴿إِنَّ كَرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بِتَقْوَاكُمْ﴾^١

هذا هو تصور الاسلام للانسانية، فالناس جميعاً لا يختلفون في النسب واللون
 والوطن واللغة، لأن أصلهم واحد، ولا فضل في ذلك لأحد على آخر، وتلك
 عوارض طارئة، وإنما يأتي الاختلاف بحسب أفكارهم وأخلاقهم وعقائدهم ومثلهم
 العليا في الحياة.

٤ - الأخوة:

ألفت الاوضاع البشرية في تكوين الدولة اعتبار الجنس والعنصر واللغة
 والوطن. والاسلام - وهو دين الله الى البشرية كافة - يسمو عن جميع هذه
 الاعتبارات الشخصية المحدودة الضيقة لأنها تنافي عالميته، ويوحد بين الذين يؤمنون
 بعقيدته أيا كانوا جنسا أو عنصرا أو لغة أو وطنا، فكل من آمن بعقيدة الاسلام
 والتزم القيام بحقوقها ورضي بها منهجا عمليا لحياته، فقد اصبح عضوا من أعضاء
 مجتمعها، وفرداً من أفرادها، يستوي في هذا ان يكون افريقيا أو اوروبيا، اسود
 أو أبيض، ساميا أو آريا، عجميا أو عربيا، فلا اعتبار لشيء من هذه الفوارق
 الوطنية او اللونية او النسلية أو القومية، ومثل هذا المجتمع الذين يدين بإله واحد
 يدخل في حوزته كل من يؤمن بكلمة التوحيد (لا اله الا الله) وبما جاء به الرسل من
 الهدى والحق، وبالرسول الذي جاء مصدقا للرسل جميعا وختم الله به رسالاتهم
 (محمد رسول الله) ويأخذ نفسه بشريعة الاسلام وهديه.

١ - الآية (١٣) من سورة الحجرات

ومثل هذا المجتمع يتجاوز حدود الأرض وتخومها، وحواجز الجنس واللون ليعلن إخاء البشرية كافة تحت ظلال مبدئه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^١ «المسلم أخو المسلم»^٢ وقد غلبت الاخوة الدينية في الاسلام كل صلة سواها، حتى صلة النسب، فتبرأ المسلم من قبيلته وخرج على عشيرته؛ وخاصم الولد أباه، وقاتل الأخ أخاه، لاختلاف الدين ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾^٣.

وكانت أخوة الايمان مستوجبة للحب والتناصر والولاء « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^٤ وعصمت بها الدماء والأموال والاعراض « كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»^٥.

والاخاء في العقيدة هو اللبنة الأولى التي أقام عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء المجتمع الاسلامي الاول بعد الهجرة في المدينة حيث آخى بين المهاجرين والأنصار، وبلغ هذا الإخاء ذروته بالايثار فآثر الأنصار المهاجرين على انفسهم في كل ما يحتاجون اليه ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا آوُوا وَبُوشِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾^٦

واعتبر الاسلام الأخوة الدينية اساسا من اسس دولة الاسلام، وقاعدة في بناء امته، وامتّن الله بها على نبيه وعلى المؤمنين ﴿ واذكروا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾^٧ ﴿ هُوَ الَّذِي يَدْكُ بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴾^٨ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾^٩

ويجني المجتمع المسلم في ظلال الاخوة الاسلامية الثمار الطيبة.

- | | |
|----------------------------------|--------------------------------------|
| ١ - الآية (١٠) الحجرات | ٢ - من حديث رواه البخاري ومسلم |
| ٣ - الآية (٢٢) من سورة المجادلة | ٤ - متفق عليه |
| ٥ - متفق عليه | ٦ - الآية (٩) من سورة الحشر |
| ٧ - الآية (١٠٣) من سورة آل عمران | ٨ - الآيتان (٦٢، ٦٣) من سورة الانفال |

ان هذه الاخوة تستوجب ان يرعى المسلم أخاه، يمد اليه يد المساعدة ويشد عضده، ويخفف عنه وَطءَ النكبات والأحداث، ويشاركه في نعمة السراء، وشدة البأساء، حتى يكون المجتمع الاسلامي مجتمعاً متكافلاً رحياً.

وتستوجب هذه الأخوة التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر واداء لواجب النصيحة ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

وتستوجب رعاية الضعفاء واليتامى والصغار، فعلى ولي اليتيم تنمية ثروته، والحفاظ على أمواله، ومراعاة أحواله، والعناية به في كل شأن من الشئون فيه صلاح له، من تعليم وتربية وتوجيه. حتى يعده للحياة الملائمة لمستوى امثاله في عصره. وتستوجب الاخوة في العقيدة الاسلامية تعظيم حرمة الدماء والاموال والأعراض، حتى تستمتع الامة بنعمة الأمن، فيأمن كل أخاه، ولا يخشى أذاه، ولا يخاف بطشه.

تلك هي المبادئ الانسانية التي كفلها الاسلام بصورة فاضلة في الحرية والعدالة، والمساواة، والأخوة.

ح - قوة الإرادة وضبط النفس

للقوة مفهوم جذاب، يهز النفس إلى أمنية غالية، ينشد الناس العز تحت ظلالها، والكرامة في كنفها، ولجرس حروفها وقع يحرك أوتار القلب إلى الكفاح المرير في الحياة المثقلة بالأعباء المليئة بالصعاب والعقبات.

وهي عدة الحياة امام عواصفها الهوج، وامواجها المتلاطمة، وصخبها الداوي. ولكن بعض المفاهيم حين يطلق العنان لها، تتحول طاقتها إلى هيب يلتهم الاخضر واليابس، فتصير معولا للخراب والدمار، يفتك بكيان المجتمع، ويمزق اوصاله، ويميت فيه العواطف النبيلة، والمشاعر الحية، ويرجع به الى قانون الغاب. والقوة المادية من هذا الضرب الذي يكمن فيه طاقة تقبل الانطلاق الى الخير والشر على السواء.

والاسلام يضع لكل طاقة جامعة حكمتها^١، التي تلجمها عن النزوات، وتوجهها إلى سواء السبيل، فالقامة المعتدلة، والسواعد المفتولة، والشباب اليافع^٢، والجرأة النادرة، من عناصر القوة البدنية الشخصية، ولكنها في مفاهيم الاسلام الذي يرقى بمستوى الانسان الى ذروة الفضائل الخلقية، ليست المطلب الأسمى، وانما يعلوها طاقة اخرى من القوة النفسية، التي تسيطر عليها، وتمسك زمامها، وتقف سدا منيعا امام جموحها^٣، تلك هي طاقة الارادة في القدرة على ضبط النفس، التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»^٤. فالغضب غريزة في الإنسان كامنة، يثيرها اعتداء على حق، أو انتهاك لحرمة، فإذا ثارت تآثرته في المرء، غلى الدم، واحمر الوجه والعينان، وانتفخت الأوداج،

١ - العنان: كلجام وزنا ومعنى

٢ - الحكمة: ما أحاط بجنكي الفرس من لجامه

٣ - اليافع: الذي ترعرع وناهز البلوغ

٤ - متفق عليه: والصرعة: المبالغ في الصرع الذي لا يغلب، صيغة مبالغة من الصرع، وهو الطرح على الأرض

واندفع الى الانتقام ممن أثار حفيظته^١.

ومجاهدة النفس في هذه الحال، وقهرها بالحلم والثبات، ومنعها من الاسترسال مع تيار الغضب، وضبطها عن مواجهة الإساءة بالشتيم والسب والضرب والقتل، ذلك هو الفضيلة التي تقمع الشر بالحكمة والثبات، وتحمي الإنسان من النزف والطيش، وتجعله الثبت^٢ الرزين، والظافر الرصين، والشجاع الباسل، وهذا أسس الحكمة، وشارة العظمة، وسبيل الإجلال والإكبار.

والإرادة قوة نفسية عالية، لها سلطتها في توجيه طاقة الإنسان، وتربيتها أهم عنصر في تكوين شخصيته، وبناء مقوماتها، فإذا ضعفت الإرادة صار الإنسان دمية تعبت بها الأيدي، ووقع فريسة للهواجس والاهوام، ونهباً للتردد بين الإقدام والإحجام. هذا دون غلو وافراط، وإلا كانت تهورا يذهب بالوقار، ويخل توازن الفرد ويقضي على رزاقته، ويمسح إنسانيته.

وليس من العسير على الإنسان ان يروض نفسه على قوة الإرادة النفسية، في ضبط الميول الشاذة، والعواطف الجامحة، والزامها حد الاعتدال، وإن كان ذلك يحتاج الى تربية طويلة المدى، ومجاهدة نفسية شاقة.

وكثيرا ما نرى او نسمع عن أناس يستثيرهم التافه، مما يخذلهم في جانب من الجوانب، فيأخذهم الشطط، وتتورم انوفهم، وتقذف ثورة غضبهم بجماها^٣، في البطش والانتقام، ويبتسمون بعد ابتسامة النصر، وما علموا أن هذا من القيم الانسانية إنهمزام نفسي، وانهبيار عصبي، ومظهر عجز فاضح للإرادة النفسية التي لها في كيان الإنسان المحل الأول.

اما ضبط النفس، فهو امارة الحزم، وعنوان الصحة النفسية، ودليل قوة الإرادة التي لا تدانيها قوة، وهكذا يسمو الاسلام بمفاهيمه في تربية الارادة، «إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب».

١ - الحفيظة: الحمية في الشيء الذي ينبغي أن يحفظ، وتطلق الحرز وما يحفظ فيه الشيء ٢ - الثبات
٣ - الحمة: الإبرة التي تضرب بها العقرب ونحوها، تجمع على حمات، وحمى

ط - الحرص على الوقت وحسن الاستفادة منه

عاش الانسان منذ ظهر إلى الوجود أجيالا متلاحقة، يتابع بعضها بعضا على عجلة الزمن، كل جيل منها يغذ السير على ظهر الأيام والليالي، حتى يستنفد طاقته، وينقضي اجله، والناس خلال ذلك يتساقطون صرعى وراء الآمال العذبة، والأمانى الحلوة، ويمتد نظرهم في دنياهم الى عمر طويل، وتقتصر هذه النظرة عن ان تلتفت الى الوراء خطوات لتبصر مصير الآباء والأجداد.

والإسلام ينظر الى الحياة نظرة معتدلة، لا تقيم السدود امام سيل الدنيا المنحدر في تدفق، كما لا تنسى أن تجمع بين منحدره ومصبه، فإذا كان مذهب الحياة عند الآخرين يجعل الدنيا غاية لهم فما لم يحصل منها على اقصى ما يستطيع من بلهنية العيش ولذته فقد خسر كل شيء، فإن الإسلام يجعل الدنيا وسيلة لغاية اسمى وأجل ترفع شأن الإنسانية وتعطيها قسطا اوفر من المتعة التي لا تدانيها متعة.

إن الاسلام يستوجب الإيمان بحياة اخرى بعد الحياة الدنيا، ويجعل هذه مزرعة لتلك، وتلك للحصاد وحده، والزارع الذي يعتني بمزرعته، يتقن الحرث، ويتخير البذر، ويزرع ما يشتهي، ويتعهد بالتسميد والري، وكلما مشى في دروب مزرعته استمتع بنضرتها، واستنشق عبير ازاهيرها، وتناول ما يشاء من قطفها، ولكنه لا يعتبر ذلك كله غاية ما يريد، بل تتحقق غايته الكاملة عند الحصاد، كذلك الإسلام يتطلب من المسلم ان يسخر قوى هذه الدنيا في عمارتها على بصيرة من أمر الله، فيستفيد بما فيها ظاهرا وباطنا استفادة لا تجعل منها جنته ونعيمه، وإنما تجعل منها زادا يتقوى به على عبادة الله في عفة وزهد، ويستعين به على اقامة الحق، وإعلاء كلمة الله، وإظهار نعمائه، وبهذا تصير الدنيا زادا له الى محط الرحال في الحياة الآخرة التي هي جنته الحققة، ودار نعيمه المقيم، كما يتزود عابر السبيل، او يعيش الغريب، وقد اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي ابن عمر فقال: «كن في الدنيا كأنك

غريب، أو عابر سبيل^١» وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك^٢.

ولقد الف الناس ضياع الوقت في التسلية بالملاهي التي يقولون عنها: انها تقتل الوقت، وما علم هؤلاء البله أن الوقت يقتلهم، فاللحظة التي تمر من عمرهم تنقضي الى غير رجعة، والصحة التي تصبح بها وجوههم لن تظل ابد الدهر، وحياتهم لن تعمر على ظهر المعمورة، فمن الخدق في الامور ان يهتبل الانسان ايام صحته في حياته، ويعتبرها مغنا يكرس فيها جهده للانتاج في كل ناحية نافعة من نواحي الحياة، تعود عليه وعلى الاسلام بالخير دنيا واخرى.

فالاسلام يعطي للزمن قيمته، ويعطي للصحة والعمر قدرهما. فيحث أبناءه على الكدح، ويستنهض همتهم للسعي. والأمة الجادة لا تعرف اللهو، إنما تعرف الحياة التي تنبض بروح الجد، وتتدفق نماء وازدهارا، وتقدما ورقيا.

والمسلم يعطي الوقت قدره فيستفيد منه بالنافع المفيد، لأنه يعطي للحياة قدرها، فيجعل حظه مراوفا بين مطالب الحياة المختلفة، لحاجة بدنه، وتنمية عقله، وراحة نفسه، وحق أهله واخوانه.

وإذا نظم الانسان وقته استطاع ان يجني ثمار ذلك في تحقيق اهدافه والوصول الى غايته، دون إجحاف بحق من الحقوق التي عليه.

وكثير من الرجال الذين سجلوا نجاحا باهرا في ميادين الحياة العلمية، او المهنية، او التجارية، لا يتفاوتون في قدراتهم ومواهبهم عن غيرهم، ولكنهم استطاعوا ان ينظموا حياتهم، وان يستفيدوا من وقتهم، فآتاهم الله من فضله جزاء سعيهم.

والطالب الذكي الموهوب الذي ينفق وقته في العبث، ويملاً فراغه باللعب، يخبو

٢ - رواه البخاري

١ - عابر السبيل: المسافر

ذهنه، وتصداً موهبته، وتغشاه سحابة من الخمول لا يبصر في ظلها موطئ قدميه،
فيتعث ويكبو جواده.

وقد يكون الطالب متوسط الذكاء، ولكنه يشحذ ذهنه بالمطالعة والتفكير،
ويحسن الاستفادة من اوقات فراغه بالعمل الجاد والراحة النفسية التي تجدد نشاطه،
وتضاعف همته، فيحرز قصب السبق على اقرانه.

وعظماء التاريخ من العباقرة النابهين، والمصلحين الافذاذ لم يعمل شأنهم
بالمواهب الفطرية وحدها. ولكنهم احسنوا استثمار هذه المواهب، وافادوا منها في
اوقات عمرهم، فقاموا بجلائل الأعمال.

وقديما قالوا: إن الوقت من ذهب، والوقت اغلى من الذهب بكثير، إن الذهب
اذا ضاع منك امكنك ان تعوضه، اما الوقت اذا ضاع فإنك لا تستطيع أن تعوضه
ولو انفقت ملء الارض ذهباً، فالوقت هو الحياة.

ي - الأمانة والصدق

لقد تضمن الاسلام شرائع عدة، في العقيدة والعبادة، وحياة الأسرة، وسلوك الفرد وسلوك الجماعة. وتهدف هذه الشرائع فيما تهدف اليه الى تربية النفس الانسانية تربية سوية، قوامها الخلق الفاضل الذي يجعل الانسان مثلاً حياً للعبد الصالح المستقيم على امر ربه، وترجع امهات الاخلاق القرآنية الى خلقين اصليين، يأخذ كل منهما بحجز الآخر: هما الأمانة والصدق.

والأخلاق في القرآن تختلف عن اي نمط اخلاقي متوارث في حياة الأمم، فلئن كانت الحاسة الاخلاقية انبعاثاً فطرياً فإنه يعرض لها من شواغل الحياة الدنيا والافتتان بالأهواء والشهوات ما ينحرف بها عن جادة الحق، ولذا كانت في حاجة الى ضابط إيجابي يقوّمها ويدعم نشاطها كي تنشد دائماً المثل الأعلى، ذلك الضابط هو الدين. فلا مكان للأخلاق بدون عقيدة حتى يشعر الانسان انه يترجم في سلوكه الرسالة السماوية التي يؤمن بها، ويتضح لنا هذا من خلال دراستنا للأمانة والصدق في الاسلام.

أولاً: نصوص من الكتاب والسنة:-

١ - في العام التاسع للهجرة^١، امر رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عما هم عليه^٢، وقلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج في غزوة إلا ورى بغيرها، الا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له^٣، ليتأهب الناس لذلك، فأمرهم بالجهاد، وأخبرهم انه يريد الروم، وحضّ اهل الغنى على النفقة، فجاد من جاد، وكان على

١ - كان ذلك في شهر رجب سنة تسع - انظر ابن هشام ص ١٥٩ ج ٤

٢ - الشخوص هنا: الذهب

٣ - يصمد: يقصد

رأس المنفقين المحتسبين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإنه انفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها.

أخذ المنافقون يشيعون قالة السوء، ويقولون: لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكا في الحق، وإرجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فتخلف من تخلف من أهل النفاق والريب، واعتذر من اعتذر ممن لم يعذرهم الله تعالى. ثم إن رجالا من المسلمين اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهم البكاءون - وطلبوا منه ما يحملهم عليه، حيث لا ظهر عندهم يركبونه، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا اجد ما احملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حُزنا ألا يجدوا ما ينفقون.

وكان ثلاثة رهط من المسلمين قد تخلفوا من غير شك ولا نفاق. هم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، جاءه المخلفون فاعتذروا إليه، فقبل عذرهم، ووكل سرائرهم إلى الله. وجاءه كعب بن مالك، فلما سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسم تبسم المغضب، وقال كعب: ثم قال لي: تعال، فجلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك؟ فقلت: يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد اعطيت جدلا، ولكني والله لقد علمت: لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علي فيه، وإني لأرجو فيه عقي من الله. والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.

وفعل مثل ما فعل كعب، مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، ونهى رسول الله

١ - العبارات التي نقلها هنا من حديث كعب بن مالك في الثلاثة الذين خلفوا، بالصحيحة

صلى الله عليه وسلم الناس عن كلام هؤلاء الثلاثة، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة، لا يكلمهم احد من الصحابة، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. فاذا كان جزء صدق هؤلاء الثلاثة، لقد نزل الوحي بتوبتهم، واصبحت قصتهم قرآنا يتلى، وسارع الصحابة يحملون بشرى هذه التوبة الى كعب بن مالك، فقدم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: - وهو يبرق وجهه من السرور - ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك امك، قلت: أمن عندك يا رسول الله ام من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله» فقلت: يا رسول الله إنما انجاني الله بالصدق، وإن من توبتي الا احدث الا صدقا ما بقيت، فوا الله ما اعلم احدا من المسلمين ابلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم احسن مما ابلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومي هذا كذبا، واني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. وانزل الله ﴿ لَقَدْ يَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فِرْقٍ مِنْهُمْ تُرْنَابَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ بِهَمِّ رُوْفٍ رَحِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَمَلْجَأٍ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ تُرْنَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ .

٢ - وامانات الله في عنق كل مسلم متعددة:

فمنها: امانة الفطرة القائمة على توحيد الله تعالى، وهي امانة العهد الأعظم.

ومنها: امانة الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالدين الذي جاء به، وهي امانة التكليف الشرعية لقيام الحياة في الأمة الاسلامية على شرع الله في كل شأن من الشئون، عقيدة وعبادة وتشريعا وحكما وسلوكا.

١ - الآيات (١١٧-١١٩) من سورة التوبة

ومنها: امانة العهود والمواثيق التي يأخذها المسلم على نفسه في علاقاته
بإخوانه، وهي امانة التعامل في المجتمع المسلم الطاهر النظيف.
والوفاء بتلك الامانات هو واجب الايمان بالله وبرسوله، وما لم يف المسلم بها
كان خائناً لله، وخائناً لرسوله صلى الله عليه وسلم، وخائناً للامانات التي اخذ على
عاتقه الوفاء بها، واي معصية يرتكبها فإنها خيانة.

لقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابا لبابة الى بني قريظة لينزلوا على
حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك -
واشار بيده الى حلقه - اي انه الذبح - ثم فطن ابو لبابة، ورأى انه قد خان الله
ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت، او يتوب الله عليه، وانطلق الى مسجد
المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فكث كذلك تسعة ايام حتى كاد يخر مغشيا عليه
من الجهد، حتى انزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه،
وارادوا ان يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها الا رسول الله صلى الله عليه
وسلم بيده، فحله، فقال: يا رسول الله إني كنت نذرت ان انخلع من مالي صدقة،
فقال: «يجزيك الثلث ان تصدق به» وعن الزهري ان هذه الآية انزلت فيه
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧) ، والآية عامة،
وان صح انها نزلت في سبب خاص، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٣ - يقيم الاسلام دعائمه في المجتمع الاسلامي على قواعد ثابتة،
يرعاها المسلم في حياته، وقوام هذه الدعائم في رعاية الامانات والعهود.
رعاية العهد الاول عهد الفطرة المقطوع به على ذرية آدم وهم بعد في
الاصلاب، ان الله ربهم الواحد، وانه إله واحد.
ورعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السموات والارض والجبال فأبين
ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان.

١ - الآية (٢٧) من سورة الانفال، وانظر تفسير ابن كثير في هذه الآية

ومن رعاية هذه الأمانة وذلك العهد تنبثق رعاية سائر الامانات والعهود في معاملات الناس . وهي سمة الإيمان وخلق المؤمنين ، حتى تكون الأمة الاسلامية امة الأمانة . وهذا هو الذي وصف الله به المؤمنين المفلحين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾^(٨) .

وفي السنة النبوية ما يدعم فضيلتي الأمانة والصدق :

١ - فالصدق عماد الاخلاق ، والتزامه عقيدة وقولا وعملا من أخص أوصاف المؤمن ، وهو منبت الفضائل ، تنمو في ساحته اغصان الخير ، وفروع الفضيلة ، لأنه يهدي الى البر . والبر طريق الجنة . واذا تحراه المسلم واخذ نفسه به مرة بعد اخرى اتخذ مجرى في حنايا صدره يزداد تعمقا كلما تابع التمسك به ، حتى يصير له شيمة وخلقاً ، ودينا وطبعاً .

أما الكذب فإنه اسس الرذائل ، ومعمل الهدم الذي يأتي على بنیان الحياة الاجتماعية من القواعد ، إنه يهدي صاحبه الى الفجور ، فيستهين بالقيم ، ويهتك ستر الديانة ، ويستبيح الخداع والغش والمرء ، فإذا تحراه امرؤ تأصل الشر في نفسه ، وقاده الى الجحيم .

عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي الى البر ، وإن البر يهدي الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب . فإن الكذب يهدي الى الفجور ، وإن الفجور يهدي الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »^٢ .

٢ - والنفاق الذي قال الله في ذويه ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾^٣ ، له

سمات يتميز بها المنافقون : -

١ - الآية (٨) من سورة المؤمنون - والآية (٣٢) المعارج

٢ - رواه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي ٣ - الآية (١٤٥) من سورة النساء

فمن سماته الكذب في الحديث : فإنه اشارة على حقارة النفس ، ومدعاة لاحتقار صاحبه ، وعدم الثقة به في شأن من الشئون .

ومن سماته خلف الوعد : فهو باب من ابواب الكذب ، يدل على نفاق القلب ، ويضيع الثقة ، ويحطم الفضيلة ، ويقوض بناء المجتمع .

ومن سماته خيانة الأمانة : أمانة الله ، و امانة الناس . فلا يثق انسان بآخر ، ولا يأتمنه على مال او عرض او نفس ، فتضطرب الحياة وتنهار قواعدها :

عن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
«آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد اخلف ، واذا ائتمن خان»^١ .

٣ - والصدق له آثاره الحميدة في تعامل الناس بيعا وشراء واجارة ، هذه الآثار التي تؤتي ثمارها في الدنيا بالنماء والبركة ، وتؤتي ثمارها في الآخرة بالثواب والأجر ، وعلى النقيض من ذلك يكون الكذب ممحقة للبركة ومناطا للعقاب .
عن حكيم بن حزام ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما . وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»^٢ .

ثانيا : نماذج للصدق والامانة

١ - وفي التاريخ الاسلامي نماذج للصدق العملي كان الاخلاص فيه مثالا يحتذى ، حين يتجرد المسلم لله ، ويخلص من شوائب الحياة ، فيكون صادقا مع ربه ، لا يلوي على مغنم يغنمه ، او عرض ترنو اليه نفسه انما يطلب مرضاة الله ، وأي صدق اعظم من أن يقدم المسلم نفسه التي بين جنبيه لخالفه ، اعزازا لدين الله ، واعلاء لكلمته .
عن شداد بن الهاد : إن رجلا من الاعراب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمن به واتبعه ، ثم قال : أهاجر معك ، فأوصى به النبي صلى الله عليه وسلم بعض

١ - رواه مسلم والترمذي والنسائي

٢ - رواه البخاري ومسلم وابو داود والنسائي واحمد

أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبي صلى الله عليه وسلم سبياً، فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قَسَمَهُ لك النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذه، فجاء به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا؟ قال: قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكنني اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا - وأشار الى حلقه - بسهم فأموت، فادخل الجنة، فقال: ان تصدق الله يصدقك، فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به النبي صلى الله عليه وسلم يحمل، قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أهو هو؟ قالوا نعم قال: صدق الله فصدقه، ثم كفنه النبي صلى الله عليه وسلم في جيبته، ثم قدمه، فصلى عليه فكان فيما ظهر من صلاته: اللهم ان هذا عبدك، خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً، وأنا شهيد على ذلك»^١

٢ - وكان ربعي بن حراش العبسي الكوفي تابعياً صدوقاً ثقة^٢، ذكر عنه أهل السير انه من خيار الناس، لم يكن يكذب كذبة قط، وهو من رجال السنة، وله موقف رائع مع الحجاج الذي كان يأخذ بالظنة، كان صدقه منجاة انقذ الله به ولديه من بطش الحجاج وتعسفه.

قال أبو نعيم في الحلية: ...حدثنا سفيان، قال: ذكرت ربعياً، وتدررون من ربعي؟ كان ربعي من أشجع، زعم قومه انه لم يكذب قط، فسعى به ساع الى الحجاج بن يوسف، فقالوا: ههنا رجل من أشجع زعم قومه انه لم يكذب قط، وأنه سيكذب لك اليوم، فانك ضربت على ابنه البعث^٤ فعصياً، وهما في البيت،

١ - قَسْمٌ: بكسر القاف، بمعنى النصيب

٢ - رواه النسائي، والحديث دليل لمن يرى ان الشهيد يصلى عليه وهو قول ابي حنيفة والثوري واحمد في رواية

٣ - انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر ص ٢٣٦ ج ٣، ووفيات الأعيان ص ٦٠ ج ٢، وحلية الأولياء ص ٣٦٧ ج ٤

والاعلام للزركلي ص ٣٧ ج ٣، وورد اسم ابيه في بعض المصادر (خراسن) بالخاء المعجمة، وفي المنهج: حراسن بن ربعي والصواب ما ذكرناه

٤ - البعث: المراد به هنا الجيش، اي الخروج في الجيش للقتال

فبعث اليه فاذا شيخ منحني، فقال له: ما فعل ابنك؟ قال: هما هذان في البيت، قال: فحملة وكساه وأوصى به خيراً^١.

وقال ابن خلكان: «يقال عن ربعي بن حراش العبسي الكوفي انه لم يكذب قط وكان له ابنان عاصيان زمن الحجاج، فقيل للحجاج: إن أباهما لا يكذب قط، لو أرسلت اليه فسألته عنهما؟ فأرسل اليه فقال له: أين ابنك؟ قال: هما في البيت، قال: قد عفونا عنهما لصدقك^٢»

٣- وفتح المسلمون المدائن، واقتحمت كتائبهم ابوابها، وتهاوت العاصمة الكسروية تحت اقدامهم ولاذ الفرس أمامهم بالفرار، يتقدمهم كسرى يزدرجرد، ونزل القائد المسلم سعد بن أبي وقاص القصر الابيض، ودخل الايوان وهو يتلو قوله تعالى ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْبُونَ^{٢٥} وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ^{٢٦} وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ^{٢٧} كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ^{٢٨}﴾^٣.. واتخذ سعد هذا الايوان الذي ضم ابهة الملك مُصَلًّى وتقدم الى صدره فصلى صلاة الفتح. واستحوذ المسلمون على كنوز الأكاسرة وما في القصر من خزائن، واستولوا على تاج كسرى ومنطقته وسيفه وسواره وبساط ايوانه الذي نسج بخيوط الذهب ورصع باللآلي والجواهر النفيسة.

أرسل سعد بن أبي وقاص رسله يحملون البشري إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، وحمل هؤلاء الرسل معهم ما أمكن حمله من تاج كسرى وجواهره وبساطه، فلم تتطلع نفس أحد منهم الى جوهرة. ولم تفتنه هذه الثروة الطائلة كي ينال منها شيئاً لم ينله في قسمة الغنيمة، فما له وللدنيا؟ وقد خرج مجاهداً في سبيل الله، وما يحمله من الكنوز لخليفة المسلمين أمانة بين يديه لبيت مال المسلمين، فما كاد عمر يرى ذلك حتى قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء. فقال له علي بن أبي طالب: إنك عففت فعفت رعيتك، ولو رتعت لرتعت^٤

٢ - وفيات الأعيان ص ٦٠ ج ٢

١ - الحلة ص ٣٦٩ ج ٤

٤ - انظر ص ٢٠٩، ٢١٠ من هذا الكتاب

٣ - الآيات (٢٨-٢٥) من سورة الدخان

٤- وسبق أن ذكرنا صدق كعب بن مالك في حديث توبته^٢.

ثالثا: الصدق:

١- الصدق: مطابقة القول الضمير والمخبر عنه، ويقابله الكذب، والصديق من كثر الصدق.

ويكون الصدق في العقيدة، وفي القول، وفي العمل.

فالصدق في العقيدة: أن تكون العقيدة موافقة للحقيقة، في الاعتقاد بوجود إله واحد يفعل ما يريد، لا ند له ولا شريك، والاعتقاد بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالهدى الذي جاء به، وذلك يستوجب أن تكون العقيدة قائمة على البحث والنظر حتى تصل إلى اليقين، فتكون عقيدة صادقة.

والصدق في القول: أن يكون مطابقا للضمير موافقا للحقيقة كأن يقول المؤمن: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإذا قال ذلك المنافق لا يكون صادقا لأن قوله وان وافق الحقيقة فإنه يخالف ضميره، فقوله كذب. والصدق في العمل: أن يكون فعله موافقا لعقيدته، وصورة واقعية لما يكنه في نفسه إخلاصا لله، وطلباً لمرضاته، لا يشوبه نفاق ولا رياء.

٢- وللصدق أسسه النفسية التي تبعث عليه، ومن هذه الأسس:

محبة الحق: حيث يتولد الشعور النفسي بأن الحق هدف اسمي يسعى إليه الإنسان، ويبذل جهده في الوصول إليه، لأنه قوام الحياة كلها، فيعشق الحق، وتسرى محبته في نفسه.

ومنها الجرأة والصراحة: فإن الشجاع صدوق صريح لا يعرف المداراة والمداهنة، فلا يختل ولا يخادع ولا يكذب.

ومنها الانفة ونبل النفس: فإن الأباء يدعو إلى أن يصون المرء كرامته عن الدنيا، وينزهها عما لا يليق، حتى تكون نفسه نبيلة الغاية، كريمة السجايا.

٢- انظر البداية والنهاية ص ٦٤ ج ٥، وتاريخ الطبري ص ١٧٧ ج ٤

وتنبثق فضيلة الصدق من الايمان بالله الذي يعلم ما في الصدور فلا تخفى عليه خافية.

وإذا راقب العبد ربه، وابقن أنه شهيد عليه، استقامت حياته ظاهراً وباطناً، علانية وسراً.

ويتأصل الصدق في النفس إذا تذكر الانسان الآخرة، وما يكون فيها من جزاء، رغبة في ثواب الله، فان الصدق يهدي الى البر، وان البر يهدي الى الجنة. ويجني الناس من ثمرات الصدق استقامة السلوك، واستواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، وأداء الامانات، اذ ان الوفاء من انماط الصدق العملي والصدق القولي، وحيث يوجد الصدق يجهر الناس بكلمة الحق ويؤدون واجبها صادقين، لا يخشون لومة لائم، أو جبروت ظالم.

٣ - وللصدق آثاره الحميدة في الحياة الفردية والحياة الاجتماعية والحياة الاخرية.

له آثاره في الحياة الفردية، حيث ينمي شخصية المسلم، اعتزازاً بنفسه، وإحساساً بمسئوليته، ويأخذ بيده الى الفضائل الانسانية التي تكسبه قوة في الحق، وثقة بالنفس، وتناهى به عن سفساف الأمور، وتباعد بينه وبين الرذيلة، وتعصمه من زلات الكذب، وعثرات انحرافاته، وويلات عقابه.

وله آثاره الاجتماعية، حيث يشيع المحبة بين الناس، ويظل افراد المجتمع بالثقة المتبادلة، ويرس اسس التعاون الهادف بين الناس، ويساعد على نشر الفضائل، وتقدير ذورها، ويجعل للحق هبة في المجتمع، تحذ من مجارة المنحرفين، ومداهنة المنافقين.

ويعطي الصادقون بسيرتهم العطرة مثلاً حياً لاشاعة الحق، والاعتصام به، والقُدوة الحسنة أجدى نفعا في إصلاح المجتمع وتقويم سلوك افراده.

أما الكذب بضروبه المختلفة: عقيدة، أو قولاً، أو عملاً، فانه داء وبيل يفتك

بالمجتمع، ويمزق أوصاله، ويهدر قيمه، ويفقد الثقة بين أفرادها، ويضيع حقوقهم، وينشر العداوة والبغضاء في صفوفهم.

وللصدق آثاره الأخروية في شعور المسلم بمسئوليته، ووقوفه مع الحق، والتزامه نهجه. طاعة لله، وتقربا إليه، فيكون أهلا لرعاية الله وتأييده، جديرا بان يحظى بالفوز والنعيم في الدار الآخرة، فقد أمر الله أهل الايمان أن يكونوا مع الصادقين، وخص المنعم عليهم بالنبين والصديقين والشهداء الصالحين ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ١٩ ﴾

٤ - وإنما يلج المرء أبواب الصدق لاكتسابه بادراك خصائصه ومزاياه، وآثاره، وتوطيد أسس الايمان في نفسه، والبراءة من النفاق، فلا يجتمع كذب وايمان ﴿ وَلَكِنْ ابْتَغُوا مِنْ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾

وكلما تحرى الانسان الصدق في مواقف الحياة المختلفة. ذلت له الصعوبات التي تواجه الصادقين، وتوطنت نفسه على ممارسة الصدق فصار ديدنا له. واختيار الاصدقاء والخلان من الصادقين الأوفياء يعصم من مفسدة الكذب «والرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^٣

ولقد صحب أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وسبق الى الايمان به، ولازمه في العهد المكي، وصدفة اذ كذبه الناس في الاسراء والمعراج، ورافقه في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها الى أن مات، فكان أعظم وسام منحه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان سماه صديقا.

١ - الآية (٦٩) من سورة النساء

٢ - الآية (١٧٧) من سورة البقرة

٣ - رواه ابو داود والترمذي بإسناد صحيح

رابعاً: الأمانة: -

الأمانة كالأمان، من الأمن، وهو طمأنينة النفس وزوال الخوف، ولا قيمة للحياة مهما تسرت فيها وسائل الرخاء، وغمرتها بجبوحه العيش، دون ان يشعر الانسان بالأمان، وينعم بظله الوارف حتى تستقر القلوب في حنايا الصدور.

١- والأمانة قرينة الصدق، فهما توأم لأم الفضائل، ومنهما تنبثق الفضائل الأخلاقية الأخرى. ولا أمان لمن لا صدق عنده، ولا صدق لمن لا أمانة له. وكلاهما من أبرز أمارات الايمان ودلائله. والايان نفسه أمانة في عنق المؤمن، ويوشك من يفقد الامانة ان يفقد الايمان، اذ «لا ايمان لمن لا امانة له» وكل التزام بين العبد وربّه، أو بينه وبين الناس، فهو أمانة يجب اداؤها لان الأمانة من شعب الأيمان، وتزداد الامانة بزيادة الايمان وتتناقص بنقصه، واذا استهان الانسان بالمعصية فانه يستهين بالايمان والأمانة معا، ويفرط في العهد الذي بينه وبين ربه.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين، قد رأيت أحدهما، وانا انتظر الآخر. حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال^١، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الامانة فقال: ينام الرجل النومة فتقبضُ الامانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت^٢، ثم ينام النومة فتقبضُ الامانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل^٣، كجمر دحرجته على رجلك فنفظ، فتراه منتبراً، وليس فيه شيء، ثم أخذ حصاة فدحرجه على رجله، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً اميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما اعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان، ولقد اتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت؟ لئن كان مسلماً ليردّنه على دينه، وان كان نصرانياً أو يهودياً ليردّنه على

١ - الجذر: أصل الشيء.

٢ - الوكت: الأثر اليسير.

٣ - المجل: تنفط في اليد ونحوها من اثر عمل وغيره ٤ - منيراً: مرتفعاً

ساعيه^١، واما اليوم فما كنت اباع منكم الا فلانا وفلانا^٢ وهذا الحديث من أعلام النبوة، وهو يعبر عن واقع الناس مع تطور الزمن.

٢- وقد عبر بالأمانة في القرآن الكريم عن تكاليف الشريعة، من توحيد الله تعالى وما جاء في دينه من أمر ونهي، وتلك هي الأمانة الكبرى، التي كانت مناط المسئولية والجزاء في حياة الانسان، وقد ميزه الله تعالى بالعقل والإرادة، مع ضعف بنيته وضالته إزاء مخلوقات الله الأخرى في عظمتها وضخامتها ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^٣ (٧٢).

وقد شرع الاسلام توثيق العقود والمداينات بالكتابة والاشهاد، منعا للخصومة، وقطعا لدابر المشاحنة والنزاع، واذا تعذر ذلك كان الرهن ضمنا كافيا لذوي الحقوق، ويبلغ الاسلام القمة حين يجعل الأمانة وحدها كافية في الاستيثاق، تحمل المدين على الوفاء بالحق بياعث من تقوى الله، ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾^٤.

ثم يأتي الأمر بأداء الأمانات كلها في عهد الله بتكاليف شريعته، وفي عهد الناس ﴿ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَنْ يُوَدُّ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾^٥

٣- وللأمانة مجالات متعددة:

لها مجالاتها في حقوق الناس، فكل حق شرعه الاسلام أمانة، لا تبرأ ذمة المسلم منه حتى يؤديه، بدءا بحقوق الأهل والأقارب والأصدقاء، ونهاية بحقوق الدولة وأولي الأمر.

ولها مجالاتها في الأموال، فالمال الخاص الذي تمتلكه أمانة، تسأل عن وجوه اكتسابه، ووجوه نفقته، والمال العام للدولة أمانة، تحاسب عن تفريطك فيه، او استهانتك بأمره، أو جورك في عطائه، فهو مال المسلمين.

١ - ساعيه: الوالي عليه

٢ - الآية (٧٢) من سورة الاحزاب

٣ - الآية (٥٨) من سورة النساء

٤ - رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه

٥ - الآية (٢٨٣) من سورة البقرة

ولها مجالاتها في حياة الانسان الشخصية، فان عمره امانة، يسأل عنه يوما
يوما، وساعة ساعة، فيم ضيعة؟ أفي الحياة المجادة المثمرة؟ ام في الحياة اللاهية
العابثة، أفي مرضاة الله انفق وقته؟ أم في سخطه ومعصيته؟
وصحته وجوارحه أمانة، فان ذلك هبة من الله له، ونعمة أسداها اليه، وهو
مستول عن استخدام هذا استخداما صالحا، يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة،
ويدفع بأمته الى العزة والكرامة.

وعلمه أمانة، يؤدي ضريبتها بالجهد في تحصيله، والتثبت من روايته ونقله،
والاستفادة منه، والعمل على نشره.

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن عمله فيما فعل؟
وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفق؟ وعن جسمه فيما أبلاه».

٤- وحين يرعى كل انسان في الامة اداء أمانة الله عليه يستقيم أمر الحياة،
فان وظائف الحياة الاجتماعية لا تخرج عن أن تكون أمانة عهد بها الى أفراد الأمة.

فالموظف أمين على ما وكل اليه القيام به، وعماد الموظف الصالح في أمرين:
القدرة على القيام بعمله، والامانة في أدائه، فقد تكون قدراته فائقة ولكنه يقصر في
أداء واجبه فيخون أمانة عمله ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ
الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾

وتتعدد وظائف الدولة ومهامها، والامانة في كل منها سبيل النجاح، فالموظف
الأمين يرعى حق امته عليه عن صدق واخلاص. صيانة لكرامته وعرضه، فلا
يقصر في أداء واجبه، ولا يساوم في حق يظلم به آخر، ولا يضع نفسه في الموضع
الذي ليتخذ من منصبه سلعة يتجر بها اختلاسا ورشوة، ولا يسرق وقت الدولة في

١ - رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح - (وما) في (فيما) استفهامية، وإثبات الفها مع كونها مجرورة قليل.

٢ - الآية (٢٦) من سورة القصص

والكثير حذفها

مدة عمله الوظيفي بانتقاص أو ضياع أو هلو وعبث . ولا يستغل سلطته في الاخلال بالعمل ، فان ذلك خيانة للدولة واساءة للأمة .

وحسب الموظف الأمين أن يحظى بتقدير الناس وثقتهم ، وأن يكون جديرا بمهام امور الدولة وعظائم قياداتها ، مبتغيا بعد ذلك ثواب الله في الدار الآخرة .
وحسب الموظف الخائن أن يبوء باحتقار الناس له واهمالهم لشأنه ، وحرى به أن ينال ما يستحق من تأديب أو عزل في الدنيا ، ومن عقاب الله في الحياة الأخرى .
وسبق أن شرحنا لك حديث «ابن اللبية» .

وإذا أعطى الناس الأمانة قدرها في ميزان حياتهم سعدت الأمة وسعد ابناؤها بسعادتها .

وليس ذلك بعزيز في أمة الاسلام التي يفرض عليها دينها أداء الأمانات الى اهلها ، وإذا استقامت موازين الحياة في تقدير الرجال بكفائتهم وأمانتهم كان ذلك مدعاة لاستقامة الأفراد ووفائهم بما أسند اليهم من عمل .
٥ - والتاريخ الاسلامي سجل حافل بأمناء الأمة :

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الأمناء ، عرفه أهل الجاهلية قبل البعثة في تعاملهم معه وقيامه على تجارة خديجة بالأمانة النادرة حتى لقبوه بالأمين .

ثم كانوا في ابان عداواتهم له لا يجدون من يطمثون اليه في ايداع ودائعهم عنده سواه .

ولما ائتمر أشراف قريش واجمع أمرهم على قتله صلى الله عليه وسلم ، واذن الله تعالى لنبيه في الهجرة لم يطلب النجاة لنفسه من القتل فرارا بعقيدته دون ان يرد الودائع التي لديه للمتأمرين على قتله ، ولم تسول له نفسه أن يخونهم فيها نكاية بهم ، بل عهد الى من يخلفه في ردها الى ابن عمه علي بن ابي طالب رضي الله عنه ،

١ - انظر ص ٨٧ ، ٩٣ من هذا الكتاب

قال ابن اسحاق: «وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن ابي طالب ان يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع للناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه الا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم»^١.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل صدق ووفاء وأمانة. وخص رسول الله نفرا منهم بزيادة فضل في أمر وصفه به. كالحياء لعثمان، والقضاء لعلي، وقراءة القرآن لأبي، والفرائض لزید، والعلم بالحلال والحرام لمعاذ، وخص رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة عامر بن الجراح بالأمانة، فجعله أمين هذه الأمة، وقال فيه «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»^٢ «ولما قدم أهل نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: «ابعث معنا رجلا يعلمنا السنة والاسلام، فقال: «لابعثن رجلا أمينا حق أمين، فأشرف اصحابه، فبعث أبا عبيدة رضي الله عنه»^٣.

خامسا: واجب الشباب المسلم:

من ذلك العرض الأنف الذكر لفضيلتي الأمانة والصدق نستطيع ان ندرك واجب الشباب المسلم في التمكين لها بين الفضيلتين في حياة الفرد وفي حياة المجتمع، وان ندرك واجب الدولة المسلمة في رعايتها وحمايتها، والتمكين لها في صفوف الأمة. والأمة الصادقة الأمانة تأخذ بعين الاعتبار معيار الصدق والأمانة في ميزان حياتها.

فتجعله مقياسا لها في اختيار موظفيها بشتى مرافقها. وتوجه سياسة التربية والتعليم توجيهها سديدا في مناهج الدراسة، والكتاب المدرس، واختيار المعلم، حتى تخرج الاجيال المؤمنة الصادقة الأمانة.

٢ - متفق عليه

١ - ابن هشام ص ١٢٩ ج ٢

٣ - متفق عليه

وتؤدي وسائل الاعلام وظيفتها لتحقيق ذلك، في الاعلام المقروء، والاعلام
المسموع، والاعلام المرئي.
وعلى الدولة واجبها تجاه ذلك كله، كي تكون امينة على شرع الله قضاء
وحكما.

سلامانه - مجالات مقدره اذكريه
مع توضيح؟

ك- الصبر والثبات

جرت سنة الله تعالى في الحياة الدنيا ان يجمع للناس بين الخير والشر، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحياة والموت، ابتلاء منه ومحنة، فلا يخلو المرء من كوارث تصيبه، ونوازل تحل بساحته، في نفسه، او ولده، او اهله، أو أقربائه، أو أحبائه.

ويعظم البلاء ويشتد في حياة الدعاة والمصلحين، الذين يدعون الى الله، ويعملون على تحكيم شريعته، ويجاهدون لاعلاء كلمته، فينقم عليهم أهل الأهواء، ويعاديهم أنصار الباطل. ويحاربهم الطغاة المستبدون ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَمِيدِ﴾^١ و «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاء، فقال: الانبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه. فان كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وان كان في دينه رقة ابتلاه الله حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»^٢.

ويشتد جزع الذين لا يؤمنون بالله، أو يضعف ايمانهم بقضائه، فتخور قواهم، وتنهار اعصابهم، وتظلم امامهم الدنيا، ويخيم عليهم اليأس. اذ فقدوا أثر الايمان، في سكينه النفس، والاطمئنان الى حكمة الله، والرضا بقدره. أما المؤمنون فإنهم يصبرون على البلاء، ويشبتون في الشدائد، ويحتسبون ما أصابهم ابتغاء رضوان الله، ويرونه تمحيصا لهم، ليميز الله الخبيث من الطيب.

انهم يعلمون ان ما ينزل بهم من مصائب قد قدره الله عليهم واقتضته حكمته، وان ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما اخطأهم لم يكن ليصيبهم ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^٣

١ - الآية (٨) من سورة البروج

٢ - رواه الترمذي وقال: حسن صحيح

٣ - الآية (٢٢) من سورة الحديد

ويوقنون بأن الله لطيف بعباده، وأن نعمه عليهم لا تحصى، وأنه ما من مصيبة الا وهناك أكبر منهم، فيصبرون على البلاء، ويتحملون اللأواء، ويحمدون الله على لطفه في قضائه. ويشكرونه على واسع فضله، وعظيم نعمه ﴿ وَلَنْبَلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

ومع مرارة الحزن، ولوعة الاسبى، وألم النازلة، يستشعرون برد الراحة، ومتعة الثواب، ونعمة المغفرة «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، الا كفر الله بها من خطاياها»^٢.
ان هذا الايمان الذي يستقر في النفوس يجعل المسلم صابرا راضيا، يسلك دروب الحياة الجادة، رابط الجأش، ثابت الجنان، قوي العزيمة، فتي الهممة، يتكبد المشاق، ويواجه الملهمات، فيزداد مضاء وعزما، ويطالع الأمل المرتقب قاب قوسين او أدنى.

ولعزائم المؤمنين الصابرين ثبات يذلل الصعاب، ويقتحم العقبات، ويبعث في النفس الطمأنينة والراحة، فالصبر والثبات صنوان في شجرة الايمان.
أصاب عروة بن الزبير الاكلة في رجله^٣، وهو بالشام، عند الوليد بن عبد الملك، فقطعت رجله في مجلس الوليد، والوليد مشغول عنه بمن يحدثه، فلم يتحرك، ولم يشعر الوليد انها قطعت، حتى كويت فشم رائحة الكي.

ولما دعي الجزار ليقطعها قال له: نسقيك الخمر حتى لا تجد لها الماء، فقال: لا استعين بحرام الله على ما أرجو من عافيته، قالوا: فنسقيك المرقد^٤ قال: ما أحب ان أسلب عضوا من أعضائي وأنا لا أجد الم ذلك فأحتسبه، ودخل عليه قوم أنكرهم، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يمسونك، فان الألم ربما عزب معه الصبر.

١ - الآيات (١٥٧-١٥٥) من سورة البقرة

٢ - متفق عليه

٣ - الأكلة: داء في العضو يأكل منه، اي يأكل بعضه بعضا

٤ - المرقد: دواء يُرقد شاربه كالخدر

قال : أرجو أن اكفيكم ذلك من نفسي ، فقطعت كعبه بالسكين ، حتى اذا بلغ العظم وضع عليها المنشار فقطعت ، وهو يهلل ويكبر ، ثم انه أغلى له الزيت في مغارف الحديد ، فحسم به ، فغشي عليه ، فافاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ولما رأى القدم بايديهم دعا بها ، فقلبها في يده ثم قال : أما والذي حملني عليك انه ليعلم اني ما مشيت بك الى حرام ، أو قال معصية .

ومات ولده محمد في تلك السفارة ، دخل دار دواب الوليد بن عبد الملك فضربته دابة فخر ميتا .

ولما قدم المدينة بعد سفرته قال : اللهم انه كان لي أطراف أربعة ، فأخذت واحدا وابقيت لي ثلاثة ، فلك الحمد ، وايم الله ، لئن أخذت لقد ابقيت ، ولئن ابتليت لطالما عافيت .

وكان أحسن من عزاه ابراهيم بن محمد بن طلحة ، فقال له : والله ما بك حاجة الى المشي ، ولا ارب في السعي ، وقد تقدمك عضو من أعضائك ، وابن من ابنائك الى الجنة ، والكل تبع للبعض ان شاء الله تعالى ، قد ابقى الله لنا منك ما كنا اليه فقراء ، وعنه غير اغنياء ، من علمك ورأيك ، نفعك الله وايانا به ، والله ولي ثوابك ، والضمين بحسابك .

إن أي عمل يقوم به الانسان يحتاج الى جهد ، وقد لا يجني الانسان ثمرة جهده عاجلا فيسأم ويمل ، وقد يصاب بادي ذي بدء فتهدم عزمته ، وفي كلتا الحالتين تنقطع به السبيل دون غايته فلا يصل الى هدفه .

انه لا عيب في ان يرسب طالب ، او يفشل انسان في عمل ، فتلك سنة الله ، وانما العيب كل العيب ان ييأس هذا او ذاك فيقعده اهم عن مواصلة الكفاح والدأب والمثابرة .

١ - راجع: وفيات الأعيان ص ٣١٦ ، ٣١٧ ج ٢

والايمان بالله يبعث في المؤمن روح الثقة بالنفس التي تستمد قوتها من الاعتماد على القوي العزيز، فالمؤمن يبذل ما في وسعه لتحقيق أهدافه النبيلة، ولا يستعجل الثمرة، ولا يتطرق الى نفسه اليأس ولكنه يواصل كفاحه في عزيمة وصبر وثبات. ويعاود المحاولة مرة بعد أخرى حتى يفتح الله له، فيلج باب النصر ويحظى من مقصوده بالظفر، وقد يجري العالم مئات التجارب حتى ينجح في تجربة، فيضيف الى العلم جديدا يعود على البشرية كلها بالخير. وبهذا تظل الحياة في تقدم وازدهار، يدفع عجلتها الى الرقي تصميم الصابرين، وثبات أولي العزم، ومن وراء كل ابتكار مبدع، أو اختراع عجيب، أو نجاح باهر، أو تفوق نادر، يكمن الصبر والثبات.

ل - القصد والاعتدال

الاسلام دين الفطرة، وحيثما نظر الباحث في هذا الدين بجوانبه المختلفة أدرك هذه الحقيقة، وأساس الفطرة البشرية يقوم على الاعتدال في مقاصد الحياة دون افراط أو تفريط.

وتنبثق هذه الحقيقة من خصائص الامة الاسلامية التي تقيم حياتها على هدي دينها، وأخص ما وصف الله به هذه الامة أنها الامة الوسط ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ والوسط يعني في أدق معانيه القصد والاعتدال في مطالب الحياة كلها، الروحية والمادية، الفكرية والتجريبية، الدينية والدنيوية، الفردية والجماعية. ان هذه الامة لا تغلو في التجرد الروحي، ولا في الارتكاس المادي، وانما تعمل على سمو الروح في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها. فلانسان أشواقه الروحية المتصلة بتربية العواطف، وتنمية مشاعر الخير، التي تنطوي عليها النفس البشرية، حتى يصفو مشربها، وتزكو سريرتها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾^(٧) فآلهمها فجورها وتقورها^(٨) قد أفلح من زكها^(٩) وقد خاب من دنسها^(١٠) وسبيل هذه التزكية ان تتجه النفس الى بارئها، تدين بوحدانيته، وتنقاد لشريعته، وتحرر من سلطان اهوائها وشهواتها.

وللانسان مطالبه المادية التي تتصل بكيان حياته، والحفاظ على قواه المنتجة العاملة، حيث أجرى الله سنته في استقرار الارواح بأجسادها، وربط معنى الحياة بالصلة الوثيقة القائمة بين هذه وتلك.

وقد اباح الاسلام ان يستمتع الانسان بطيبات الحياة الاستمتاع المشروع في المطعم والمشرب، والزينة والجمال، وسائر وجوه النفقة. فللروح حقها، وللبدن حقه، والمسلم يأخذ حظه من هذا وذاك في قصد وتناسق واعتدال ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا

١ - الآية (١٤٣) البقرة

٢ - الآيات (٧-١٠) من سورة الشمس

زَيْنَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴿١﴾

وإذا حسنت النية صارت متعة الحياة قرابة إلى الله «وفي بضع أحدكم صدقة»^٢.

وقاعدة الإسلام في وجوه النفاق ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ

مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾^٣.

وهذه الأمة لا تهمل التصور الفكري في البحث النظري، ولا تغلق منافذ التجربة والاستقراء، فإن الإسلام في منهجه الفكري يدعو إلى إثارة العقل البشري للنظر في الكون وإدراك أسرارها، وتحقيق مستوى فكري لائق في حقل المعارف الإنسانية على اختلاف أنواعها، فيشحن الذهن، ويبعث فيه حرية التفكير، وامتعة التزود بالمعرفة.

والإسلام كذلك يجعل الحواس نوافذ يطل منها الإنسان على هذا العالم الفسيح، ليبصر حقائق الكون، ويكتشف خواصه المادية، بالتجارب الحسية، ويستفيد من ذلك في عمارة الأرض، وبناء الحضارة الإنسانية على أسس قومية، فالحقيقة ضالة المؤمن، أنى وجدها أخذها في تثبت ويقين.

وهذه الأمة أمة وسط في حياتها الدينية، وحياتها الدنيوية، فتكاليف الشريعة الإسلامية سهلة ميسورة، يؤديها المسلم قدر استطاعته، تحقيقاً للتوازن، بينها وبين مطالب حياته الدنيوية. وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشدد في العبادة، والتعمق في الدين، وجعل ذلك تنطعا «هلك المتنطعون»^٤. فإن أحداً لا يبالغ في الأخذ بالدين إلا انقطع به السبيل دونه «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا»^٥. ويتجاوز هذا التوجيه النبوي الأمر والارشاد إلى السلوك العملي في حياته صلى الله عليه وسلم، وهو القدوة الحسنة

٢ - رواه مسلم وأبو داود وأحمد

١ - الآية (٣١) من سورة الاعراف

٣ - الآية (٢٩) الإسراء

٤ - رواه مسلم وأبو داود وأحمد، والمتنطعون: هم المتعمقون المغالون

٥ - رواه الشيخان

لأمته « ما خَيْرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً »^١.

وامر نبي الأمة أن يأتي الناس من صالح العمل ما يطيقون، فإن الله لا ينقطع عن ثواب عباده حتى ينقطعوا عن عبادته، وليس في مقدورهم أن يصلوا في عبادتهم الى الغاية « عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا »^٢.

والغلو في العبادة يورث السامة والمل، وربما أدى إلى التغير من العبادة نفسها، « دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد »^٣.

وهذه الأمة الوسط لا تلغي شخصية الفرد وتدعها تتلاشى في شخصية الجماعة، ولا تطلق للفرد حريته حتى يصير إنساناً جشعاً لا هم له سوى ذاته، إنما توجه الطاقات في الحركة والعمل والنشاط بما يحقق شخصية الفرد وكيانه، ثم تثير فيه المعاني الاجتماعية التي تقف دون الغلو في النوازع الفردية فتجعل الفرد في خدمة الجماعة، والجماعة في خدمة الفرد.

فالمسلم يجد حوافز العمل الفطرية في غريزة حب التملك، وغريزة حب الذات فيكد ويكدح ويبذل جهده في الحياة ﴿فَأْمْسُوا فِي مَنَابِكِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾^٤.

وعليه حقوق اجتماعية نحو الآخرين من أبناء أمته، وتؤكد هذه الحقوق بالنسبة إلى أقاربه وذوي رحمه ومن يعول، ويمتد اثرها في علاقته باخوانه، وعلاقته بأولى الأمر، لأن المجتمع المسلم يمثل شخصية واحدة، يشعر كل فرد فيه بشعور أخيه، وهذا يكبح نزوات الأثرة بروح الإخاء والتعاون ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^٥.

١ - متفق عليه

٢ - متفق عليه

٣ - متفق عليه

٤ - الآية (١٥) من سورة الملك

٥ - الآية (١٠) من سورة الحجرات

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ١ .

ولا تكتمل شخصية المسلم حتى يحقق التوازن في مطالب الحياة بالقصد والاعتدال ، فإن الإسلام هو دين الحياة ، وللحياة مطالبها المشروعة في متعة الدنيا وزينتها ، وللدين واجباته في إصلاح النفس وتهذيبها ، والغلو في جانب يفضي إلى التقصير في الجانب الآخر .

« أخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك ابو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ، فجاء ابو الدرداء فصنع له طعاما . فقال : كل قال : فإني صائم ، قال : ما أنا بأكل حتى تأكل ، قال : قال : فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : نم فنام ، ثم ذهب يقوم فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان قم الآن فصليا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فاعط كل ذي حق حقه ، فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق سلمان ٢ .

تلك هي الملامح الواضحة لوجه الإسلام المشرق الذي يرعى جوانب الحياة الإنسانية ، ويلبي مطالبها في قصد واعتدال .

Hadise a du u

du

du

H

كيف يتحقق بقصد الاعتدال في الشاخص والبربر
كيف يراهم بالانسان بلزوم بصواب وكيف يراهم
الانسان
مع ذكر مثال
٢٣٢

١ - الآية (٢) من سورة المائدة

٢ - رواه البخاري والترمذي

م - الإِتقان والإِحكام

هذا الكون الفسيح الزاخر بكائنات الله في السموات والأرض، ينطوي على تدبير محكم دقيق، وإبداع متقن متناسق، تتجلى فيه قدرة الخالق، بما لا يحيط به العلم، ولا يستوعبه البيان.

إن كل شيء في هذا الوجود ينفي فكرة المصادفة، ويكشف عن تقدير محكم يعجز البشر عن تتبع مظاهره، وكلما تقدم العلم فاكتشف جديدا من التناسق العجيب في ناموس هذا الكون ونسبه ازداد اليقين بعظمة المبدع الصانع، وأدرك الناظر البصير المعنى الكبير الذي نجده في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^١ وقوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^٢.

يقول (أ. كريس موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك: في كتابه بعنوان «الإنسان لا يقوم وحده»^٣.

«ومما يدعو الى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل، بالغا هذه الدقة الفائقة، لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسيجين، ولما أمكن وجود حياة النبات. ولو كان الهواء أرفع كثيرا مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية، وكان في امكانها ان تشعل كل شيء قابل للاحتراق، ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالارض ولكانت العاقبة مروعة، أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إربا إربا من مجرد حرارة مروره...

٢ - الآية (٨٨) من سورة النمل

١ - الآية (٢) من سورة الفرقان

٣ - ترجمة «محمود صالح الفلكي بعنوان «العلم يدعو الى الايمان» وانظر في ظلال القرآن ص ١٤ ج ١٩ المجلد السادس

ما ذا يحب على كل من الطبيب والصانع
ما ذا يحدث لو كل أهل علمات

إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيائي التي
يحتاج إليها الزرع، والتي تقتل الجراثيم، وتنتج الفيتامينات دون أن تضر
بالإنسان ..»

وهكذا ينكشف للعالم البشري يوماً بعد يوم شيء من تقدير الله العجيب في
الخلق، وتدبيره الدقيق في الكون، ويدرك البشر شيئاً من مدلولات قوله في الفرقان
الذي نزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾
إن كل عمل لا بد له من هدف وإلا كان عبثاً، ولا يؤدي العمل هدفه إلا إذا
كان محكماً دقيقاً.

يخيط الحائك الثوب، ليتزين به صاحبه، ويبقى بدنه حمارة القيظ، وزمهرير
البرد، فإذا أهمل في مقاييسه، وتهاون في حياكته، افسد الثوب، فلا يصلح لصاحبه،
ولا يؤدي وظيفته، وتذهب قيمته سدى، ويذهب معها جهد الحائك أدراج الرياح،
لأنه خبط خبط عشواء.

ويتناول الصانع الآلة، فلا يتقن نسبها، ولا يحكم توازنها، ولا يحسن تقدير
أبعادها، ولا ينسق بين أجزائها، فتخرج من يده ممسوخة الشكل، مشوهة المنظر،
فاسدة الصنعة، يشتريها من يحتاج إليها فلا يكاد يستعملها حتى يظهر عوارها،
فتتلف بدلاً من أن تُصلح، وتعود على الجميع بضائع المال، وقتل الوقت، وخيبة
الأمل.

ويعالج الطبيب المريض، فلا يهتم بفحصه، ولا يستخدم مهارته، ولا يستثمر
علمه، ولا يقدر مهمته، ولا يعتني بوظيفته، فيخطئ موضع الدواء، ويعزب عنه
الدواء، وقد يجري له جراحة، أو يعطيه علاجاً ضاراً، فيودي بحياة إنسان.
ويتولى إنسان إدارة عمل، فيستهين بمسئوليته، ولا يحكم تدبير أمره، فيسير
على غير هدى، ويهدم اليوم ما بناه بالأمس، وينسخ في الغد ما أمر به اليوم
فتضطرب الأحوال، ويعيش الناس في فوضى، وتبوء الأمة بالوبال والخسران.

وهكذا الشأن في وظائف الحياة المتعددة.

إنه لا شيء أسمى إلى النجاح في الحياة كإتقان العمل، وإحكام أدائه، والعمل المتقن المحكم يوفر الجهد، ويحقق الغاية، وتجنبي الأمة منه الثمار الطيبة، والأكل الشهي.

أرأيت أيها الطالب لو أنك تناولت أدوات المختبر لتجري تجربة عملية، فلم تبال بالنسب المفروضة من المواد الكيائية، ولم تتقن وضعها في القنينة، ولم تدقق النظر بالمجهر، أتراك تحصل بعد هذا على تقدير سليم؟ أم إنك سوف تبذل طاقتك، وتضيع وقتك، في عبث لا طائل تحته، بل ربما يؤدي سوء تقديرك إلى إشعال حريق في المختبر، فتكون كارثة الإهمال والضياع.

أما إذا تناولت أدوات المختبر بدقة، واستعملتها بأناة، واتفقت تقدير نسب المواد، وأحكمت طرق استخدامها، وتتبع الخطوات السديدة في تجربتك، فإنك بتوفيق الله، سوف تصل إلى الصواب، وتحقق النجاح.

والداعية الذي يدرس أحوال مجتمعه، ويتعرف على نفسيات أبنائه، ويخاطب كل مستوى بما يقتضيه المقام، ويتقن طريقة العرض بأسلوب شائق، يجتذب إليه القلوب، ويسيطر على المشاعر، وينجح في دعوته.

ولو أن كل إنسان في عمله، كبيرا كان أو صغيرا، رئيسا أو مرءوسا، أتقن عمله، واحكم أدائه، لسار دولاب الحياة سيرا حثيثا، واحرزت الأمة تقدما ملموسا، ونجاحا فائقا، فكيف بأمة ترى في صنع الله الإتيقان الدقيق، والتناسق البديع؟ وتجد في مبادئ حياتها الدينية: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه؟^١

١ - هذه العبارة الاخيرة نص حديث ضعيف رواه البيهقي في شعب الايمان، ولم نوردها للاستسهاد، ولكن اوردها اقتباسا في سياق المعنى.

ن - التدخين ومضاره

للإسلام أدلته النصية، وقواعده الكلية، ومقاصده الشرعية، التي تنبثق منها شريعته، وينبني عليها الحلال والحرام.

ومن قواعد الإسلام العامة في المطعم والمشرب أن أحل لعباده طيبات الحياة التي يستمتعون بها،، وتعود عليهم بالنفع، ويطيب لهم تناولها، ولا يجدون فيها ما يآباه الطبع السليم، أو تأنف منه النفس السوية، وحرّم عليهم ما خبث طعاماً، أو رائحة، أو ضرراً، وقاعدة ذلك قوله تعالى ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾^١.

ومن قواعد الإسلام العامة انه لا يجوز للإنسان أن يتناول شيئاً يضر بصحته، ويهدد حياته. فإن المسلم لا يمتلك نفسه، حتى يتصرف فيها كما يشاء، ولو كان في هذا التصرف ما يقضي على حياته، إنما هو ملك لله، وحياته حق لمن وهبه هذه الحياة، وصحته من نعم الله عليه، فلا يحل له أن يستهين بها، أو يفرط فيها. ولا فرق بين من يقتل نفسه بوسيلة عاجلة، ومن يقتلها بسم بطي، فكلاهما يودي بحياته عاجلاً أو آجلاً، وقاعدة ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^٢. وقوله ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^٣.

والمال نعمة من الله تستوجب الصيانة والحفظ، فلا ينفقه المسلم الا فيما أحل الله له من وجوه النفقات المتعددة، استمتاعاً بطيبات الحياة، وإذا كان الله تعالى قد أباح للإنسان أن يكتسب المال من وجوهه المشروعة، فإن حق تصرفه فيه مشروط بمعالم حددها الإسلام، وفي مال كل فرد من الأفراد حق عام للأمة، حيث جعل الله المال قواماً لمعيشة الناس، وفي ضياع مال الفرد ضياع لثروة الأمة، وقاعدة ذلك ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه «نهى عن إضاعة المال»^٤.

١ - الآية (١٥٧) الأعراف

٢ - الآية (٢٩) من سورة النساء

٣ - الآية (١٢٥) من سورة البقرة

٤ - من حديث يرويه مسلم

وحفظ النفس، وحفظ المال، وحفظ العقل، من مقاصد الشريعة الإسلامية الضرورية، التي يترتب على الإخلال بها العقوبات الرادعة المنصوص عليها. ويتفاوت هذا الإخلال. فمنه ما يكون فواتا لها، وهو الذي يحمل عليه العقوبة النصية، ومنه ما يكون دون ذلك مما فيه ضيق وحرص ومشقة، فيكون النهي عنه لأنه يفوت امرا حاجيا يتصل بالأمر الضرورية. ومن ذلك ما جاء في الحديث «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر»^١. وفي ضوء تلك القواعد والمقاصد نستطيع أن نحكم على التدخين بعد أن نعرف مضاره.

لقد ظهر «التبغ» أي الدخان منذ زمن بعيد^٢ واستعمله سكان أمريكا الأصليون «الهنود الحمر» بوسائل مختلفة. يصفونه، ويستنشقونه، ويضعونه في لفافات يدخونها «السيكار» ثم انتقلت عادة التدخين من أمريكا إلى أوروبا، وانتشرت في أنحاء العالم، وأنشئت له المعامل الآلية التي تنتج في اليوم الواحد ملايين اللفافات، وارتفع معها الاستهلاك ارتفاعا هائلا.

وأدرك الأطباء اضراره في وقت مبكر، ففي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة والف ظهر أول مقال في «انكلترا» يهاجم عادة التدخين، ثم تتابع البحث فيه، وكشفت المقالات المتعددة عن اضراره.

وكان لهجوم الأطباء على التدخين اثره في كثير من بلاد العالم، فحاولت أن تجد منه بفرض الضرائب الباهظة، وحين لم تجد هذه الوسيلة نفعا لجأت بعض الدول إلى سن القوانين التي تمنعه، كالدانمارك، والسويد، وهولندا، والنمسا.

ولكن الحكومات رأت أن الضرائب التي تفرضها على الدخان تدر عليها ربحا وفيرا، وترفع مستوى دخلها، فأغررتها المصلحة المالية، وبدأت معارضتها للتدخين تتلاشى شيئا فشيئا، حتى أصبح وارده بالمكان الأول لدى بعض البلاد.

١ - رواه احمد وابو داود عن ام سلمة
٢ - في القرن الخامس عشر الميلادي

وتخصص الشركات التي تُصنَع التبغ في ميزانياتها نصيبا هائلا للدعاية بوسائل الإعلام المرئي والمسموع والمقروء، وتشترى هذه الشركات ذمم ضعاف النفوس من الأطباء أحيانا لكتابة أبحاث تخفف من الأضرار التي تنجم عن التدخين، وساعد على هذا أن نتائج التدخين الكثير لا تظهر لدى الشخص القوي البنية إلا بعد عشرين أو ثلاثين عاما.

وسرت عادت التدخين مسرى الداء الدفين بين الشعوب المختلفة في المستويات كلها، من الصبية والبنات، إلى الفتيان والفتيات، إلى الرجال والنساء، والشيوخ والعجائز، وإن كانت نسبتها ترتفع بين المراهقين.

أضرار التدخين الصحية :-

يجمع الأطباء على أن التدخين يسبب أضرارا جسمية وبيلة. يقول أحد الأطباء الانجليز «إن التدخين يسبب الجنون، والنزف الدماغى، والشلل، والرجفان الدائم، والتهاب الحنجرة، والتهاب القصبات، وضيق التنفس، والسل، والاضطرابات الهضمية، والتهاب المعدة، وانثقاب الامعاء، وتساقط الشعر، والحموضة في المعدة، والاصابات الكبدية، والغازات المعوية، والضعف الجنسي، والحمى التيفية، وأمراض الجلد، وبعض الأمراض الأخرى».

سرطان الرئة :-

وتسجل الاحصاءات أن نسبة الوفيات بسرطان الرئة عالية جدا بين المدخنين إذا قورنت بنسبة الوفيات بنفس المرض عند غير المدخنين، وأن نسبة الوفيات بين الذين تعودوا شهق الدخان إلى الرئتين أعلى من نسبتها بين الذين لا يشهقون الدخان لداخل الرئتين.

وقد أجرت عدة مراكز في أمريكا وبريطانيا ابحاثا طبية عن نسبة الوفيات بسرطان الرئة، وخرجت من ذلك بنتيجة واحدة هي : ان حوادث سرطان الرئة تتزايد بازدياد عدد اللقافات «السيجارات» المدخنة يوميا، ولا يزال سرطان الرئة حتى

اليوم مرضا نادرا بين غير المدخنين . ٢٣٨

المواد الضارة في دخان التبغ وانواع ضررها:-

ومن أهم المواد الموجودة في دخان التبغ مادة «النيكوتين» وهي مادة بالغة الخطورة، فانها تسبب زيادة في ضربات القلب، واختلالا في انتظامها، وتضييق فتحة الأوعية الدموية في الأطراف، وتثير الأعصاب، وإذا ارتفعت نسبتها أحدثت تسمما بها.

ومن المواد الموجودة في دخان التبغ «البيرادين» ومواد قطرانية وفيلونية، وهي مواد ذات ضرر بالغ على جهاز التنفس، وشعيرات القصبة الهوائية، وتسبب تصلب الشرايين الإكليلية في القلب، والالتهابات المزمنة في القصبات.

يقول الدكتور صبري القباني في نبات التبغ: «إن هذا النبات يتميز عن غيره من النباتات باحتواء اوراقه على نسبة كبيرة من «النيكوتين» وكميات أخرى من مركبات قريبة الشبه بتلك المادة، وكلها مركبات سامة... كما أن التدخين يسبب الأرق والقلق والكآبة ووهن الإرادة وضعف الذاكرة والكسل والخمول والضعف الجنسي».

وأثبتت البحوث الميدانية على آلاف الأشخاص العلاقة الوثيقة بين التدخين وامراض الدورة الدموية، وأمراض الشرايين الناجية «الذبحة» وضغط الدم، وأمراض الأوعية الدموية للأطراف، وأثبتت أن معظم المصابين بقرحة المعدة والاثني عشر من المدخنين. وأن نسبة الإصابة بسرطان اللثة والشفة والفم والحلق عند المدخنين أعلى منها عند غير المدخنين.

وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذا مبالغة ومغالاة في ذكر مضار التدخين، مع أن كثيراً من مشاهير الرجال في العالم لا تفارق اللقافة أفواههم، ولكننا نقول لهم: إن وجود مثل هؤلاء المدخنين الأصحاء لا يدحض ما ذكرناه، إذ إن اعتياد تعاطي كميات صغيرة من السم لا تؤثر في الجسم تأثيرا سريعا لا تعني أن السم غير قاتل.

١ - راجع كتاب «التدخين وسرطان الرئة والامراض الاخرى» للدكتور نبيل صبحي الطويل

ونظير هذا ما يقال في ضياع المال، من أن كثيرا من المدخنين من أصحاب الثروات الطائلة التي لا يؤثر فيها نفقات التدخين، فإن هذا ينفي الحقيقة المرة في واقع حياة الفقراء الذين تأسرهم عادة التدخين، فيقترون على أنفسهم في النفقات الضرورية بمعيشتهم ومعيشة من يعولون لتوفير نفقات الدخان، ولا ينفي كذلك أثر بذخ الأثرياء على الاقتصاد العام للأمة.

وإزاء ما ذكرناه من استعراض مضار التدخين فإننا نستطيع أن نقرر بناء على الأدلة النصية، والقواعد الكلية والمقاصد الشرعية، بأن التبغ من الخبائث، وأن تناوله يؤدي إلى ضياع المال، والإضرار بالبدن، والتأثير على الذاكرة، فيكون أمرا منها عنه، ويتأكد هذا النهي بالنسبة إلى ذوي الحاجة المالية، ومن يقرر الأطباء ما يلحقه بهم التدخين من أضرار صحية.

هذا وإن علاج عادة التدخين - كعلاج أي عادة متحكمة - لا يكون بالغلو والتشدد، كأن التدخين يقوض دعائم الدين، إنما يعالج هذا بالوعي الديني، والثقافة الصحية والتربية الهادفة السليمة.

✓ ما هي أضرار التدخين لصحة؟

س - الخطر الصهيوني

ترتبط الحركة الصهيونية بفكرة إنشاء دولة يهودية باسم: «دولة إسرائيل» ارتباطا وثيقا.

فالحركة السياسية التي تدعو إلى قيام دولة يهودية على أرض فلسطين هي التي تدعى بالحركة الصهيونية، نسبة إلى جبل «صهيون» في القدس. أما «إسرائيل» فهو لقب يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام.

ولم يخطر لليهود أن يتخذوا في القدس بيتا ذا قداسة إلى أن جاء سليمان فبنى فيها الهيكل المشهور، ثم سمي بيت المقدس، ولم يحرص اليهود على أن يكون حينهم للقدس، بل حرصوا على أن يكون الحنين إلى «صهيون» وأصبح هذا رمزاً للحنين إلى عودة المملكة اليهودية التي يحلمون بها، وبهذا تحولت المعتقدات الدينية تحولا جديدا مع مصالحهم السياسية.

وقد تفرق اليهود في أنحاء العالم لاضطهادهم في فترات من التاريخ، ولاسيما ما كان من اضطهاد النصارى لهم، ويصل عددهم اليوم قريبا من خمسة عشر مليونا من أعراق مختلفة، يقيم أكثرهم في الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي، وظل شعورهم مرتبطا بالدولة التي يريدونها.

يقول الأستاذ عباس العقاد: «حدث في عصر السيد المسيح ان اليهود تفرقوا في أنحاء الدولة الرومانية، واتخذوا لهم وطنا في كل قطر من أقطارها الواسعة، فكتب «فيلون» فيلسوف الاسكندرية اليهودي، يقول في تحديد موقفهم من الدولة: إن اليهود - لكثرة عددهم - لا تحتوهم بقعة واحدة - ويتفرقون لطلب الرزق في أغنى البلاد من أوربا وآسيا، على أنهم ينظرون إلى اورشليم مقر هيكل الله المقدس - كأنها حاضرتهم الكبرى، ويحسبون وطنا لهم كل أرض عاش فيها اباؤهم وأجدادهم من قبلهم»^١.

١ - انظر كتاب «الصهيونية العالمية» للأستاذ عباس محمود العقاد ص ١٣.

وقد حاول اليهود تحقيق فكرتهم بالوسائل الدنيئة، وفي مطلع القرن العشرين الميلادي اتصل الزعيم الصهيوني «هرتسل» بالسلطان عبد الحميد، وعرض عليه مبالغ كبيرة من المال، وتسديد ديون الدولة العثمانية كلها إذا أذن لليهود بإقامة مستعمرة لهم في فلسطين ولكن السلطان المسلم رفض هذا العرض، ورد «هرتسل» ردا سيئا.

وتدعي الصهيونية أن ما يلاقه اليهود من اضطهاد هو السبب الذي يحملهم على قيام الدولة، وهذه دعوى باطلة، فإن انقسام اليهود داء مزمن فيهم، وقد عرفوا عبر التاريخ بتمردهم على كل نبي من انبيائهم، وهذا هو الذي وصفهم به القرآن الكريم ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾^١.

وهو الوصف الذي جاء في كتبهم، ففي الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية يقال لهم بلسان الرب «إني عارف تمردكم ورقابكم الصلبة».

فهذه الطبيعة الشكسة المعاندة هي الآفة التي تجر عليهم الاضطهاد في كل بقعة، وفي كل عصر، فعلتهم من ذاتهم، والطبع اللئيم الأصيل الكامن في النفس لا علاج له إلا بالخلاص من صاحبه.

يقول العقاد: «وليس للأمم من حيلة معهم إلا أن تخضعهم آخر الأمر أو تخضع لهم برمتها، وانه هو المسحيل بعينه على كل فرض من الفروض، وإنما آفة القوم الكمينه فيهم أنهم كائن مسوخ من الوجهة الاجتماعية، لأنهم جماعة مقتضة^٢، لم تصبح أمة، ولم ترجع إلى نظام القبيلة البدوية، واشتبكت مع العالم وهي في مرحلة غير نامية وغير صالحة للنمو على حدة، فكل علاج لها ميثوس من جدواه، ما لم يغلبها العالم على طبيعتها، ويدمجها اضطرارا في طوية أمم، وسوف يكون ذلك لا محالة لأن غيره لن يكون»^٣.

٢ - مقتضة: متفرقة

١ - الآية (١٤) من سورة الحشر

٣ - «الصهيونية العالمية» ص ١٦، ١٧.

وظلت فكرة الوطن القومي، أو فكرة الدولة اليهودية، تداعب أحلام اليهود، حتى أو شك القرن التاسع عشر أن ينتهي، وصدر كتاب «الدولة اليهودية» الذي ألفه «هرتسل» سنة خمس وتسعين وثمانمائة والف، فتبلورت الفكرة.

ثم كان مؤتمر «بال»^١ بسويسرة الذي عقده اليهود سنة سبع وتسعين وثمانمائة ألف، وصادر في اليوم الثاني من أيام انعقاده قرارا يقول فيه تعريفا للصهيونية: «إنها حركة ترمي إلى إنشاء وطن للشعب اليهودي شرعي معترف به في أرض فلسطين» ويرى المؤتمر أن الوسائل الآتية صالحة لتحقيق هذا الغرض، وهي:

١ - ترقية اليهود المقيمين بفلسطين في أعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية.
٢ - تأليف اليهود في جميع البلدان جماعات محلية، أو جماعات عامة، حسب القوانين المرعية في تلك البلدان.

٣ - تقوية الوعي اليهودي حيث كان.

٤ - اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على السند الضروري من الحكومات...^٢

والصهيونية العالمية لها دعايتها ومقاصدها وغاياتها. وقد ظهرت مجموعة من الوثائق السرية سميت بمحاضر مشيخة إسرائيل، أو «بروتوكولات حكماء صهيون»^٣، خلاصتها، أنها تجمع المحاضر التي تسجل قرارات المشيخة الصهيونية، وأن هذه المشيخة تلتقي من حين إلى آخر للنظر في شئون العالم، واتخاذ الخطط المرسومة لتوجيه السياسة الدولية، وإثارة الفتن والقتال في أمم الحضارة، سعيا وراء غاية واحدة، وهي تخريب العالم، وهدم دعائم الأخلاق والأديان، والقضاء على كل سيادة روحية أو دنيوية فيه، لتمكين الصهيونية من السيطرة عليه.

ولم تعرف الإنسانية في تاريخها عدا ماكرا كعداء الحركة اليهودية للبشرية بعامة، وللإسلام بخاصة. ذلك لأن نفوسهم التي انطوت على الخبث والدهاء، وأخذ

٢ - انظر المصدر السابق ص ٢٤

١ - بال: قرية سويسرية

٣ - ترجمة محمد خليفة التونسي

منها الجبن مأخذه، تنقم على الناس كافة، وتزرع الشر والهلاك والدمار، ويطيب لها ان ترى نار الفتن تتأجج هنا وهناك، لتقضي على المعتقدات الدينية، والحضارة الإنسانية.

إن الصهيونيين لا يريدون أن تكون الحياة إلا لهم وحدهم، وهم كتابان: كتاب معروف لا يعمل به، وهو التوراة، وكتاب مجهول عند العالم، يدعى التلمود، وبه يعملون، وينص كتاب التلمود على أن جميع خيرات الأرض ملك لبني إسرائيل، وأنهم منحدرون من الله كما ينحدر الابن من أبيه، أما غيرهم من الناس فهم أميون، لا حرج على اليهود في أن ياكلوا أموالهم، ويستبيحوا حرماهم، وهذا هو ما حكاه القرآن الكريم عنهم، في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَقْبِينَ سَبِيلٌ﴾^١ وكان اليهود قبل بعثة رسولنا صلى الله عليه وسلم - وقد بشرت به التوراة - يستفتحون على الذين كفروا، وأنه قد اظلم ملك نبي، سوف يتبعونه، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

ومنذ ذلك الحين، واليهود يكيدون للإسلام، ويضمررون له العداة اللئيم، والغدر الفاحش.

لقد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن هاجر إلى المدينة، وأخذوا على أنفسهم العهد والميثاق أن يدافعوا عنه، فما لبث هذا العهد طويلا حتى تنكروا له، وأخذوا يدسون سمومهم للتفرقة بين صفوف الأنصار والمهاجرين من جهة، وبين الأنصار - خزرجهم وأوسهم - من جهة أخرى، وواتتهم فرصة اللؤم والخديعة فألبوا مشركي العرب من قريش وغطفان وغيرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى حاصروا المدينة في غزوة الأحزاب، واشتد الأمر على المسلمين، وبلغت القلوب الحناجر، لولا أن الله تعالى تداركهم برحمته، وبدد شمل عدوهم، ورد كيدهم إلى نحورهم، وكانت الضربة عليهم فأخرجوا من المدينة خاسئين.

١ - الآية (٧٥) من سورة آل عمران

واعتنق بعض شرار اليهود الإسلام بغية الدس فيه، والكيد له، والعمل على هدم كيانه، وقامت الفتنة الكبرى التي أججها ابن سبأ اليهودي في عهد عثمان رضي الله عنه، وظل ينفث سمومه فيها، وهي المعروفة بالحركة السبئية الهدامة التي قاومها علي رضي الله عنه أشد مقاومة.

وما من حركة عالمية هدامة إلا وكان اليهود من ورائها، يُذكون أوارها.
فالماسونية - وهي جمعية سرية هدامة - تحركها اليهودية الكامنة وراءها والأساتذة الكبار في المحافل الماسونية هم الممثلون للجمعيات اليهودية السرية في العالم، ومن «بروتوكولات حكماء صهيون» «والى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كل من يصير أو يكون معروفًا بأنه ذو روح عامة».
ومن المعروف أن «كارل ماركس» صاحب المبدأ الشيوعي ينحدر من اصل يهودي، والشيوعية تنكر للأديان، وتعتبرها مخدرة للشعوب الكادحة عن المطالبة بحقها.

والفكرة الصهيونية تهدف إلى محاربة الإسلام، والقضاء على تاريخه، وإن كانت تحمل طابعا سياسياً في وجود كيان يهودي في فلسطين.
جاء في دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة الصهيونية ما نصه: «ان اليهود يتطلعون إلى افتداء إسرائيل واجتماع الشعب في فلسطين، واستعادة الدولة اليهودية، وإعادة بناء الهيكل، وإقامة عرش داود في القدس ثانية، وعليه امير من نسل داود»
والقضاء على المسجد الأقصى وإقامة هيكل سليمان على أنقاضه من أهدافهم الأساسية، فقد قال أحد زعمائهم: إنه لا معنى لفلسطين بدون القدس، ولا معنى للقدس بدون الهيكل.

والروح الدينية المعادية للإسلام هي التي تحرك اليهود في حربهم لنا. وإن كانوا

١ - الأوار: اللهب، وحر النار

يهدفون إلى تحقيق غرض سياسي في اقامة دولتهم .

فعندما اقتحمت القوات اليهودية المسلحة سيناء سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف ، كانت تتقدم سيارات الجيش سيارة تَقِلّ الحاخام اليهودي ، وقد وُضِعَتْ على مقدمتها نسخة كبيرة من التوراة . وعندما وطئت أقدامهم ارض سيناء ترَجَّلوا ، وقبلوا ثرى الوادي المقدس ، وأقاموا صلاتهم .

وحيث احتل اليهود القدس سنة سبع وستين وتسعمائة وألف كان اول شيء عمله القواد والضباط اليهود أن ساروا إلى حائط المبكى ، يتقدمهم الحاخام « غورين » الضابط في الجيش ، فنفخ في البوق وفقا لطقوسهم الدينية ، ثم أقاموا الصلاة هناك .

ولم يمض على ذلك سوى فترة قصيرة ، حتى قام علماء الآثار القديمة من اليهود فحفروا الأرض تحت المسجد الأقصى بغية العثور على الهيكل اليهودي ، وهدموا البيوت المجاورة للمسجد من مباني الوقف الإسلامي ، ثم كانت جريمتهم النكراء التي روعت العالم الإسلامي في إحراق مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا كانت الكوارث في حياة الأمم بداية يقظة لها ، فإن حربنا مع الصهاينة قد ايقظت في أمتنا وعيا جديدا ، حيث أدركت الأمة الإسلامية أنها ذات كيان واحد ، وأن قضاياها العدوانية في اي قطر واحدة ، وأخذ هذا الوعي ينمو رويدا رويدا ، حتى كانت حرب العاشر من رمضان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة والـف من الهجرة ، فظهرت فيها روح إسلامية جديدة ، أراها الله بشائر النصر ، فلقنت العدو درسا قاسيا ، وحطمت الأسطورة القائلة : إن إسرائيل لا تهزم .

إن المسلمين يبلغ عددهم في العالم اكثر من ستائة مليون ، وزيادتهم السنوية تبلغ عشرين مليونا ، أي اكثر من جميع يهود العالم ، والعرب وحدهم يبلغ عددهم مائة مليون ، وتبلغ زيادتهم السنوية ثلاثة ملايين نسمة ، أي أكثر من دولة إسرائيل . وما أصابنا ما أصابنا من قلة في عددنا ، أو ضعف في إمكانياتنا ، إنما أصابنا ذلك

حين عزلنا الإسلام عن المعركة، وقد حان الوقت لأن نعلنها معركة إسلامية للجهاد في سبيل الله، والذود عن حياض الدين، ولنا من جهاد رسولنا صلى الله عليه وسلم، وجهاد صحابته الأبرار، وما وعد الله به المؤمنين الصادقين، ما يثبتنا على الحق ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^١.

وليست ومضة الإيمان التي نشهدها في شباب أمتنا سوى بارقة الأمل، وسوف يتصاعد اثرها بإذن الله في قوة وعزم، حتى يحق الله الحق، وتدور دائرة السوء على الظالمين المعتدين، وفي الغد المرتقب بساحة الاستشهاد يتنزل نصر الله على المؤمنين وما ذلك على الله بعزيز.

لِسَاطِئِ الْمَرَاتِ لِيَا كَذِبًا مَوْجَرِبًا
سَاطِئِ مَرَاتِ مَرَاتِ مَرَاتِ

١ - الآية (٤٧) من سورة الروم

ع- فضل العلم وموقف المسلمين من العلوم الكونية

لا يعرف التاريخ أمة من الأمم ترفع من شأن العلم وأهله كأمة الإسلام، هذه الأمة التي حملت إلى البشرية رسالة الهدى والعلم، ففجرت ينابيع المعرفة. وانسابت جداولها في أنحاء المعمورة، تمد الإنسانية بطرائق البحث، ومناهج التفكير، وتجعل العقل المهتدي البصير معيارا للفضيلة، وتشحذ العزائم لإحراز فضيلة العلم، تارة بالاستفهام الإنكاري الذي يثير في النفس طموحها (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ①) * ١. وتارة أخرى باقتران درجات العلم بمكانة الإيمان ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ②﴾

ولا يجهل أحد مكانة النبوة فإنها ذروة ما ترنو إليه آمال البشرية سموا وشرفا، ولكن رسولنا صلى الله عليه وسلم - وقد أوتي القرآن ومثله معه - يأمره الله أن يسأل ربه مزيدا من العلم ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ③﴾ * ٢.

والعلم بمفهومه العام يشمل النظر في آيات الله الكونية وما أودعه الله في الكائنات من طاقات هائلة تنبئ عن عظمة الخالق المبدع، وقد أمر الله تعالى بالنظر في تلك العوالم بحقول المعرفة المختلفة، حتى يسخر المسلم طاقاتها لعبارة الأرض بالإيمان، ويجمع الله علوم الفلك، والنبات، وطبقات الأرض، والحيوان، ويجعل ذلك من بواعث خشيته، في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ④﴾ * ٣. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ * ٤.

فقوله: (أنزل من السماء ماء) فيه إشارة إلى علم الفلك، وقوله: (فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) فيه إشارة إلى علم النبات، وقوله: (ومن الجبال)

٢ - الآية (١١) من سورة المجادلة

٤ - الآيتان (٢٧، ٢٨) من سورة فاطر

١ - الآية (٩) من سورة الزمر

٣ - الآية (١١٤) من سورة طه

جدد بيض وحمرة مختلف ألوانها وغرايب سود) فيه إشارة إلى علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وقوله: (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) فيه إشارة إلى علم الأحياء.

والعلم يطلب بالدراسة والتحصيل، وأي جهد يبذله الدارس في الوصول إلى جديد من المعرفة يقربه إلى الله زلفى، وإذا حسنت نيته واحتسب هذا لإعلاء كلمة الإسلام وإعزاز أمته فإنه يصير قربة يصل بها إلى رضا الله ومغفرته، ويحظى بجنته، وتعلو منزلته، ويكون بهذا وريثاً للأنبياء «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»^١. «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^٢.

وإذا كان الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، فإن الخروج لطلب العلم نمط من أنماط الجهاد «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»^٣. والإسلام يهذب غريزة حب الذات، ويوجه طاقتها إلى ميدان التنافس البريء فيما يرفع شأن الأمة ويعود عليها بالخير.

وإنما تبني الأمم مجدها بأمرين: المال، والعلم.

فالمال عصب الحياة، وهو قوام المعيشة واداة التقدم والرقى، وأساس الحضارة في ميادينها المختلفة.

والعلم النافع هو سبيل نهضة الأمة. ومشعل هدايتها، ورمز قوتها، وعنوان رقيها، وهو رصيد الفكر الذي يستحوذ على المال.

١ - رواه مسلم

٢ - رواه ابو داود والترمذي

٣ - رواه الترمذي

والإسلام يوجه هذا وذاك لبناء الحضارة الفاضلة وتوجيهها توجيهاً إنسانياً رشيداً
« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل
آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها »^٢.

موقف المسلم من العلوم الكونية : - والعلوم منها النقلية ومنها العقلية ، والأصل
في علوم الشريعة الإسلامية أنها نقلية . إذ تعتمد في مصدرها على الكتاب والسنة ،
والأصل في العلوم الكونية أنها عقلية ، لأنها تعتمد على البحث والنظر .

والنقلية الشرعية منه ما هو قطعي الثبوت والدلالة كنصوص القرآن الكريم والسنة
المتواترة التي لا تحتمل سوى معنى واحد ، ومن ذلك أركان الإيمان ، وأصول
العبادات ، والمحرمات في النكاح ، والأنصبة المفروضة في الميراث ، والعقوبات النصية
على الجرائم الكبرى ، وهذا لا مجال للاجتهاد فيه .

ومنه ما هو ظني الثبوت أو ظني الدلالة ، حيث يحتمل أكثر من معنى ، وهو
عام ما ورد في القرآن والسنة ، وهذا هو الذي كان مجالاً لاجتهاد العلماء .

والعلوم العقلية كذلك ، منها ما أصبح حقيقة علمية قطعية بالاستقرار
والتجربة والحس ، ككثير من المكتشفات العلمية التي تتصل بخواص المادة ، وطرق
استثمارها ، وسائر ما نستخدمه الآن في الصناعات ، وأجهزة نقل الأصوات ، وقوة
الدفع ، ونحو ذلك .

ومنها الظني الذي لا زال نظريات قابلة للبحث ، يترجح لدى العلماء فيها
شيء ، ولكنهم لا يقطعون به ، فقد تكشف لهم التجارب العلمية عن شيء آخر
سواه ، حتى يثبت ، ويصير حقيقة علمية .

فأي حقيقة علمية قطعية في الدين أو في العلم يجب التسليم بها ، ولا مجال
للجدال فيها ، فإنها لم تعد موضع بحث ونظر .

ولن يتعارض قطعي شرعي مع قطعي عقلي بحال من الأحوال ، فإن النقل

٢ - متفق عليه

١ - الحسد : هنا بمعنى الغبطة

الصحيح يكون موافقا للعقل الصريح، ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب في هذا الموضوع بعنوان: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول».

وإنما يأتي التعارض في غير القطعي.

فإذا تعارض قطعي شرعي مع نظرية علمية ظنية أخذنا بالقطعي الشرعي لأنه اليقين الثابت. وأما بأنه واقع لا ريب فيه وإن قال العلم: إنه غير واقع، فإن العلم لم يصل إلى اكتشاف كل شيء، وقد يكتشف اليوم أمرا يضعه موضع التجربة ثم يتبين خلافه. ومن ذلك ما كان شائعا لدى علماء الفلك قديما من أن الشمس ثابتة والأرض هي التي تتحرك، فإن العلم أثبت بعد هذا أن الشمس كذلك لها حركة، وهذا يتفق مع قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَٰذَا ذَٰلِكَ نَقْدِرُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٨).^١

وإذا تعارض ظني شرعي مع نظرية علمية ظنية فإننا نظل مع الظني الشرعي، وننسب الظني العلمي إلى أهله دون تكذيب، فإما أن تثبت الأيام زيفه، وإما أن يتبين أنه حقيقة علمية ثابتة.

ومن الخطأ أن نحصر على تأويل النصوص الشرعية بما يتفق مع كل نظرية علمية جديدة، فإن هذه النظريات الظنية تتجدد وتبطل ويقوض بعضها بعضا. وهذا المسلك مع ما فيه من هزيمة نفسية وإجلال للعلوم الكونية يؤدي بنا إلى التأويل المستمر للنصوص الشرعية الظنية مع التحمل والتكلف.

كما أنه من الخطأ كذلك أن ننكر نظرية علمية ظنية لنعارضها مع الظني الشرعي، فإنه قد يثبت صدق هذه النظرية التي أنكرناها، وعندئذ يكون تراجعنا مخجلاً، فيكفينا أن نظل مع الظني الشرعي وننسب نظريات العلوم الظنية إلى أربابها، ما دمنا لسنا من أهلها.

وإذا تعارض الظني الشرعي مع القطعي العلمي فإننا نؤمن بالقطعي العلمي، ونؤول في هذه الحالة الظني الشرعي بما يوافق الحقيقة العلمية القاطعة.

١ - الآية (٣٨) من سورة يس

فلقد ورد في القرآن الكريم من الآيات المجملة الظنية الدلالة ما يدل على أن الأرض مبسوطة ممهدة، كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ سَبِيحًا ۝١٩ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾ وقوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ۝٢١ ﴾ وقوله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ ﴾ ثم ثبتت كروية الأرض، ولم يكن هناك تعارض مع الآيات، لأن الأرض مبسوطة متسعة مسطحة في مرأى العين، ولا يراها الإنسان أمام نظره إلا كذلك. وقد ذلها الله لعباده كالفراش يستقرون عليها، وجعلها ممهدة موطأة كالمهد للصبي، وهذا من نعم الله على البشرية، وهو لا يتنافى مع كروية الأرض.

ومن هذا القبيل ما ثبت من الصعود إلى القمر، فإنه ثبت ثبوتاً قطعياً بالخبر المتواتر، والمتواتر يفيد العلم القطعي، ولا يشترط في رواته العدالة، بل يكفي أن يرويه عدد كثير يحيل العقل تواطهم على الكذب، ويستحيل أن يتواطأ علماء الدول الكبرى على الكذب في هذا، وبينهم من الخصومات السياسية ما بينهم، فإذا أضفنا إلى ذلك أن أجهزة الأرصاد الجوية والتصدير أثبتت صحة هذا لم يعد هناك مجال للشك.

والنصوص الواردة في القرآن الكريم مجملة، ولا تتنافى مع هذا. فقوله تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا وَلَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۝٥ ﴾ الأمر فيه للتعجيز، أي إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض ونواحيها هرباً من قضاء الله وقدره فانفذوا منها، وخلصوا أنفسكم، ولا قدرة لكم على هذا النفوذ إلا بقوة تتسلطون بها، وهيئات لكم ذلك. فالآية سبقت مساق التحدي والإعجاز.

٢ - الآية (٢٠) من سورة الغاشية

٤ - الآية (٦) من سورة النبأ

١ - الآية (١٩) من سورة نوح

٣ - الآية (٢٢) من سورة البقرة

٥ - الآية (٣٣) من سورة الرحمن

وجملها غير واحد من المفسرين على أن هذا يكون في الآخرة لا في الدنيا، حيث يقول تعالى قبل هذه الآية ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾^١.

ويرى بعض الناس أن المراد بالسلطان هنا العلم، وقد استطاع الناس هذا بالعلم، وسياق الآية لا يساعد عليه، فإن الصعود إلى القمر ليس فيه خروج عن قدرة الله، أو هرب من أقطار السموات والأرض، لكنه اكتشاف علمي في نواحي السموات، توصل إليه الناس بالعلم الذي هو هبة الله للبشرية، وهو سبيل الإيمان بعظمة الخالق المبدع.

وما يقال: من أن القمر في السموات، فالصعود إليه أخترق للسموات لا وجه له، فإن قوله تعالى ﴿الْمُرُوءَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي بَيْنِ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾^٢ يفيد أن القمر في السموات، بمعنى أنه في جهتهن، كما نقول: فلان في بلدة كذا، وهو في ناحية من نواحيها، والسماء في اللغة: كل ما علاك، والقمر دون السماء، فلا يلزم من الصعود إليه أخترق السموات، والذي يذكره علماء الفلك عن حقيقة السموات لا يخرج عن أن يكون مجرد فروض، لا يجزم أحد بشيء منها حتى الآن. وهؤلاء الذين يصعدون إلى القمر يعودون إلى الأرض، فهم لم يخرجوا من أقطار السموات والأرض.

بقي أن يأتي العلم بنظريات أو حقائق لا تتصل بالدين، ولم يرد لها ذكر في نصوصه، فضلا عن أن تتعارض معه، وهو الجانب الأكبر من الحياة العلمية في العلوم الكونية، التي هي ثمرة أعمال العقل، ونتاج التجربة والاستقرار، وما بين يوم وآخر يطالعنا العلم بجديد في ميادينه المختلفة إبداعا وابتكارا.

فهذا نستفيده منه، ونسلم به، ومن شأن الأمة الإسلامية التي دعاها دينها إلى النظر في الكون والاستفادة من طاقاته أن تكون سباقة إليه، ولو سارت أمتنا في المنهج الذي بدأت به حياتها الحضارية في العصور الأولى لظلت القيادة العلمية بيدها

٢ - الآيتان (١٥، ١٦) من سورة نوح

١ - الآية ٣١ من سورة الرحمن.

مقرونة بالقيادة الدينية والسياسية كما كانت من قبل في قمة مجدها وأوج عظمتها،
وقد نبغ فيها أمثال جابر بن حيان، والخوارزمي وابن سينا، والرازي، في وقت كان
العالم العربي لا زال يعيش فيما يسمى بالعصور الوسطى، عصور جهالته وغيه،
فهل آن لنا أن نستعيد ماضيينا؟

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مناع القطان

مدير المعهد العالي للقضاء

الرياض

ما عرفت إلى سلمه من ليلهم بكرينيه

المراجع

- ١ - الاصابة في تمييز الصحابة للحافظ بن حجر ط مصطفى الحلبي
- ٢ - الاستيعاب في اسماء الاصحاب لابن عبد البر ط الحلبي
- ٣ - الاحكام السلطانية للماوردي ط الحلبي
- ٤ - الاحكام السلطانية لأبي يعلى ط الحلبي
- ٥ - الأعلام للزركلي ط بيروت
- ٦ - الخلافة او الامامة العظمى محمد رشيد رضا ط المنار
- ٧ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي دار الكتاب العربي بيروت
- ٨ - الأدب المقرر للبخاري ط الحلبي
- ٩ - احياء علوم الدين للغزالي ط دمشق
- ١٠ - المحسبة في الاسلام لابن تيمية المكتبة السلفية بالمدينة
- ١١ - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر دار الكتاب العربي بيروت
- ١٢ - حلبة الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم ط بيروت
- ١٣ - تاريخ الأمم والملوك للطبري ط الحلبي
- ١٤ - الروض الأنف شرح السيرة لابن هشام الحنقمي مطبعة السنة المحمدية
- ١٥ - زاد المعاد في هدي خير العباد لأبن القيم ط دمشق
- ١٦ - السيرة النبوية لأبن هشام بتحقيق السقا ط الحلبي
- ١٧ - الكامل في التاريخ لأبن الأثير ط دار بيروت
- ١٨ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن ط دار بيروت
- ١٩ - الطبقات الكبرى لابن سعد ط دمشق
- ٢٠ - لباب المنقول في اسباب النزول للسيوطي ط دمشق
- ٢١ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال علاء الدين الهندي ط عبد السلام محمد
- ٢٢ - مقدمة ابن خلدون
- ٢٣ - المصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي

- ٢٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر لجمال الدين الأتابكي ط مصر
- ٢٥ - الموافقات للشاطبي
- ٢٦ - تفسير ابن كثير
- ٢٧ - في ظلال القرآن سيد قطب
- ٢٨ - صحيح مسلم بشرح النووي
- ٢٩ - فتح الباري بشرح البخاري لأبن حجر
- ٣٠ - مباحث في علوم القرآن مناع القطان
- ٣١ - تاريخ التشريع والفقہ الاسلامي مناع القطان
- ٣٢ - أعلام النساء ط بيروت لكحالة
- ٣٣ - اليهودي العالمي تعريب خيري حماد
- ٣٤ - الصهيونية العالمية عباس محمود العقاد
- ٣٥ - عماد الدين زنكي د/ عماد الدين خليل
- ٣٦ - الكواكب الدرية في السيرة النبوية بدر الدين بن قاض شهاب
- ٣٧ - التدخين وسرطان الرئة د/ نبيل الطويل
- ٣٨ - تهذيب التهذيب لابن حجر
- ٣٩ - وفيات الاعيان لأبن خلكان
- ٤٠ - القاموس المحيط للفيروزآبادي

الفهرس

٣	المقدمة
٧	أولاً : دراسات في السيرة
٧	أمة رسول الله
١١	ا - صور من حرصه صلى الله عليه وسلم على الدعوة
٢٩	ب - صور من تحمل الأذى في سبيل الدعوة
٥٩	ثانياً : من احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم
٥٩	الحديث الأول
٧٠	الحديث الثاني
٧٧	الحديث الثالث
٨٧	ثالثاً : من روائع الخطب
٨٧	خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إرشاد عماله ومحاسبتهم
٩٣	خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما ولي الخلافة
١٠٢	رابعاً : من الهدى النبوي عن بعض شئون الحياة
١٠٢	ا - آداب طلب العلم
١٠٨	ب - آداب الطعام والشراب
١١٥	ج - آداب النوم والاستيقاظ
١١٨	خامساً : من الحقوق الإسلامية
١١٨	ا - حق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم
١٢٣	ب - حق الوالدين والأقارب
١٢٨	ج - حق المسلم على المسلم
١٣٥	سادساً : من أعلام الإسلام
١٣٥	ا - مصعب بن عمير رضي الله عنه
١٣٩	ب - عبد الله بن المبارك

١٤٣	ج - الإمام أبو حنيفة النعمان
١٥٠	د - الإمام مالك بن أنس
١٥٦	هـ - السلطان نور الدين محمود زنكي
١٦٢	سابعاً: موضوعات عامة
١٦٢	ا - القرآن الكريم عظمته وإعجازه
١٧١	ب - السنة النبوية وموقف المسلمين منها
١٧٥	ج - الشخصية المتميزة للمسلم
١٧٨	د - التكافل الاجتماعي في الإسلام
١٨٦	هـ - الحق والواجب
١٩٠	و - الانقياد والطاعة في المعروف
١٩٣	ز - المبادئ الانسانية التي كفلها الإسلام بصورة فاضلة
٢٠٣	ح - قوة الإرادة وضبط النفس
٢٠٥	ط - الحرص على الوقت وحسن الاستفادة منه
٢٠٨	ي - الأمانة والصدق
٢٢٥	ك - الصبر والثبات
٢٢٩	ل - القصد والاعتدال
٢٣٣	م - الإتيان والاحكام
٢٣٦	ن - التدخين ومضاره
٢٤١	س - الخطر الصهيوني
٢٤٨	ع - فضل العلم وموقف المسلمين من العلوم الكونية
٢٥٥	المراجع
٢٥٦	فهرس الموضوعات

